رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الدكتور عزت فارس

النزعة الإسلامية في شعر شوقي

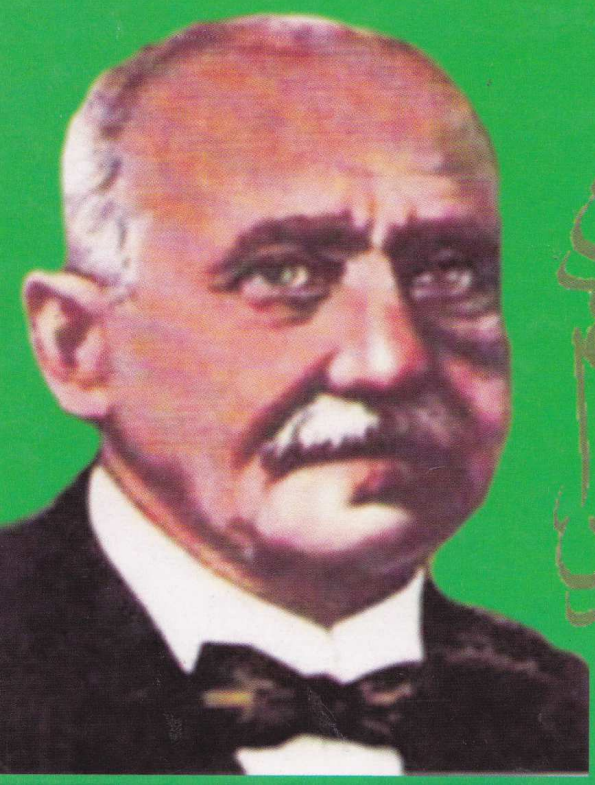

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

النزعة الإسلامية في شعر شوقي

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

النزعة الإسلامية في شعر شوقي

تأليف الدكتور

عـــــزت فـــارس

١٤٣١ هـ / ٢٠١٠ م

دار يافا العلمية للنشر والتوزيع

النزعة الإسلامية في شعر شوقي / عزت علي فارس.ـ
عمان : دار يافا ، ٢٠١٠
( ) ص
ر.إ : ٩٤/ ١/ ٢٠١٠
الواصفات:/ الشعر العربي/ / النقد الأدبي/ / التحليل الأدبي/ / العصر الحديث/

* تم إعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

ISBN: 978-9957-407-61-2

جميع الحقوق محفوظة

جميع الحقوق محفوظة ويمنع طبع أو تصوير الكتاب أو إعادة نشره بأي وسيلة إلا بإذن خطي من الناشر وكل من يخالف ذلك يعرض نفسه للمساءلة القانونية

الطبعة الأولى ، 2010

دار يافا العلمية للنشر والتوزيع

الأردن – عمان – تلفاكس ٤٧٧٨٧٧٠ ٦ ٠٠٩٦٢

ص.ب ٥٢٠٦٥١ عمان ١١١٥٢ الأردن

E-mail: dar_yafa @yahoo.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

مقدمة

عندما وطّدت العزم -بعد الاتكّال على الله- على الكتابة عن النزعة الإسلامية في شعر شوقي، تنازعتني رغبتان، رغبة بالكتابة عن هذا الشاعر الذي ملأ الدنيا، وشغل الناس في زمانه ورهبة من الكتابة عنه، إذ كيف لمثلي أن يتصدى للكتابة ليس عن شاعر وحسب، بل عن شاعر من أهم شعراء العصر الحديث، الذي اعتلى عرش إمارة الشعر عن جدارة وأصبح ملك القوافي بإجماع الشعراء والأدباء الغرب في عصره.

وباستطاعة كل شاد للأدب ومغرم بالشعر، وراغب بمعرفة الحوادث التي حلّت بمصر بخاصة والعالم الإسلامي والخلافة الإسلامية بعامة، أن يرجع إلى ديوانه -الشوقيات- ليعايش الأحداث ويتتبع سير التاريخ خطوة خطوة. وكنا قد استخرنا الله وبدأنا بالكتابة عن هذا العملاق، الذي ترك كرسي الإمارة شاغراً، ينتظر من يملأه في سنة ١٩٧٧، ثم حالت الظروف دون نسخه، وقد استجدت أحداث متعددة في أثناء هذه الحقبة، أملت علينا التعليق عليها في ثنايا هذا الكتاب، وحسبنا أننا سنسهم بقلمنا المتواضع وجهدنا البسيط بتجلية بعض الجوانب الخاصة به -إن كان ذلك بمقدورنا- فإن وفّقنا فحمداً لله، وإن جانبنا التوفيق، فحسبنا أننا حاولنا، والله نسأل أن يلهمنا الصواب والسداد.

الدكتور

عزت محمود علي فارس

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

أحمد شوقي

١٨٦٩-١٩٣٢

حياته ونشأته:

إن كثيراً من الأدباء لا يتحدثون عن أنفسهم، ويتركون ذلك للخلف للتحدث عنهم، وكثيراً ما يعتري حدث الخلف عن السلف الكثير من التغيير والتبديل والتحريف، ولكن من حسن الحظ أن صاحبنا قد تحدث عن نفسه فقال[1]:

«سمعت أبي رحمه الله يردّ أصلنا إلى الأكراد، فالعرب، ويقول أن والده قدم هذه الديار يافعاً، فحمل وصاة من أحمد باشا الجزار إلى والي مصر محمد علي باشا، وكان جدي وأنا (حامل اسمه ولقبه) يحسن كتابة العربية والتركية خطاً وإنشاءً، فأدخله الوالي في معيته، ثم تداولت الأيام وتعاقبت الولاة الفخام، وهو يتقلد المناصب السامية، إلى أن أقامه سعيد باشا أميناً للجمارك المصرية، فكانت وفاته في هذا العمل عن ثروة راضية بدّدها أبي في سكرة الشباب، ثم عاش بعمله -غير نادم ولا محروم- وعشت في ظله وأنا واحده أسمع بما كان من سعة رزقه ولا أراني في ضيق حتى أندب تلك السعة، فكأنه رأى لي كما رأى لنفسه من قبل إلا اقتات من فتات الموتى، أما جدّي لوالدتي فاسمه أحمد بك حليم، ويعرف بالنجدهالي نسبة إلى نجدة، إحدى قرى الأناضول وقد وفد إلى هذه البلاد فتياً كذلك، فاستخدمه والي مصر إبراهيم

(1) مجلة الهلال/ ١٤، الأدب العربي المعاصر في مصر/ ١١٠-١١٣.

باشا من أول يوم ثم زوّجه بمعتوقته جدتي التي أرثيها في هذه المجموعة، وأصلها من مورة، جلبت منها أسيرة حرب لا شراء، وكانت رفيعة المنزلة عند مولاها، وكان زوجها محبوباً عنده كذلك، فما زال كليهما مغموراً بنعمة هذا البيت الكريم حتى توفي جدي وهو وكيل لخاصية الخديوي إسماعيل باشا، فأمر بنقل مرتبه برمته إلى امرأته، وأن يحسب ذلك معاشاً لا إحساناً، وكان الخديوي المذكور يقول عنها: «ولم أر أعفّ منه ولا أقنع من زوجته ولو لم يسمه أبي حليماً لحلمه لسميّته عفيفاً لعفته».

أنا إذاً عربي، تركي، يوناني جركسي بجدتي لأمي، أصول أربعة في فرع مجتمعة تكفله لها مصر كما كفلت أبويه من قبل، وما زال لمصر الكنف المأمول والنائل الجزل، على أنها بلادي وهي منشأي وجهادي ومقبرة أجدادي. ولد لي بها أبوان، ولي في ثراها أب وجدان، وببعض هذا تُحبَّب إلى الرجال الأوطان. أما ولادتي فكانت بمصر القاهرة، وأنا اليوم أصبو إلى الثلاثين، حدثني سيد ندماء هذا العصر الشيخ علي الليثي فقال: (رأى والدك حلماً عجيباً وأنت حمل في بطن أمك، ففسرّته له بأنه سيولد لك ولد يخرق -كما تقول العامة- خرقاً في الإسلام). وقد زار الشيخ الليثي في أواخر حياته، فوجد بيده نسخة الأهرام التي نشرت بها قصيدته في وصف راقصة أولها[1]:

حـــف كأســـها الحَبَـــبُ

فهـــي فـــضةٌ ذَهَـــبُ

فقال: ﴿هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَايَ﴾ [يوسف:١٠٠] وقصّ عليه الحلم، فقال له شوقي (الحمد لله الذي جعل هذه القصيدة هي الخرق)[2].

---

(1) الشوقيات/ م١/ ٧، ٩.

(2) شوقي وحافظ -طاهر الطناحي-.

حصل شوقي على الابتدائية من مدرسة الشيخ صالح ثم الشهادة الثانوية من المدرسة الخديوية، ودخل مدرسة الحقوق، فدرس فيها سنتين، ثم انتقل إلى قسم الترجمة فيها، فحصل على شهادته بعد سنتين، عين مترجماً بديوان الخديوي توفيق، وبعد عام سافر إلى فرنسا في بعثة لدراسة الحقوق فعاد منها حاصلاً على شهادتها.

في سنة ١٨٩٤ ندب لتمثيل مصر في مؤتمر المستشرقين، ونظم قصيدته الشهيرة في تاريخ مصر، وما لها من عظمة في الحضارة. عيّن رئيساً للقسم الفرنجي بديوان الخديوي عباس وبقي حتى نشوب الحرب العالمية، ثم رحل إلى الأندلس، عاد من الأندلس بعد انتهاء الحرب الأولى، وعيّن عضواً بمجلس الشيوخ ١٩٢٤[1].

وقد بزغ نجم شوقي في زمن تألق فيه نجم خليل مطران، وهو من أشهر شعراء العربية في العصر الحديث، وأقدرهم على التصورات البديعية، وقد نظمه في سلك كبار شعراء العربية فقال عنه: ترى فيه من نسج (البحتري) ومن صياغة (أبي تمام) ومن وثبات (المتنبي) ومن مفاجآت (الشريف) ومن مسلسلات مهيار، وأورد عدداً من قصائده الفريدة[2].

شعره:

ينظم بين أصحابه، فيكون معهم وليس معهم، وينظم حين يشاء، وحيث يشاء، لا يجبُّ فكره ولا يكده في معنى أو مبنى، فأما المعنى فيجيئه على مرامه، أو على أبعد

---

(1) شوقي وحافظ -طاهر الطناحي-.

(2) جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب/ تأليف المرحوم السيد أحمد الهاشمي/ ج٢/ ٢٤٣-٢٤٧.

من مرامه، ولا ينضب عنده، لأنه يستخلصه من عقل فوار الذكاء، ومعارف جامعة إلى أفانين الآداب في لغات الإفرنج والأعراب، فلسفة الحقوق وحقائق التاريخ وتنبيهات فنية استفادها من مطالعته في صنوف الكتب، واتخذها من ملاحظاته ومسموعاته في جولاته بين الشرق والغرب، وأما المبنى فله فيه أذواق متعددة بتعدد مقامات القول، ترى فيه من نسج البحتري، ومن صياغة أبي تمام، ومن وثبات المتنبي، ومن مفاجآت الشريف الرضي، ويرى الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجي أنه تتلمذ على المتنبي وحاكاه وعارضه، واقتبس منه، وهو يمثل مرحلة تقدمية للشعر، وقد أثبت ألمعيته لاستيعاب المعاني العصرية في أسلوب كلاسيكي ساحر، يمرح فيه الخيال كما تتدلل الموسيقى والمعاني، وتتألق الصور فتنة للناظرين[1].

إمارته:

شوقي بما تمتع به من شاعرية فيّاضة، وبلاغة أخّاذة، ونظراً لامتلاكه ناصية اللغة العربية واستسلام ناصية الشعر له، موحية له بأروع النغمات، كان جديراً أن يمتطي صهوة الشعر دون منازع.

ولذا، نرى أن كلمة البلاد العربية ممثلة في شعرائها وأدبائها قد اتّفقت -لأول مرة- على أنه أمير شعرائها، ولم يكتفوا بترديدها متفرقة في بلدان العروبة، بل سجلّوها في إجماع رائع على لسان وفودهم التي اجتمعت في أكبر تظاهرة أدبية فنية في

(1) دراسات في الأدب العربي الحديث/ ج١/ ٣٢٠، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب/ ٢٥/ ٢٤٣-٢٤٧.

مؤتمر عام عقد بدار الأوبرا بالقاهرة عام ١٩٢٧، وظلت أسبوعاً تعلن زعامته الشعرية، وتنادي به أميراً للشعراء، وتقدم له في ابتهاج وإكبار وإجلال -تاج الإمارة ولقبها-.

قال حافظ في مبايعته بإمارة الشعر:

أميرَ القوافي قد أتيتُ مُبايعاً

وهَذِي وفودُ الشَّرْقِ قد بَايَعَتْ معي

وظل محتفظاً بها لا يزاحمه عليها شاعر حتى ودّع الدنيا، وهصر القدر غصنه المورق الفينان فكف البلبل عن شدوه، ولبّت روحه نداء باريها مساء يوم الخميس الرابع من تشرين الأول سنة ١٩٣٢، ولم يلمع في سماء الشعر العربي حتى الساعة من تؤهله مواهبه، وترفعه قدراته الشعرية للزعامة وترشحه ليتبوأ الإمارة بعده، وما زلنا نترقب بروز الأمير كي يرتقي صهوة منصب الإمارة الشاغر، والأمل يداعبنا بأن ذلك اليوم ليس ببعيد.

هذه هي العروبة تبتلع في جوفها الواسع، وخضمها الزاخر، وتستقبل بذارعين واسعين كل من نطق بلسانها، وتوفيه حقه، وتعرف له فضله إذا وفاها حقها، وعرف لها قدرها، بالرغم من أن صاحبنا ذو دم مختلط جركسي تركي، ومن تركيبة تختلف عن تركيبة العرب، إلا أنها قدّرته وأجلّته وأحلّته من قلبها مكان السويداء، ومن جيدها واسطة العقد، عندما خدم لغتها وتمكن من ناصيتها ، ونادى بحفظ دينها وصيانته. وهذا شأن العروبة دائماً. فتجد أخلاطاً كبيرة من الجركس والأرمن والترك والكرد يعيشون وسط إخوانهم العرب، لا يحسون أي فرق بينهم وبين العرب

الأقحاح، ولقد رأينا جمال الدين الأفغاني يصل مصر، فتحله بقلبها، فكان له ولأفكاره أكبر الأثر في النهضة المصرية الحديثة.

فمن حديث عن المجتمع العربي كتب الباحثون هذه التقدمة التي تؤكد فهمنا له[1].

-نحن معشر العرب نعد عربياً كل مواطن يقيم في الوطن العربي، ويدين له بالولاء، وكل من يتعلم العربية ويتخذها لساناً ليعبر به عما يجيش في نفسه، وكل من يحس العروبة بصرف النظر عن الأصل والجنس، ودون تفريق بين مغترب ومقيم، ونحن حين نؤكد هذه الحقيقة، إنما نصور واقع التاريخ، إذ لا فضل -في مقياس العروبة- لنجدي أصيل على بربري تَعَرَّبَ لسانه، ولا لحجازي مغترب على زنجي اتخذ أرضنا وطناً له، ولغتنا العربية لغة له.

وإذا تمسك العرب في قوميتهم فإنه يصبح لا فرق بينهم وبين سائر الشعوب، وهم إنما سَمَوْا على غيرهم بالإسلام، فيه ارتفع بنيانهم وسط عزمهم، وتبوؤا العزة القعساء. هذه الرسالة الخالدة رسالة الإسلام التي حمل العرب لواءها، أفاءت عليهم من الأمجاد والآلاء ما لا يحصه عدّ[2].

وعليه، فلن نتخون لشوقي فضله على العربية، ونهتضم حقه، باعترافنا بفضله وألمعيته أو نعمل على إنزاله من ذراه المنيف، وحقاً فقد كان شوقي متوثب العزيمة واسع الآمال، اعتلى ذروة المجد سريعاً وجاهد للحفاظ عليها. فقد ترددت أمام

---

(1) د. محمد متولي وآخرون.

(2) حقيقة القومية العربية -محمد الغزالي (ص٩٣٢)-.

ناظريه كبار الحوادث وعظائم الأمور، وتأثر بها وجدانه تأثراً ظهر على لسانه وصفاً جيداً وصياغة بديعة، بالرغم من عدم تأنقه في التأليف إذ كانت أشعاره طوع الخاطر دون كدّ أو تعسف، وإذا قرأنا غرر قصائده فإنه يخلب فؤادنا، ويغمر نفوسنا بفيض نوراني دفَّاق من المشاعر الداخلية الوثابة والخلجات والأحاسيس الوجدانية الخفية، ومبعث كل ذلك الإيمان المتغلغل في قلبه، والذي يبرز واضحاً عند كل مناسبة إسلامية.

أخلاقه:

لا نرى في ديوان شوقي -على طوله - وكثرة قصائده- وتنوع موضوعاته، ما يخدش الفضيلة أو يسيء إلى الخلق الكريم، وليس هذا بالوصف الدقيق، إنما الوصف الدقيق أن شوقي لم يدع فضيلة إلا دعا إليها، ولا خلقاً كريماً إلا حضّ عليه، فلم يقنع بالرضى القلبي أو الصمت السلبي، بل قرن ذلك بالقول المودد والدعوة القوية الصريحة، نعم إني لا أعلم نصيب العمل من قوله ومما يدعو إليه. ولكني أعلم أن شعره قد امتدح أمهات الفضائل وقبَّح مساويها، فنادى بطاعة الله، واحترام الدين، وحب الوالدين، والوطن، واتحاد أبنائه، واحترام العلماء[1]:

قم للمعلم وَفِّهِ التبجيلا

كاد المعلم أن يكونَ رَسُولا

هذا البيت الشعري الذي أصبح يتغنى به الطلبة تماماً كما يتغنى به المعلمون. وعد الأستاذ سامي محيي الدين القصيدة من روائع شوقي.

---

(1) الشوقيات/ ج١/ ١٨٠-١٨٤، روائع من قصائد أحمد شوقي/ ٦١-٧٠.

وإكبار السلف والعطف على الفقراء ومساعدة المحتاجين، وتأييد الحق ونصر أهله، واجتناب الأذى باليد واللسان، والأعضاء كلها، ومدح الأخيار والأبرار وترك الخنا وقول الزور وأنواع الإساءة والأذى فوق ما نادى به من طلب العلوم قديمها وحديثها، والتسلح للحياة بسلاح العصر الحديث، والعناية بالمادة والروح معاً، واقتباس ما يلائمنا من الحضارات المختلفة، مع اعتزازه بدينه ومصريته، وعروبته وشرقيته، مما يدل على أنه أدى رسالته الأدبية (الخاصة والعامة) بوصفه شاعراً إنسانياً، وشاعراً مصرياً عربياً على خير نهج لم يسبقه إليه شاعر عربي[1].

هذه هي أخلاق شوقي، جماع فضائل، وباقة سمو، وأكليل أدب، تحلّى بكل ما يرفع الرجل إلى مصاف الرجال، ودعا إلى كل الفضائل، وبخس الخنا وأزرى بالمادة والمتع الفانية. فكان ديوانه بحق ديوان الأخلاق الفاضلة، وإذا كنا نرى أنه دعا إلى الخمر حين قال[2]:

رمضان وَلَّى هاتِها يا ساقي

مُشتاقَةً تسعى إلى مُشْتَاقِ

فإننا قد نتجاوز عن ذلك على أنه قول شاعر، ونفثة مصدور وصورة من صور المزاح المحجوج، حيث لا يجوز الخوض في محارم الله، فالشعراء على اختلاف مذاهبهم لهم ولع خاص بقول هذا النوع من القول، ويبقى أننا لسنا مسؤولين عن أقواله إلا بالقدر الذي يخدش الفضيلة، وهذا ما لم نلمحه في ديوانه، إن أخلاقه تنبع من أخلاق المجتمع العربي الإسلامي. فقد وضع نفسه في بوتقة إسلامية، فكان

---

(1) المتنبي وشوقي/ ٣٤٧/ عباس حسن.

(2) الشوقيات/ ج٢/ ٧٧.

حقيقاً أن يدور في هذا الفلك، ويبتعد عن قول الخنا ودعوة الرذيلة.

وقد عدَّ الأستاذ سامر محيي الدين (سامحه الله) هذه القصيدة من روائع شعر أحمد شوقي[1].

شاعريته:

وانطلقت شاعرية شوقي الفتية، تلك الشاعرية الفياضة التي تنساب انسياباً رقيقاً فيه الليونة والتؤدة، ولكن فيه أيضاً العاطفة المتّقدة المتأججة، العاطفة القوية، المليئة بالإيمان وبأن الإسلام هو القادر على قلب المفاهيم وتحويل حالة المجتمع المتردي إلى حياة زاخرة بالمعاني. لقد انتضى سيف الخلافة مصلتاً وشهره عالياً في وجه أعداء الإسلام، فقد كان بحق شاعر الخلافة الإسلامية. كان قبساً متّقداً يحيط الخلافة بسياج من المحبة النابعة من شغاف قلبه.

لقد ارتبط شوقي بالقصر وهذا حق، وكان ارتباطه بالقصر مدعاة لأن يمدح الخديوي، ومن ثم يمدح الخلافة التي هي الأصل في تنصيب هذا الخديوي والياً على مصر. لقد كان قلب شوقي ينبض بحب الإسلام ويتمنى له الرفعة، وشاعرية شوقي وإن جاز لنا أن نقول أنها كانت نموذجاً على غير شاكلة، وإن كان قد تتبّع خطى البارودي، إلا أنه كان ينطلق من منطلق آخر، منطلق الإشادة بالإسلام وبالخلافة. كان له حاسة رائعة في الوصف والتصوير لازمته طوال حياته[2]. انقادت له ناصية الشعر طائعة، ووقفت أمام عبقريته مسلمة مستسلمة، وصفا عباب البحر الزاخر

---

(1) ٧٩-٨٣.

(2) شوقي شاعر العصر الحديث (د. شوقي ضيف- ص٢٤٠).

أمامه وسكن سامحاً له بالمخور فيه، والتقاط ما حلا له من جناه، وما لذّ له من أطايبه وما طاب له من لؤلؤه ومرجانه، فكانت له هذه الصياغة البديعة، وكان له هذا الغور والغوص في أعماق لجج اللغة ينعم بالسباحة في خضمّها الزاخر ويلتقط ما شاء من يواقيتها بعد أن يفتق صدفها فيخرج تلك الدرر البيضاء الناصعة، وهكذا كانت أبياته آية في البلاغة، وقوّة في الروعة، وجمالاً في الأداء، موسيقى حيّة متفجرة تحسّ بها بين الأبيات. لقد أخذ النبع يتفجر تفجراً، وفاضت عينه العذبة نضاخة فملأت قلبه وساحت على جانبيه، استيقظت روحه، كانت شهرته قد طبقت الآفاق شرقه وغربه فكان بيته مجمعاً للأدباء والشعراء وحتى الآن لا يزال اسمه يدوّي في آذان العرب كأنه تراتيل السحر[1].

لقد كان نفساً حيّاً نابضاً في قيثارة تترى بالأنغام الشجيّة، يعزف عليها ألواناً عديدة من الأنغام الحالمة تعبّر أصدق تعبير عن حياة الشعب كل الشعب، بعد أن حرّر نفسه من السير في قطب القصر ورحاه، وأصبحت قصائده أغاني شعبية يهيم بذكرها لسان كلّ عربي، بله ولسان كل مسلم إذا عمدنا إلى قصائده الإسلامية.

كان شوقي شديد التأثر بالقرآن الكريم، فقد كان يعكف على قراءته، وعلى قراءة كتب الحديث، وكان يعجب خاصة بالغزالي ومؤلفاته، والجبرتي وتاريخه[2].

كان زرعاً أخضر يانعاً صادف تربة غنية خصبة غير مستغلة، فضرب جذوره في الأعماق يرتوي من المياه المكنونة في جوفها، فإذا بهذه الزروع تخضر وتربو ويشتد ينعانها، وتزداد خضرتها، وتؤتي ثمرها في كل حين، وعند الطلب - إننا نحس في

(1) شوقي شاعر العصر الحديث (د. شوقي ضيف - ص٣٨٠ فقرة٢).

(2) شوقي شاعر العصر الحديث (ص٤١).

قصائد شوقي بتلك الموسيقى الشجية الرنانة ذات الجرس الموسيقي ووقع على أذن السامع تصيخ به كي يصغي، وتهتف به ليستمع له ويرهف السمع سواءً أرغب بها أم رغب عنها؛ لما لها من قوة داخلية، تضطره للإصغاء والرنو لها ومحاولة الدنو منها، كي يسبح في عالم واسع من الشفافية والهزَّة التي تأخذ بمجامع قلبه، ويقف حيالها السامع مشدوهاً.

وقد أعانه على صياغته البديعة تلك، وبيانه الأخّاذ، ما كان يثقف به نفسه ويثريها من اطّلاع على معاجم اللغة وكتب العربية حتى إن كاتبه يذكر أنه كان يحفظ مواد كاملة من هذه المعاجم اللغوية[1]. الأمر الذي جعله مالكاً وبحزم على ناصية اللغة العربية يتصرف فيها كما يحلو له، ويقطف من أزاهيرها وورودها وياسمينها ومن فواكهها أترجها وأطايب ثمارها. لقد كان معجزة القرن وآية الزمان، ذو خيال متألق، وبديهة طيّعة تنثال عليه المعاني انثيالاً، حاضر الذهن، يقظ الروح والقلب، تفيض العبارات على لسانه مكسوة بأبلغ البيان، وكان عندما يكتب لا يشعر بنفسه نظراً لتوارد المعاني والأفكار عليه وانثيالها عليه انثيالاً، فقد كان في الشعر القدح المعلّى بين أبناء عصره[2].

معارضاته:

وشوقي صاحب الثقافة التاريخية الإسلامية، استطاع أن ينظر إلى التاريخ العربي والإسلامي ويستلهم من أمجاد الأمة الإسلامية شعره الإسلامي الكبير. لقد كان

---

(1) اثني عشر عاماً في صحبة أمير الشعراء (ص٨٦).

(2) شوقي شاعر العصر الحديث (ص٢٨٥).

شوقي يشعر أن الشعر ليس مدحاً فقط، وتدبيج أبيات لرفع فلان وتزكيته، بالرغم من أنه انغمس حتى أذنيه بهذا النوع من الشعر، إذ وقف أكبر قسط من حياته على مدح الخديوي إسماعيل، وقبله الخديوي توفيق، وإنما الشعر برأيه أن ينوع الشاعر في فنونه المختلفة، وقد استطاع شوقي أن يقول في مختلف فنون الشعر وأن يبدع في الفن الشعري القصصي المستلهم من أمجاد التاريخ الإسلامي.

ومن أكبر الشعراء الذين عارضهم شاعرنا وتأثر بهم إلى حدّ بعيد المتنبي والبحتري، وقد يكون من المناسب أن نعرض إلى وجوه الموازنة بين أحمد شوقي والمتنبي:

١ - كلاهما عاش في فترة علمية زاهية، فالمتنبي كان يعيش في زمن الحمدانيين، وفي ذلك الوقت كان الأمراء يتنافسون على اقتناء الكتب وتكريم العلماء والأدباء، وخاصة في ديوان سيف الدولة الحمداني، وكذلك عاش شوقي في فترة زاهية من الاهتمام بالعلم والأدب، بعد الخمول الطويل الذي انتاب الأمة.

٢ - على الرغم من أن المتنبي سافر وشقي في حياته وشبابه باحثاً عن المجد، قاطعاً الفيافي والصحارى متنقلاً من قطر إلى قطر حتى وصل إلى مصر مادحاً كافورها الأخشيدي طمعاً في أن ينال إقطاعية، نرى أن شوقي لم يغترب هذا الاغتراب -اللهم لا الاغتراب البشري إلى الأندلس- ولم يطامن من نفسه هذا التطامن في سبيل الوصول إلى مثل ذلك الهدف.

٣- كلا الشاعرين مدح أميره ووقف نفسه عليه، وهناك وجهاً للمقارنة بينهما، فبينما نرى المتنبي وقف نفسه على أميره وعلى بلاط سيف الدولة الحمداني، بالذات،

ثم على كافور الأخشيدي لفترة ما، نرى شوقي يقف نفسه على خديويه ثم ينقل ذلك الارتباط إلى الشعب المصري بخاصة وإلى الأمة الإسلامية بعامة، بعد أن عاد من منفاه في الأندلس.

وكذلك ينسحب الأمر على شوقي، فقد كان يعاصره العديد من الشعراء كحافظ إبراهيم والكاشف والغاياتي، إلا أنه غطّى عليهم أيضاً. وما ذاك إلا لعاطفته السيالة وقلمه السلس وبديهته الحاضرة الفياضة، إذ أوتي البلاغة الفائقة، وقد بزّ وأربى على جميع من عارضهم بإجماع النقاد، ولا ننسى أنه كان معارضاً جيداً، وكأننا نشتم أن له ولعاً بالمعارضة ولكننا نراه في كل قصيدة يعارض بها أخرى يتفوق على الأصل وإن كنا نعترف دوماً بفضل السابق على اللاحق.

انظر إليه وهو يعارض البحتري في قصيدته التي يصف بها إيوان كِسرى[1]:

صنت نفسي عمّا يدنّس نفسي

وترفعت عن جدا كل جبس[2]

وتماسكت حيث زعزعني الدهر

التماساً منه لتعسي ونكسي[3]

---

(1) ديوان البحتري/ ج١/ ١٦٠-١٦٥، الشوقيات/ ج١/ ٤٥.

(2) الجدا: العطاء. والجبس: اللئيم، الجبان الفدم.

(3) نكسي: إذلالي.

بلـغ مـن صـبابة العـيش عنـدي

طففتهـا الأيـام تطفيـف بخـس[1]

وبعيـــد مـــا بـــين وارد رفـــه

علـــل شربـــه ووارد خمـــس[2]

وكـــأن الزمـــان أصـــبح محمـــو

لاً هـواهُ مـع الأخـس الأخـس[3]

واشـــترائي العـــراق خطـــة غـــبن

بعـد بيعـي الـشآم بيعـة وكـس[4]

لا تـــرزني مـــزاولاً لاختبـــاري

عند هـذي البلـوى فتنكـر مـسي[5]

---

(1) البلغ: جمع بلغة وهي ما يتبلغ به العيش أي قوامه.

طففت: نقصت. البخس: الظلم وهضم الحقوق.

(2) وارد رفه: أي يرد الماء كمل يوم متى شاء. ووارد خمس: أي يشرب في اليوم الرابع بعد ظمأ ثلاثة أيام.

(3) محمولاً هواه: أي يميل إلى الأحساء.

(4) الخطة: الأرض التي يختطها الإنسان لنفسه لينزل بها. والوكس: النقصان أو الخسارة في المتاجرة.

(5) ترزني: من رازه: جربه وقدره وامتحنه ليعرف ثقله. ومزاولاً: محاولاً.

وقـــديماً عهـــدتني ذا هنـــات

آبيـات عـلى الـدنيئات شـمس[1]

ولقـد رابنـي نبـو آبـن عمـي

بعـد لـين مـن جانبيـه وأنـس[2]

وإذا مـا جفيـت كنـت حربـاً

أن أُرى غـير مـصبح حيـث أمـسي

حضرت رحـلي الهمـوم فوجهـت

إلى أبـيض المـدائن عنـسي[3]

أتـسلى عـن الحظـوظ وآسـى

لمحـل مـن آل ساسـان درس[4]

ذكـرتنيهم الخطـوب التـوالي

ولقـد تـذكر الخطـوب وتنـسي

---

(1) الهنات: الخصال، وتستعمل في الشر والأذى. والشمس، الواحدة شموس: الصعب المراس، التي تمنع ظهرها. وفي البيت مجاز.

(2) النبو: التجافي والخشونة.

(3) حضرته: جعلته حاضراً. والهموم: الناقة الحسنة المشي. وأبيض المدائن: القصر الأبيض لكسرى. والعنس: الجمال السمينة التامة.

(4) آل ساسان: ملوك الفرس من نسل أردشير حفيد ساسان مؤسس السلالة الساسانية. ودرس: بال.

وهـــم خافـــضون في ظـــل عـــالٍ

مـــشرف يحـــسر العيـــون ويخـــسي[1]

مغلـــق بابـــه عـــلى جبـــل القبـــق

إلى دارتي خـــــلاط ومكـــــس[2]

حلـــل لم تكـــن كـــأطلال ســـعدى

في قفـــار مـــن البـــسابس ملـــس[3]

ومـــساع لـــولا المحابـــاة منـــي

لم تطقهـــا مـــسعاة عـــنس وعـــبس[4]

نقـــل الـــدهر عهـــدهن عـــن الجـــدة

حتـــى غـــدون أنـــضاء لـــبس[5]

---

(1) خافضون: عائشون برفاهة ودعة. ويحسر: يعيي. ويخسي: يكل ويحسر.

(2) الدارة: القبيلة وكل أرض واسعة بين جبال. وخلاط ومكس: موضعان.

(3) حلل: الواحدة حلة: المحلة. والبسابس: القفار الخالية. والملس: الواحد أملس وملسان: الفلاة لا نبات فيها.

(4) المساعي: الواحدة مسعاة: المكرمة والمعلاة. وعنس: قبيلة قحطانية من اليمن. وعبس: قبيلة عدنانية من نجد. ويريد أنه لو لم يكن عربيًّا لقال إن مساعي الفرس لم تدركها قبائل العرب.

(5) الانضاء: المهازيل والثياب الخلقة. واللبس: التي تلتبس حقيقتها على الناظر إليها. فلا يكاد يعرفها.

فكـــأن الجرمـــاز مـــن عـــدم

الأنـــس وإخلالـــه بنيـــة رمـــس[1]

لـــو تـــراه علمـــت أن الليـــالي

جعلـــت فيـــه مأتمـــاً بعـــد عـــرس

وهـــو ينبيـــك عـــن عجائـــب قـــوم

لا يُـــشاب البيـــان فـــيهم بلـــبس[2]

فـــإذا مـــا رأيـــت صـــورة أنطـــا

كيـــة ارتعـــت بـــين روم وفـــرس

والمنايـــا مواثـــل وأنـــو شر

وان يزجي الصفوف تحت الدرفس[3]

في اخـــضِرار مِـــن اللبـــاس عـــلى

أصـــفر يختـــال في صـــبيغة ورس[4]

---

(1) الجرماز: أحد أبهاء القصر. وأخلاله: بلاه. والرمس: القبر.

(2) اللبس: الالتباس.

(3) يزجي: يسوق. والدرفس: راية الفرس المقدسة، وهي رمز تحرير بلادهم على يد بطلهم الأسطوري أفريدون ومعناها راية الحداد، وكانت محلاة، بالجوار الكريمة.

(4) يختال: يتبختر تكبراً. والورس: نبات أصفر يصبغ به.

وعـــراك الرجـــال بـــين يديـــه

في خفوت منهم وإغماض جـرس[1]

مـــن مـشيح يهـوي بعامـل رمـح

وملـــيح مـــن الـــسنان بـــترس[2]

تـصف العـين أنهـم جـد أحيـاء

لهـــم بيـــنهم إشـــارة خـــرس

يغـــتلي فـــيهم ارتيـــابي حتـــى

تتقـــــراهم يـــــداي بلمـــــس[3]

قد سـقاني ولم يـصرد أبـو الغـوث

عـلى العـسكرين شربـة خلـس[4]

مـــن مـــدام تقولهـــا هـــي نجـــم

أضـوأ الليـل أو مجاجـة شـمس[5]

---

(1) الخفوت: السكوت. والجرس: الخفي من الصوت.

(2) المشيح: المقبل عليك المانع لما وراء ظهره. والمليح: المحاذر خوفاً.

(3) يغتلي: يتعاظم. وتتقراهم: تتبعهم، أي أنه يلمسهم ليرى أصور مرسومة هم أم أشخاص أحياء يتحاربون.

(4) يصرد: يقلل. وأبو الغوث: ابن الشاعر. وأراد بالخلس: شربة سريعة مختلسة.

(5) تقولها: تظنها. والمجاجة: يراد بها هنا الشعاع.

وتراهـــا إذا أجـــدّت سرورا

وارتياحـــاً للـــشارب المحتـــسي

أفرغت في الزجاج مـن كـل قلـب

فهـــي محبوبـــة إلى كـــل نفـــس

وتوهمـــت أن كـــسرى أبرويـــز

معـــاطي والبلهبـــذ أنـــسي[1]

حلـم مطبـق عـلى الـشك عينـي

أم أمـان غـيرن ظنـي وحـدسي؟

وكأن الإيوان من عجـب الـصنعة

جـوب في جنـب أرعـن جلـس[2]

يتظنـــى مـــن الكآبـــة أن يبـــدو

لعينـــي مـــصبح أو ممـــسي[3]

مزعجاً بـالفراق عـن أنـس إلـف

عـــز أو مرهقـــاً بتطليـــق عـــرس

---

(1) كسرى أبرويـز: وهـو حفيـد كـسرى أنـوشروان. ومعـاطي: يعـاطيني الـشراب، يـشاربني. والبلهبذ: من كبار المغنين عند الفرس.

(2) الجوب: الترس. وارعن: أحمق. والجلس: الرجل الغدم. وأراد بالأرعن إمـا البنـاء العظـيم أو جبلاً غليظاً، في جنبه الإيوان كأنه ترس في استدارته.

(3) يتظنى: أي يعمل الظن فيه.

عكـــست حظـــه الليـــالي وبـــات

المشتري فيـه وهـو كوكـب نحـس

فهـــو يبـــدي تجلـــداً وعليـــه

كلكل من كلاكل الـدهر مـرسي[1]

لم يعبـه أن بـز مـن بـسط الـديباج

واســـتل مـــن ســـتور الـــدمقس

مـــشمخر تعلـــو لـــه شرفـــات

رفعت في رؤوس رضوى وقدس[2]

لابـــسات مـــن البيـــاض فـــما

تبـــصر منهـــا إلا فلائـــل بـــرس[3]

لـــيس يـــدري أصـــنع إنـــس لجـــن

ســـكنوه أم صـــنع جـــن لإنـــس

غـــــير أني أراه يـــــشهد أن لم

يـــك بانيـــه في الملـــوك بـــنكس[4]

---

(1) كلكل: صدر. والمرسي: الثابت.

(2) المشمخر من الجبال: العالي. والشرفات: مثلثات تبني متقاربة في أعلى القصر، الواحدة شرفة. ورضوى: جبل بالمدينة. وقدس: جبل، وهو قدس الأبيض وقدس الأسود.

(3) الغلائل: الشعور المجتمعة. والبرس: القطن أو شبيه به.

(4) النكس: المقصر عن غاية الكرم.

فكـــأني أرى المراتـــب والقـــوم

إذا مـــا بلغـــت آخـــر حـــسي

وكـأنَّ الوفـود ضـاحين حـسرى

من وقوف خلف الزحام وخـنس[1]

وكـــأن القيـــان وســـط المقـــا

صير يـرجحن بـين حـو ولعـس[2]

وكـــأن اللقـــا أول مـــن أمـــس

ووشـــك الفـــراق أول أمـــس

وكـــأن الـــذي يريـــد اتباعـــاً

طـامعٌ في لحـوقهم صـبح خمـس

عمـرت للـسرور دهـراً فـصارت

للتعـــزي ربـــاعهم والتـــأسي[3]

فلهـــا أن أعينهـــا بـــدموع

موقفـــات عـــلى الـــصبابة حـــبس

---

(1) الخنس: الرجوع والتأخر. وضاحين: بارزين للشمس. وحسرى: متلهفين، معيين.

(2) يرجحن: يملن بالأرجوحة. والحو: جمع حواء وهي المرأة في شفتها سمرة. واللعس: جمع لعساء وهي ذات اللعس وهو سواد مستحسن في الشفة.

(3) أراد بالتعزي والتأسي: البكاء عليهم.

ذاك عنـدي وليـست الـدار داري

بـاقتراب منهـا ولا الجـنس جنـسي

غـير نعمـى لأهلهـا عنـد أهـلي

غرسـوا مـن ذكائهـا خـير غـرس

أيـدوا ملكنـا وشـدوا قـواه

بكـماةٍ تحـت الـسنور حمـس[1]

وأعـانوا عـلى كتائـب أريـا

ط بطعـن عـلى النحـور ودعـس[2]

وأراني من بعد أكلـف بـالأشراف

طـراً مـن كـل سـنخ وإسّ[3]

فإذا به يقول من قصيدته في الأندلس[4]:

وطنـي لـو شـغلت بالخلـد عنـه

نـازعتني إليـه في الخلـد نفـسي

شـهد الله لم يغـب عـن جفـوني

شخـصه سـاعة، ولم يخـلُ حِـسّي

---

(1) السنور: نوع من الدروع. والحمس: الشجعان.

(2) أرياط: قائد جيش الأحباش، والدعس: الطعن بالرماح.

(3) السنخ: الأصل. والإس أصل كل شيء.

(4) الشوقيات/ ج٢/ ٤٦.

إنها القمة السامقة التي وصل إليها شوقي وعزّ من يدانيه إليها أو يتطلع إلى عليائها واقتعد بها القمة القعساء. وما دمنا بذكر المعارضات، فلا ننسى معارضته لقصيدة ابن زيدون، تلك القصيدة الخالدة في عالم الحب والوفاء ...

وابن زيدون هو الكاتب العربي ذو الوزارتين أبو الوليد أحمد بن عبد الله المشهور بابن زيدون المخزومي الأندلسي، ولد سنة ٣٥٤هـ، ونشأ في مدينة قرطبة، وتأدب على كبار أئمتها، وقال الشعر وأجاده، ولما نبُه شأنه بين شعراء قرطبة، اتصل بأبي الوليد بن جهور أحد ملوك الطوائف فحظي عنده ومدحه حتى أصبح لسان دولته الناطق، وحسامها المسلول، فأفسد أعداؤه ما بينه وبين ابن جهور، فاعتقله ومكث في محبسه مدة استشفع فيها إليه بقصائد أبدعها ورسائل استنفد فيها جهده، فما ألانت له قلباً، فأعمل الحيلة في فراره من سجنه وخلص إلى المعتضد بن عباد ملك إشبيلية، إذ كان أشد ملوك الطوائف رغبة فيه، وأكثرهم تمسّكاً بالأدباء، فألقى إليه مقاليد وزارته، وأصبح صاحب أمره ونهيه، ولما مات المعتضد وخلفه ابنه المعتمد كان له كما كان أبوه، وأغدق عليه بره ونعمته، ومكث ابن زيدون على هذه الحال حتى مات بإشبيلية سنة ٤٦٣هـ، وعلاقة الحب بينه وبين ولادة بنت المستكفي مشهورة ومأثورة.

وقد بدأ ابن زيدون قصيدته يبث لواعج الشوق وألم البعد والفراق الممضّ، واصفاً ما يعانيه من هذا البعاد بادئاً قصيدته التي كان لها أيضاً شرف المعارضة من شوقي بقوله:

أضحى التَّنَائِي بديلاً من تدانينا
ونابَ عَن طِيبِ لُقْيانَا تَجافِينا

ألا وقـد حـانَ صُـبْحُ البَـيْنِ صـبَّحَنا

حَـيْنٌ، فقـامَ بنـا للحَـيْنِ داعِينَـا[1]

مَـــن مُبْلِـــغُ المُلْبِـــسينا بـــانْتِزَاحِهمُ

حُزْنـاً مَـعَ الـدَّهْرِ لا يَـبْلَى ويُبْلِينـا[2]

إنَّ الزَّمـــانَ الَّـــذي مـــازال يُـضْحِكُنا

أُنْـــساً بقُـــرْبِهِمُ، قـــد عـــاد يُبكينـــا

غِيظَ العِدَى مِن تَساقينا الهَـوَى، فـدَعَوْا

بـــأنْ نَغَـــصَّ، فقـــال الـــدَّهرُ آمينـــا

فانْحَـلَّ مـا كـان معقـوداً بأنفُـسِنَا

وانْبَـتَّ مـا كـان موصـولاً بأيـدينا[3]

وقـد نكـون، ومـا يُخْـشَى تَفَرُّقُنـا

فـاليومَ نحـن ومـا يُرجـى تَلَاقِينـا

---

(1) البَيْن: الفراق، الحَيْن: الموت والهلاك، داعينا: أي: الذي يدعو إلى البكاء علينا، يتمنَّى، وقد وقع واقع الفراق وأطلّ صباحُه، أن يصبحه الموت ويقوم الداعي يدعو إلى البكاء عليه.

(2) إنتزح عن دياره: ابتعَد عنها.

(3) انبتَّ: انقطع.

يـا لَيْـتَ شِـعري، ولَمْ نُعْتِـبْ أعـاديَكُم

هـل نـالَ حظًّـا مِـن العُتْبَـى أعادِينـا[1]

لَمْ نَعْتَقِـدْ بَعْـدَكُمْ إلا الوَفَـاءَ لكُـم

رأْيـاً، ولَمْ نتقلَّـد غـيرَهُ دينـا

مـا حَقَّنـا أن تُقِـرُّوا عَـيْنَ ذِي حَـسَدٍ

بِنـا، ولا أن تَـسُرُّوا كاشِـحاً فينـا[2]

كُنَّـا نـرى اليـأسَ تُـسْلِينا عوارِضُـهُ

وقـد يئـسنا فـما لليـأس يُغرينـا[3]

بِنْـتُمْ وبِنَّـا، فـما ابْتَلَّـتْ جوانِحُنَـا

شَـوْقاً إلـيكم ولا جَفَّـتْ مَآقينـا[4]

كانـت لـه الـشمسُ ظِئْـراً في أَكِلَّتِـهِ

بـل مـا تجـلّى لهـا إلا أحايينـا[5]

---

(1) أَعْتَبَ فلاناً: أزال عَتْبه وترك ما كان يغضبه وأرضاه، العُتبى: الرِّضى بعد الغضب.

(2) أقرَّ عَيْنه: جعلها قريرة راضية، الكاشح: الذي يُضمر البغض والعداوة.

(3) عوارضه: ما يعرض منه ويأتي على غير انتظار، يقول: كنا نرى في ما يعرض لنا من اليأس سانحة تسلية، وذلك لما كنا في أيامنا الطيبة، أما اليوم وقد حلّ بنا ما حل فإنَّنا نرى في اليأس مُغريات للزيادة منه والإغراق فيه.

(4) بان يَبين: ابتعد، فما ابتلَّت...: أي: فما خمدت نار الشوق بين ضلوعنا.

(5) الظِّئر: المرضع، الأكِلَّة: ج كِلَّة وهي الستر الرقيق يُتخذ للوقاية.

كـــأنما أُثْبِتَـــتْ في صَـــحْنِ وَجْنَتِـــهِ

زُهْـرُ الكواكـبِ، تعويـداً وتَزْيينـا[1]

مـــا ضَرَّ أنْ لَمْ نكُـــنْ أكْفـــاءَهُ شَرَفـــاً

وفي المـــودَّةِ كـــافٍ مِـــنْ تَكَافينـــا

يـــا روضـــةً طالَمـــا أَجْنَـــتْ لَواحِظَنـــا

وَرْداً، جـلاهُ الـصَّبا غَـضًّا، ونَـسْرِينا[2]

ويـــا حيـــاةً تَمَلَّيْنَـــا بزهْرَتِهـــا

مُنـــىً ضُرُوبـــاً، وَلَـــذَّاتٍ أَفَانينـــا[3]

ويـــا نعـــيماً خَطَرْنـــا، مِـــنْ غَـــضارَتِهِ

في وَشْي نُعْمَـى سَـحَبْنا ذَيْلَـهُ حِينـا[4]

لـــسْنا نُـــسَمِّيك إجْـــلالاً وتَكْرِمَـــةً

وقَـــدْرُكَ المُعْـــتَلي عـــن ذاك يُغْنينـــا

---

(1) التعويذ: دفع الحسن والأذى بما يعلّقونه من رُقى وعُوَذ.

(2) أجْنَت لواحظنا: جعلت أنظارنا تجني، النَّسرين: ضرب من الورود البيض ذوات الرائحة الطيبة.

(3) تملَّيْنا: تمتّعنا، الضروب والأفانين: الأنواع.

(4) الغضارة: الخصب وسعة العيش، خطرنا في وشى نعمى: أي: عشنا عيش نعيم وزهوٍ ورونق.

إذا انْفَـرَدْتِ، ومـا شُـورِكْتِ في صِـفَةٍ

فحَـسْبُنا الوَصْـفُ إيـضاحاً وتبْيينـا

يـا جَنَّـةَ الخُلـدِ، أَبْـدِلْنا بـسِدْرَتِهَا

والكَـوْثَرِ العَـذْبِ، زَقُّومـاً وغِـسْلينا[1]

كأَنَّنـا لَمْ نَبِـتْ والوصـلُ ثالثُنـا

والسَّعْدُ قد غَـصَّ مِـن أجْفـانِ وَاشِـينا

(إنْ كان قـد عَـزَّ في الـدّنيا اللقـاءُ ففـي

مواقـفِ الحـشرِ نلقـاكم ويكفينـا)

سِرَّانِ في خـاطر الظَّلـماءِ يَكْتُمُنَـا

حتـى يكـادَ لـسانُ الـصُّبْح يُفـشِينا[2]

لا غَرْوَ في أنْ ذَكَرْنـا الحُـزنَ حـين نَهَـتْ

عنـه النُّهـى، وتركنـا الـصَّبرَ ناسـينا[3]

إنَّـا قرَأْنـا الأسـى، يـوم النَّـوى، سُـوَراً

مكتوبـةً، وأخَـذْنَا الـصبرَ تَلْقِينـا

---

(1) السِّدرة: شجرة في الجنة، الكوثر: نهر في الجنة، الزَّقوم: شجرة في جهنم، الغِسْلِين: طعام أهل النار؛ وما يسيل من جلود أهل النار.

(2) السِّرَّان: هما الشاعر وصاحبته.

(3) النُّهى: ج نُهْيَة وهي العقل.

أمَّـا هـواكِ، فلـمْ نَعْـدِلْ بمَنْهَلِـهِ

شربـاً، وإنْ كـان يُروينـا فيُظمينـا[1]

لمْ نَجْـفُ أُفْـقَ جَمَـالٍ أَنْـتِ كوكَبُـهُ

سَـالِينَ عنـهُ، ولَمْ نَهْجُـرْهُ قَالِينـا[2]

ولا اختيـاراً تجنَّبنـاه عـن كَثَـبٍ

لكـنْ عَـدَتْنا عـلى كُـرْهٍ عَوادِينـا[3]

نأسـى عليـك إذا حُثَّـتْ مُشَعْـشَعَةً

فينـا الـشَّمُولُ، وغَنَّانـا مُغَنِّينـا[4]

لا أكْـؤُسُ الـرَّاحَ تُبْـدِي، مِـن شمائِلِنا

سِـيَما ارتيـاحٍ، ولا الأوتـارُ تُلْهِينـا[5]

---

(1) يقول: ليس هنالك منهلٌ يعادلُ منهل هواكِ، ونحن كلما عبَبْنَا منه ازداد ظمأُنا إليه.

(2) قالين: أي: عن قلى وغضب.

(3) عن كثب: عـن قـرب، عـدتنا العـوادي: أي: صرفتنـا عنـه همـوم الحيـاة، وكـان ذلـك عـلى كُره منَّا.

(4) الشمول: الخمر الباردة الطيبة، يقول: يستولي علينا الحزن كلما كنـا في مجلـس شراب وطـرب، الخمر المشعشعة: الممزوجة بالماء.

(5) الراح: الخمرة، سيما ارتياح: علامة ارتياح.

دُومي على العهدِ، ما دُمنا، مُحافِظَةً

فالحُرُّ مَن دان إنصافاً كما دينا[1]

فما استعضْنا خليلاً منكِ يَحْبِسُنَا

ولا استَفَدْنَا حبيباً عنكِ يَثْنِينا[2]

ولو صَبا نحونا، مِن عُلْوِ مَطْلَعِهِ

بدرُ الدُّجى، لمْ يكُنْ حاشاكِ يُصْبينا[3]

أبكي وفاءً، وإن لم تَبْذُلي صِلَةً

فالطَّيْفُ يُقْنِعُنا، والذِّكْرُ يَكْفينا[4]

وفي الجوابِ متاعٌ، إن شفَعْتِ بهِ

بيضَ الأيادي التي ما زلتِ تُولينا[5]

٤ - كلاهما كان القدح المعلى في الشعر في زمانه، فبينما كان المتنبي يشغل أفكار الناس وكثرت المعارك الشعرية في زمنه، كذلك كان شوقي. فقد كان الناس مع اختلاف العصرين ما يكاد أحد من هذين الشاعرين يلقي بالقصيدة حتى تتجمع

---

(1) الإنصاف: العدل.

(2) ورُوي هذا البيت كما يلي:

فما ابتَغَيْنا خليلاً عنكِ يشغلُنا ولا اتَّخَذْنا بديلاً مِنكِ يُسْلينا

(3) صبا إليه: مال أشد الميل، أصباه يُصْبيه: أثار صبابتَهُ وحبَّهُ.

(4) ورُوي: «أولى وفاءً».

(5) المتاع: كل ما يُنتفع به من طيبات الدنيا، إن شفَعْتِ به بيض الأيادي: إن أضفتِ إليه عطفَكِ وحسن التفاتكِ.

الأندية الشعرية بين مقرظة لقصائدهما ومجرحة لهما، فقد التقيا بهذه الناحية حيث شغلا الناس بنتاجهما.

٥- كلاهما اشترك في الطموح والنظر للوصول إلى أعلى المراتب والإقطاعيات، فبينما نرى شوقي يدرك مناه ويقلد أمارة الشعر، ويحيا هذه الحياة الفارهة، نرى المتنبي لم يحز مثله قصب السبق هذا بإجماع من الأمة كالإجماع الذي ناله شوقي، فضلاً على ما نراه اليوم من اهتمام الباحثين والنقّاد بشعر المتنبي، وقيام العديد من الدراسات الأدبية والنقدية عليه.

٦- كلاهما عالج التاريخ الإسلامي في شعره وافتخر بجيش المسلمين وبقائد هذا الجيش الإسلامي. وأغلب الظن أن شوقي كان ناظراً للمتنبي في هذه الناحية.

٧- اشتركا في نسج الحكم، وإن كنا نرى أن المتنبي هو صاحب السبق، إلا أن الحكمة التي جرت على لسان أحمد شوقي كان لها وزنها في عالم الأدب نظراً لصدقها وبُعْدِ مرماها، كقوله:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت

فإن هموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا[1]

حتى أصبح هذا البيت موصفاً للاستشهاد في كل مناسبة تستدعيه.

٨- كلاهما كان يفتخر ويتعصب لجنسه، فالمتنبي كان يفتخر بعروبته وكذلك شوقي بالرغم من المطاعن التي وجهّت لعروبته.

من ذلك كله يتبين لنا السمات المشتركة الكثيرة التي جمعت بين شاعرين كان لهما

---

(1) الشوقيات/ ج١/ ١٢/ في رواية للشطر الثاني: فإن تَوَلَّتْ مَضَوْا في إثرها قُدُماً ج١/ ٢١٧.

شرف تصدر الشعراء في عصريهما. فبالرغم من أن العديد من كبار الشعراء كانوا معاصرين للمتنبي كالبحتري وديك الجن والوأواء الدمشقي، إلا أنه غطّى عليهم جميعاً.

في القصيدة السابقة يصور ابن زيدون حبه ولواعج نفسه وشعوره تجاه حبيبته ولاّدة بنت المستكفي، وقد أُبعد عنها وشاء الله أن يدفن بعيداً عنها وأن تبقى هي كذلك تعاني ما يعانيه. وبالرغم من أنَّ موضوع القصيدة وعباراتها تكاد تكون مألوفة مطروقة، إلا أن ابن زيدون استطاع أن يكسيها ألفاظاً أخّاذة ومعاني نسيج وحدها رغم إلفها وطرقها؛ بما أفاض عليها من عاطفته المستعرة، وسكب بها ما يعانيه من لوعات قلبه فاكتسبت بذلك خلوداً أكدّها، وزاد من خلودها كثرة من عارضها ونسج على منوالها، وكان أكبر معارض لها، وأبرز محاك هو شاعرنا وأمير شعرائنا أحمد شوقي. فقد رأى نفسه في الأندلس بعد أن نفي هناك بالرغم من أنه كان يتمتع بطيب العيش، وكان قد أدخل أولاده بالمدارس الراقية، إ لا أن بعده عن روحه، وسجنه في تلك الأرض قد أثار في فؤاده وحشة، ونزع منه حاسته بأنه حرّ طليق، ولذا نراه وهو في تلك الربى والمرابع يعود بذاكرته إلى تلك الأيام الخوالي التي كان المسلمون يملكون بها سدة الحكم في الأندلس وقد صوّر نفسه يخاطب طائراً على دوح الأندلس، أو تخيل نفسه وقد وجدها تنزل ضيفاً على ابن زيدون أو رمزاً لفقدان الأندلس الذي ما زال جرحاً ينزف في عالم النسيان الذي طوى، واقتطع غصباً وقسراً من جسم الخلافة الإسلامية. مع أنّ المسلمين في كل أصقاعهم يتطلعون إلى عودة الخلافة الإسلامية، ومن ثم إعادة ما اجتزئ من جسمها النازف.

انظر إليه في مطلعه الرائع الذي أبدع فيه كل إبداع، واستطاع بقدراته الفنية أن يرسم لنا صورة الطائر الغريب الجرح النازف الذي يشاكله في اللوعة والحنين، واستطاع أن يصور لنا مستقرًّا من خلال مأساة الطائر، ما ينتابه هو من قسوة الفراق الذي أصمى فؤاده، دون أن ننسى حكمته البالغة في قوله إن المصائب يجمعن المصابينا، فالخطوب هي أقوى صلة ووشيجة تجمع المصابين وتؤلف بينهم، يقول[1]:

يـا نـائحَ الطَّلْـحِ أشـباهٌ عَوادينـا
نَشْجى لواديكَ أم نأسى لوادينا؟
مـاذا تَقُـصُّ علينـا غـير أنَّ يـداً
قَصَّتْ جناحَكَ جالت في حواشينا؟
رمـى بنـا البـينُ أيكـاً غـيرَ سـامِرنا
-أخا الغريب- وظِـلاًّ غـيرَ نادينا
كـلٌّ رمتـهُ النـوى: رَيـشَ الفِـراق لنـا
سَهْماً، وسـلَّ عليـك البـينُ سِـكِّينا
فإن يـكُ الجـنسُ يـا ابـن الطَّلْـحِ فَرَّقَنَـا
(إن المـصائبَ يَجْمَعْـنَ المُـصابينا)

---

(1) الشوقيات/ ج٢/ ١٠٤-١٠٨، نظمها في منفاه بإسبانيا، وفيها يحن للوطن العزيز ويصف كثيراً من مشاهده ومعاهده.

الطلح: نوع من الشجر. عوادينا: عوادي الدهر: نوازله ومصائبه. ريش: من راش السهم: ألصق عليه الريش أوكاراً: تذكراً، أفأنين: أجناس، الفنن: الغصن.

لم تـــألُ مـــاءك تَحنانـــاً ولا ظمـــأً

ولا ادِّكَـــاراً ولا شـــجواً أفانينـــا

تَجُـــرُّ مـــن فَـــنَنٍ ســـاقاً إلى فَـــنَنٍ

وتـسحبُ الـذَّيلَ ترتـادُ المؤاسـينا

أُســاة جِـسمِكَ شـتَّى حـين تطلـبهم

فمن لروحك بالنُّطس المُـداوينا؟[1]

* * * * *

آهـــاً لنـــا نَـــازِحَيْ أيْـــكٍ بأنْـــدَلُسٍ

وإنْ حَلَلْنَـا رَفيفـاً مـن روابينـا!![2]

رسـمٌ وقفنـا عـلى رَسْـمِ الوفـاءِ لـه

نجـيش بالـدمع، والإجـلالُ يَثنينـا

لِفِتْيَـــةٍ لا تنـــالُ الأرضُ أدمُعَهـــم

ولا مَفـــارِقَهم إلا مُـــصَلِّينا[3]

(1) الأُساة: الأطباء. النُّطس: الأطباء الحذاق. الأيك: الشجر الكثيف الملتفّ.

(2) الرفيق: الخصب.

(3) مُصلينا: يقصد بهم ملوك الأندلس.

لــو لم يــسودوا بــدينٍ فيــه مَنْبَهَــةٌ

للناس؛ كانت لهم أخلاقُهم دينـا[1]

نــسقي ثَــراهم ثنــاءً، كُلَّــمَا نُثِــرَتْ

دُمُوعُنَــا نُظِمَــتْ منهــا مراثينــا

* * * * *

لكــن مــصر وإن أغــضت عــلى مِقَــةٍ

عــين مــن الخلــد بالكــافور تــسقينا

عــــلى جوانِبهـــا رفَّـــتْ تمائِمُنـــا

وحــول حافَاتِهـا قامــت رواقينـا[2]

بِنَّــا فلــم نَخْــلُ مــن رَوْحٍ يُراوِحُنَــا

مِــن بَــرِّ مِــصْرَ وريحــانٍ يُغادينـا[3]

كــأمِّ موســى، عــلى اســم الله تكفُلُنــا

وباســمِهِ ذهبــت في الــيَمِّ تُلْقِينــا

---

(1) منبهة: شرف ورفعة.

(2) رواقينا: واحدها راقية، وهي التي ترقي الصبي إذا أصيب بسحر.

(3) الروح: الرحمة والرزق.

شبه مصر حين ضاقت به على الرغم منها فركب البحر وضرح إلى المنفى -بأم موسى -عليه السلام- حين ألقته في اليم طفلاً رضيعاً وسألت الله أن يكفله.

نحن اليواقيتُ خاضَ النار جوهرَنا

ولم يَهُن بيد التَّشْتيت غالينا

ولا يحول لنا صِبْغ ولا خُلُق

إذا تلَوَّن كالحِرباء شانينا[1]

إن غازلت شاطئيه في الضحى لبسا

خمائل السُّنْدُس الموشِيَّة الغينا

وهذه الأرض من سهل ومن جبل

قبل القياصر دِنَّاها فراعينا

كأن أهرام مصر حائط نهضت

به يدُ الدَّهر لا بنيان فانينا

يا ساريَ البرقِ يرمي عن جوانحنا

بعدَ الهدوء، ويهمي عن مآقينا

بالله إن جُبْتَ ظلماءَ العُبابِ على

نجائبِ النورِ مَحْدُوّاً بجبرينا

حتى حَوَتْك سماءُ النيلِ عالية

على الغيوث، وإن كانت ميامينا

---

(1) شانينا: باغضنا.

وأحرزتْـكَ شُـفُوف الـلازَوَرْدِ عـلى

وشْيِ الزَّبَرْجَدِ من أفـوافِ وادينـا[1]

فقِـفْ إلى النيـلِ واهتِـفْ في خمائِلِـه

وانـزل كـما نـزل الطَّـلُّ الرَّياحينـا

وآسِ مـا بـات يَـذوي مـن منازلنـا

بالحادثـات، ويـضوى مـن مَغَانينـا

ويـا مُعَطَّـرةَ الـوادي سَرَتْ سَـحَراً

فطـابَ كـلُّ طُـروحٍ مـن مراميـنا

ذكيـةَ الـذَّيلِ لـو خِلْنَـا غِلالتَهَـا

قميصَ يوسفَ لم نُحْـسَبْ مُغالينا

جشمتِ شوكَ السُّرى حتـى أتيـتِ لنـا

بـالورد كُتْبـاً، وبالرَّيَّـا عناوينـا

هـل مـن ذيولِـكِ مِـسْكِيٌّ نُحمِّلُـه

غرائبَ الشوق وشـياً مـن أمالينـا؟

يـا مـن نغـارُ علـيهم مـن ضـمائرنا

ومـن نـصونُ هَـواهُم في تناجينـا

---

(1) الشفوف: واحدُها شفا: الثوب الرقيـق، الـلازورد: حجـر صـاف شـفاف أزرق، الأفـواف: الخمائل.

جئنـــا إلى الـــصبرِ نَـــدعوه كعادَتِنـــا

في النَّائِبـاتِ، فلـم يأخـذ بأيـدينا

ونـــابغي كـــأن الحـــشرَ آخـــرُه

تُميتُنـــا فيـــه ذكـــراكم وتُحيينـــا[1]

بتنـا نقـاسي الـدَّواهي مـن كواكِبِـه

حتـى قعـدنا بهـا حَسْرى تُقاسـينا

سَـقْياً لعهـدٍ كأكنـافِ الرُّبـى رِفَـةً

أنَّى ذهبنا، وأعطـافِ الـصَّبا لينـا[2]

إذ الزمـــانُ بنـــا غَيْنـــاءُ زاهيـــةٌ

تِـــرِفُّ أوقاتُنـــا فيهـــا رياحينـــا

الوصـــلُ صـــافيةٌ، والعـــيش ناغيـــةٌ

والـسعدُ حاشـيةٌ، والـدهرُ ماشـينا

والـشمسُ تَختـالُ في العِقيـان تحـسبها

(بلقـيسَ) ترفُـلُ في وَشْيِ اليمانينـا

---

(1) نابغي: الليل المليء بالهم والأرق، إشارة على قول النابغة:

عِلِيني لهم يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطيء الكواكب

(2) الرّفة: النضرة.

والنيـلُ يُقْبِـلُ كالـدنيا إذا احتفلـتْ

لـو كـان فيهـا وفـاءٌ للمُـصافينا

والسعدِ لـو دام، والنَّعمـى لـو اطَّـرَدت

والسيلِ لو عَفَّ، والمقـدارِ لـو دينـا

ولم نَـدَعْ للَّيـالي صـافياً، فَـدَعَت

(بأن نَغَـصَّ، فقـال الـدَّهْرُ: آمينـا)

لقد نفث شوقي هذه الأغنية على أوتار عـوده وقيثارتـه، فكانـت ناحيـة الـشعر سعيدة؛ لما أصابه ولما ألمّ به، إذ نتيجة هذا الألم الذي اعتصر فؤاده، وهزّ كيانه، استطاع شوقي أن يفلت من الدوران في رحى القصر الذي كان يزجيه مدائحه، ويرتل باسمه وبآلائه صباح مساء. لقد كان نفي شوقي عن مصر بما له من مرارة، ومـا حـزّ بنفـسه وما أصابه من حرقة، نفثة من ربـة الـشعر أسـبغتها عـلى شـوقي، وإن كانـت تحرقـه بزفراته وآهاته، ولكن هذه الزفرات قد خلقت من شوقي شاعراً من طراز آخر. لقـد كان شوقي كئيباً حزيناً نظراً لإبعاده عن الدوح الذي اعتاد أن يـصدح عـلى أغـصانه وأيكه، وأن يسير الهوينى على ضفاف نيله، وأن ينعم بنسيم ونفثات حدائقه، فكانـت تجربة النفي لشوقي تجربة أثْرت نفسه بالحقد على المستعمرين وأعطته شـحنة مفعمـة بالكراهية لهم، وزادته ارتباطاً بشعبه وبأرضه، وإذا علمنا أن شوقي قد نفي من مصر وهو أشد ما يكون حباً لا، وكلفاً بها، علمنا كم كانـت معاناتـه وكـم كانـت حرقتـه، ومع ذلك، رأيناه يستغل هذه السانحة بدراسة الآثار العربية والكتب العربية التـي لم يكن قد اطلّع عليها ودرسها أو أكملها، فكـان لديـه مـن الفـراغ الكبـير مـا يـشغله بمطالعة آثار قومه العرب، وكان له فائدة أخـرى جناهـا مـن هـذا النفـي، ألا وهـو

الاطلاع عن كثب على ذلك الفردوس الذي اقتطع من جسم الأمة الإسلامية، ولذا، رأيناه يخاطب هذا الفردوس بأروع مطلع وأعظم بداية وأجمل استهلال[1]:

يـا نـائح الطلـح أشـباه عوادينـا

نـشجى لواديـك أم نأسـى لوادينـا

وهو إذ رأى نفسه يحل ضيفاً على ابن زيدون، نراه يقارن بين نفسه وبين صاحبه وإذا جاز لنا أن نعقد مقارنة بينهما فإننا نصل إلى ما يلي:

١- كلاهما ربيب نعمة ومجد، وكلاهما نكبته الأيام، وجارت عليه السنون، ورماه الدهر بما يكره.

٢- بينما نرى شوقي يحن إلى محبوبته مصر الغالية، وقد وهبها حبه وقلبه الكبير المفعم بحبها، نرى ابن زيدون يدبج قصيدته بمعشوقته ولاّدة بنت المستكفي التي تربَّعت على عرش قلبه، وفاض قلبه بحبِّها.

٣- كلاهما وصف مرتع حبه، والأرض التي درج عليها ووصف ما يعانيه من شوق وأمل باللقاء.

٤- كلاهما يُحمِّلُ البرق والنسيم تحياته وأشواقه ويبث لهما لوعته ولواعج فؤاده.

٥- كلاهما طرق المعاني نفسها التي يطرقها الشعراء المحبون وإن كسا كل منهما

---

(1) الشوقيات/ ج٢/ ١٠٤-١٠٨/ نظمها في منفاه بإسبانيا وفيها يحن للوطن العزيز ويصف كثيراً من مشاهده ومعاهده.

الطلح: نوعٌ من الشجر، عوادينا: عوادي الدهر: نوازله ومصائبه، ريش: من راش السهم: ألصق عليه الريش، ادّكاراً: تذكراً، أفانين: أجناس، الفنن: الغصن.

عباراته بكسوة لطيفة ووصل إلى غرضه بأسلوب حسن ومدخل لطيف ومنفذ أنّاذ.

٦- كلاهما عانى في حبه معاناة حقيقية، وقاسى تجربة واقعية مريرة، فلذا جاء شعورهما صحيحاً عفوياً بعيداً عن التكلف أو المغالاة، لأنه ينبع من إحساس وشعور حقيقي وألم دفن في قلبيهما.

٧- كلاهما صوّر لوعة البين ومرارة الحرمان وحرارة الشوق، وتوهج الحنين وذكرى أيام الأنس وليالي الصفاء والهناء والحبيب قريب والوصل متاح.

٨- لقد بذَّ شوقي ابن زيدون كثيراً بروعة معانيه وبالموسيقى الحيّة التي تستشعرها في ثنايا الأبيات، وأدّاها ببراعة وسعة خيال، وتألق ذهن ودقّة تعبير، مع الفارق بأن هذا حب شخصي والآخر حب للبلاد والديار والأهل، مما يعطيه هذه السعة واحترام السامع والقارئ في آنٍ معاً.

٩- إننا نرى شوقي يورد الحكم البالغة في ثنايا قصيدته، وهي حكم اشتهر بها وكأني به ناظر إلى المتنبي بحِكَمِهِ.

إن المصائب يجمعن المصابينا»

١٠- نلمس ثقافة شوقي التاريخية، فمن إشادة بأهرام مصر ومن ذكر للأندلس إلى تشبيه الشمس وهي متبخترة في كبد السماء ببلقيس وهي تزهو وتختال في وشيها ببردها اليمنى الشهير وتعيش بحريرها التي تجره وراءها زهواً واختيالاً.

إننا مهما قلنا عن بلاغة ابن زيدون وتأثر سواه به، فإننا نرى بشوقي معارضاً من الطراز الأول، فنرى الاستعارة تعانق الجناس، والتعبير يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمعاني، ونرى المقابلات البديعة والألفاظ الموحية والصور الأخاذة، فكأنها روض أنيق قد

أحيط بسياج من زهور البنفسج والريحان.

١١ - نراه متأثراً بإسلامه، وهذا يكاد يلازمه في قصائده جميعها، فهو إذ يفخر بماضي الأندلس نراه يقول إنه كان به فتية لا يذلون لغير الله، ولا يطأطئون لأحد سواه، اللهم إلا لعبادة الله، هذا مع إشادته بالأخلاق العربية الأصيلة، وإن كنا نلمح مبالغته بأن جعل أخلاق العرب تكاد تكون ديناً يستغني به الإسلام مع علمنا أن هذه الأخلاق ما هي إلا نقطة في خضم الإسلام، إذ لم يسد العرب الأمم ولم يرتقوا سدّة الحكم إلا بالامتثال لتعاليم الإسلام واتّباع هديه والسير على نهجه القويم الذي أبانه العلي القدير في كتابه العزيز، وإن كان للأخلاق الفاضلة في الإسلام مكان، وأيّ مكان.

١٢ - كلاهما وقف نفسه على صاحب الملك في زمانه.

١٣ - وقع ابن زيدون في حب وصبابة بينما لا نعرف عن شوقي أنه كان للحب ولواعجه لديه نصيب اللهم إلا مكابدته بحب مصر وأهلها.

والحق أن شوقي قد تناول بعض المعاني التي طرقها ابن زيدون، ولكنه يفوقه كثيراً بروعته المعنى ورنين الموسيقى، وطول النفس، وبراعة الأداء، وقوة التصوير وسعة الخيال ولا شك أن شوقي أبرع من عارض نونية ابن زيدون، وله فضل طول النفس وكثرة الصور وتوليد المعاني وسمو الخيال، وبراعة التعبير، وتصوير أمجاد الماضي والحاضر والتوسع في التاريخ، ولابن زيدون فضل السبق، ويكفي أن قصيدته بوزنها وقافيتها ومعانيها هي التي أوحت إلى كثير من الشعراء في عصره وبعد عصره أن يعارضوها.

وقد عقد الأستاذ الدكتور حسن جاد حسن موازنة بين نونية ابن زيدون ونونية

شوقي، ألقيت على طلبة الماجستير بقسم الأدب والنقد في جامعة الأزهر/ ١٩٧٥-١٩٧٦، لم تطبع في كتاب بعد.

وشوقي هذا الشاعر الكبير، الذي وقف الجزء الأكبر من حياته وشعره مادحاً الخلفاء مشيداً بهم وبمناقبهم في سياسة العباد وإصلاح البلاد، عاملاً لرفع راية الإسلام والذود عن حماه، يمكننا أن نقسم شعره الإسلامي إلى عدة أقسام:

١- إشادته بالجامعة الإسلامية وما يتبع ذلك من مدح الخلفاء المسلمين الذين تسنموا سدّة الحكم والخلافة، وذاك ينسحب بداهة على الخلفاء الأتراك العثمانيين وكذلك الثوار الأتراك، ووصفاً للمعارك التي خاضها هؤلاء الخلفاء أو الثوار دفاعاً عن بيضة الدين وصيانة الأرض ودار الإسلام، والذود عن حياضه، وكذلك وصف منعة الدولة الإسلامية وقوتها وقوة أسطولها.

٢- الإشادة بالعرب وباللغة العربية، وبأن لغة الضاد هي الكفيلة بحماية الإسلام، لأنها وعاء القرآن الكريم: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحِجر:٩].

٣- المدائح النبوية وبيان فضائل النبوة والإسلام، وما قاله معارضاً غيره من الشعراء في هذا الصدد.

٤- تصديه بعنف وإباء للاستعمار الفرنسي والإيطالي والإنجليزي، ودعوته مبكراً للوحدة العربية كونها الدرع الحصين الذي يصون الأمة الإسلامية، ويحفظ عليها كيانها ووحدة أراضيها وساكنيها.

٥- سماحته الدينية، وهو بهذا ينطلق من سماحة الإسلام، إذ كثيراً ما نراه يشيد

بالعلاقة بين المسلمين والمسيحيين، ويدعو إلى عدم الخصام والشجار، وأن تكون الألفة والمودة هي التي تحكم علاقات الشعب مسلميه ومسيحييه.

٦- الأندلسيات.

٧- دعوته لإحياء القومية العربية، وإن كنت أنا أرى أنها جزء من دعوته الإسلامية ترتبط بها ارتباطاً وثيقاً لانفصام لعراه، ولا فكاك لأوصاله؛ لأنه بهذه إنما يبتغي رفعة وطنه الإسلامي المترامي الأطراف.

❊ ❊ ❊

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الجامعة الإسلامية

في هذه الحقبة التي نتحدث عنها كانت الخلافة العثمانية قد رأت بوادر الضعف والهزال قد دبّ في ممالكها وأصبحت مدعاة للانهيار، ولذا نرى الخليفة العثماني عبد الحميد يدعو الأمة الإسلامية إلى التماسك والوحدة، ويضع نصب عينيه شعاراً لتحقيق ذلك مفاده (**يا مسلمي العالم: اتّحدوا**)، وذلك بعد أن رأى بأم عينيه وثاقب فكره وبعيد نظره، أن الإسلام هو المستهدف، وأن القضاء على الأمة الإسلامية وعلى الدين الإسلامي هو الأمل الذي يراود قساوسة أوروبا والمتربعين على كراسي الحكم فيها.

ولا غرو في ذلك، فإننا رأينا أنه بلغ من تعصب أحد كتاب فرنسا آنذاك أن اقترح حلاً للمسألة الإسلامية، القضاء على المسلمين ونبش قبر الرسول الكريم، ونقل عظامه -على حدّ تعبيره- إلى متحف اللوفر بباريس[1].

وإذا كان معروفاً عن الإسلام سماحته وكرم سجاياه وتمثله في قول الرسول ﷺ: «**ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية**». وتمثل المسلمين بقوله تعالى وانصياعهم له عن رضى وطيب خاطر ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣] فإننا نرى جمال الدين الأفغاني وهو من كبار رجال الفكر الإسلامي في الشرق ومن المعاصرين لهذه الفترة التي نتحدث عنها يقول في جريدة العروبة الوثقى عام ١٨٨٢ تحت عنوان الوحدة الإسلامية:

«ولا جنسية للمسلمين إلا في دينهم، فتعدد الملكة عليهم كتعدد الرؤساء في قبيلة واحدة، والسلاطين في جنس واحد، وجلب تنازع الأمراء على المسلمين وتفرق الكلمة وانشقاق العصا، فلهوا بأنفسهم عن تعرض الأجانب بالعدوان عليهم ...

---

(1) تاريخ الأستاذ الإمام/ ج١/ ٢٠١.

ولكن ضرب الفساد في نفوس أولئك الأمراء بمرور الزمن وتمكن من طباعهم حرص وطمع باطل.

فانقلبوا مع الهوى وضلّت عنهم غايات المجد المؤثل وقنعوا بألقاب الأمارة وأسماء السلطنة وما يتبع هذه الأسماء من مظاهر الفخفخة وأطوار النفخة ونعومة العيش مدّة من الزمان واختاروا مداراة الأجنبي عنهم، المخالف لهم في الدين والجنس، ولجأوا للاستنصار به. وطلب المعونة منه على أبناء ملّتهم استبقاء لهذا الشبح البالي والنعيم الزائل».

ولم يقتصر الحديث عن الدين الإسلامي والخلافة الإسلامية على جمال الدين، فإننا نرى المفكر المصري الكبير مصطفى كامل يقول في مقدمة كتابه (المسألة الشرقية) الذي ظهر سنة ١٨٩٨: «وإني أضرع إلى الله فاطر السموات والأرض من فؤاد مخلص وقلب صادق أن يهب الدولة العلية القوية الأبدية والنصر السرمدي ليعيش العثمانيون والمسلمون مدى الدهر في سؤدد ورفعة، وأن يحفظ للدولة العثمانية حامي حماها وللإسلام إمامه وناصره جلالة السلطان الأعظم والخليفة الأكبر الغازي عبد الحميد الثاني وأن يحفظ لمصر في ظل جلالته عزيزها ومحبوبها وأميرها العظيم سمو الخديوي عباس حلمي الثاني، إن ربي سميع مجيب»[1].

ويقول في تمجيد السلطان عبد الحميد: «وإن أعظم سلطان جلس على أريكة ملك آل عثمان، ووجه عنايته لإبطال مساعي الدخلاء، وتطهير الدولة من وجودهم هو جلالة السلطان الحالي، فقد تعلم من حرب ١٨٧٧ وما جرى فيها أن الدخلاء بلية

(1) المسألة الشرقية / ٤.

البلايا في الدولة ومصيبة المصائب، فعمل بحكمة عالية على تبديد قوتهم وتربية الرجال الذين يرفعون شأن الدولة ويعملون على إصلاحها»[1].

ونراه يقول في ضرورة المحافظة على سلامة الدولة الإسلامية العثمانية ويصور قوة نفوذها وسطوتها بين الأمم الإسلامية[2]: «ولكن الحقيقة هي أن بقاء الدولة العلية ضروري للنوع البشري وأن بقاء سلطانها سلامة أمم الغرب وأمم الشرق، وأن هدم هذه المملكة القائمة بأمر الإسلام يكون داعية لثورة عامة بين المسلمين، وحرب دموية لا تعد بعدها الحروب الصليبية إلا معارك (صبيانية)».

ويقول: (فقد أجمع العقلاء والبصيرون بعواقب الأمور على أن دولة آل عثمان لا تزول من الوجود إلا ودماء المسلمين والمسيحيين تجري كالأنهار والبحار في كل واد)[3]. والذي يبغض الإنجليز على الخصوص من جلالة السلطان الحالي هو ميله الشديد إلى جمع كلمة المسلمين حول راية الخلافة الإسلامية.

وإذا كان الكاتب الفرنسي (المبجل!!) يكشف عن نواياه الخبيثة وعنصريته البغيضة وحقده الدفين على الإسلام والمسلمين، ويكشر عن أنيابه البشعة معلناً أن الحل الوحيد في نظره هو القضاء على المسلمين ونبش قبر الرسول الكريم -لعنه الله- فإننا نرى الخبث الإنجليزي يطل من مقالة المستر بلانت والذي كان معروفاً في مصر فقد كتب كتاباً قبل الاحتلال البريطاني البغيض لمصر سماه (مستقبل الإسلام) وأبان

---

(1) المسألة الشرقية/ ١٠/ ١٠٢-١٠٣، وانظر الاتجاهات الوطنية في الأدب العربي المعاصر، ومحمد محمد حسين/ ٢٣.

(2) المسألة الشرقية/ ١٠٣/ ١٠٤، وانظر الاتجاهات الوطنية/ ٢٤.

(3) المسألة الشرقية/ ٩٦-٩٧/ الاتجاهات الوطنية/ ٢٥.

فيه أغراض حكومته الدنيئة وأماني الإنجليز في مستقبل الإسلام، فإذا هو يصدر كتابه بالافتتاحية التالية:

لا تقنطوا فالدُّرُّ ينثر عِقْدَهُ

ليعود أحسنَ في النِّظام وأجملا

بمعنى أن هدم السلطنة العثمانية لا يضر بالمسلمين، بل أن هذا العقد العثماني لينثر ليعود عقداً عربياً أجمل وأحسن. ولكن ما لم يقله المستر بلانت هو أن قومه يريدون هذا العقد في عنق بريطانيا لا في جيد العرب والإسلام، ويشير المستر بلانت أيضاً إلى أن مركز الخلافة الإسلامية يجب أن يكون مكة، وأن الخليفة في المستقبل يجب أن يكون رئيساً دينياً لا ملكاً دنيوياً، أي أن الأمور الدنيوية تترك لإنجلترا لتدبر أمرها كيف تشاء، وبالجملة فحضرة المؤلف لكتاب (مستقبل الإسلام) يرى -وما هو إلا مترجم عن آمال أبناء جنسه- أن الأليق بالإسلام أن ينصب إنجلترا دولة له، ولم يبق للمستر بلانت إلا أن يقول بأن الخليفة يجب أن يكون إنجليزياً[1]!!

ويقول فضيلة أستاذي الدكتور محمد محمد حسين مؤلف (الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر)[2]: وكان محمد فريد خليفة مصطفى كامل متفقاً معه في أن مصلحة مصر في ذلك الوقت، تدعو إلى مؤازرتها لتركيا؛ لأن ذلك هو السبيل الأمثل إلى مناهضة المستعمرين، ويدل ذلك على اهتمامه بتأليف كتاب (تاريخ الدولة العلية العثمانية) ويقول في مقدمته[3]:

---

(1) المسألة الشرقية/ ١١٠-١١١، انظر الاتجاهات الوطنية/ ٢٥.

(2) جزء (١) (ص٢٦)، ترجمة محمد فريد/ انظر جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب/ ج٢/ ٢٣٠-٢٣١.

(3) تاريخ الدولة العثمانية العلية/ ٢-٤-٥.

«(على أن الملك العثماني قد لمّ من شعث الولايات الإسلامية وقطع من تقاطعها ما رد على السيطرة الإسلامية كل السيطرة الشرعية. على أثر ذلك قامت قيامة التعصب الديني في الممالك الأوروبية واتفقت على اختلافها، وتوحدت على تعددها، وانسابت على الملك العثماني وأخذت تحاربه مثنى وثلاث ورباع لتقويض عرشه ورده إلى مهده الأول .. فلما كانت هذه الدولة قد وقفت نفسها للذب عن حرية الشرق والذود عن حوضه، ولما كانت هي الحامية لبيضة الدين الإسلامي زمناً طويلاً، رأيت من الواجب عليَّ خدمة للحقيقة، ونفعاً لأبناء البلاد أن أدون هذا التاريخ راجياً منه تعالى أن يوفقني لخدمة الوطن ونفع بنيه، وأن يدعم ويؤكد ما بين مصر والدولة العلية من التابعية وأن يحفظ خديوينا المعظم عباس حلمي الثاني ملجأً لمصر وأبنائها ومنقذاً لها من ورطتها، إنه السميع المجيب)» .

مما سبق يبدو لنا أن النزعة الإسلامية كانت جارفة في فكر كتاب وأدباء هذا العصر مفكريه وقادته، فلا جرم أن نراها كذلك واضحة في أشعار شعرائه، ولم لا وكتاب كلّ أمّة هم قلبها وضميرها النابض المعبرون عن فيض هذا القلب ودفقاته ونبضات هذا الضمير وإيحائه، وهم رسل الدعوة له، وحملة مشاعل الهداية ورواد - الطريق والرعيل الأول- الذي يحدد للأمة بعامة وللشعب المعني بخاصة سبل النجاة وأهداف المستقبل، وخطى الأمان على درب المستقبل المأمول المضمون، إذ أن - هؤلاء الشعراء والأدباء كانوا - وهم صادقون في ذلك- يرون أن الخلافة هي التي تجمع عرى المودة والمحبة بين سكان الممالك الإسلامية، وأنها الرمز الوحيد الذي كان لا يزال يربط بين شعوب الأمة الإسلامية بدينها وبرسالتها، وكون الخليفة حامي حمى الإسلام العامل على رفعة شأنه وانتصاب قامته، واحتلاله المركز الذي وهبه الله له، وبوأه إياه لإعمار هذا الكون ونشر كلمة الله في الأرض.

وإزاء ذلك، يزايلنا العجب، إذ نبصر شوقي داعياً لوحدة شاملة تجمع المسلمين في شتى بقاع الأرض تحت راية الخلافة، داعياً إياهم الالتفاف حولها والتفيؤ بظلها الظليل الوارف محذّراً من اختلاف كلمتهم وبذر الشقاق بين صفوفهم.

ويقول في قصيدة بعنوان «ضيف أمير المؤمنين»[1]:

رضي المسلمون والإسلامُ

فرع عثمانَ، دُمْ فِداكَ الدَّوامُ[2]

كيف نحصي على عُلاك ثناء؟

لك منا الثناءُ والإكرام

هل كلام العبادِ في الشَّمْس إلا

أنها الشَّمسُ ليس فيها كلام؟

ومكان الإمام أعلى، ولكن

بأحاديثه يَتيهُ الأَنام

إيهِ[3] (عبدَ الحميد)، جَلَّ زمانٌ

أنت فيه خليفةٌ وإمام

---

(1) الديوان/ ج١/ ٢٣٩، الاتجاهات الوطنية في الأدب العربي المعاصر/ ٢٨. نزل شوقي بالآستانة فبلغ أنه ضيف أمير المؤمنين ما أقام بها.

(2) فرع عثمان: السلطان عبد الحميد.

(3) إيه: اسم فعل معناه الاستزادة من الحديث.

مـا رأت مثـل الـذي تبتنـي الأقـوا

م مجـــداً، ولـــن يـــرى الأقـــوام

دولـــةٌ شـــاد ركنَهـــا ألـــفُ عـــام

ومئـــــاتٌ، تعيـــــدُها أعـــــوام[1]

وأســـاسٌ مـــن عهـــد عـــثمان يُبنـــى

في ثـــــمان ومِـــــثْلُهُنَّ يُقـــــام

حكمـــةٌ حـــال كـــلَّ هـــذا الـــتَّجَلِّي

دونَهـــــا أن تنالهـــــا الأفهـــــام

يـسأل النـاسُ عنـدها النـاس: هـل

في النـاس ذو المقلـةِ التـي لا تنـام[2]؟

أم مِن الناسِ -بَعُد- مَـن قولُـه وحـ

ـــيٌ كـــريم، وفعلُـــه إلهـــام؟

صـدق الخلـق؛ أنـت هـذا، وهـذا

يـــا عظـــيماً مـــا جـــازه إعظـــام

---

(1) أي: رفع ركنها ألف عام ومئات (وهي دولة الإسلام منذ هجرة الرسول، تعيدها أعـوام: أي ترجعها إلى مثل قوتها أعوام متعددة هي التي تولت فيها أمرها).

(2) كناية عن سهر الملك على مصالح الأمة.

شرفٌ بـــاذخٌ وملـــكٌ كبـــيرٌ

ويمـــينٌ بُـــسطٌ، وأمـــرٌ جِـــسَام

(عُمَـــرٌ) أنـــت بَيْـــدَ أنـــك ظِـــلٌّ

للبرايـــا، وعِـــصْمةٌ، وســـلام

مـــا تتوَّجْـــتَ بالخِلافـــة حتـــى

تُـــوِّجَ البائـــسونَ والأيْتـــامُ

وسرى الخـصب والـنماء، ووافى الـــ

ـبِـشْر والظِّـلِّ، والجَنَـى، والغَـمام[1]

وتلقَّـــى الهـــلالَ منـــك جبـــينٌ

فيـــه حُـــسْنٌ، وبالعُفـــاةِ غـــرام[2]

فـــسلامٌ علـــيهِمُ وعليـــه

يـــومَ حيّـــتْهُمُ بـــه الأيـــام

وبـدا الملـك ملـك عـثمان مـن عَلْـ

ـــياكَ في الـــذَّروة التـــي لا تُـــرام

يهـــرعُ العـــرشُ، والملـــوكُ إليـــه

وبنـــو العـــصر، والـــولاةُ الفِخَـــام

---

(1) الجنى: ما يجنى من الثَّمر. بالعفاة غرام: أي وفيه غرام العفاة، العُفاة: جمع عـاف وهـو طالـب الفضل والرزق.

(2) بالعفاة غرام: أي وفيه غرام العفاة، العُفاة: جمع عاف وهو طالب الفضل والرزق.

ولأنـــت الـــذي رَعِيَّتُـــهُ الأَسْـــ

ـــدُ، ومَـــسْرى ظلالهـــا الآجـــام

أمـــة الـــتُّرْك، والعـــراقُ، وأهلـــو

ه، ولبنـــانُ، والرُّبَـــى، والخيـــام

عـــالَمٌ لَم يكـــن ليُـــنْظَمَ، لـــولا

أنـــك الـــسِّلم وَسْـــطَه والوِئـــام[1]

****

عَـــاليَ البـــابِ، هـــزّ بابُـــك مِنَّـــا

فـــسعينا، وفي النُّفـــوسِ مَـــرامُ[2]

نـــستميحُ الإمـــامَ نَـــصراً لمـــصر

مـــثلَما يَنـــصرُ الحـــسامَ الحـــسامُ

فلمـــصرَ -وأنـــت بالحـــب أدرى-

بـــك -يـــا حـــاميَ الحمـــى- استِعْـــصام

يـــشهَدُ الله للنفـــوس بهـــذا

وكفانـــا أن يـــشهدَ العـــلَّامُ

---

(1) الوئام: الوفاق.

(2) الشوقيات/ ج١/ ٢٤٢-٢٤٣.

عاليَ الباب: أي: يا مَن بابُكَ العالي.

مرام: مطلب.

وإلى الـــسيدِ الخليفـــةِ نـــشكو

جَـــورَ دَهْـــرٍ، أحـــرارُه ظُـــلَّام

وارعَ مِـــصراً ولم تـــزل خـــيرَ راعٍ

فلهـــا بالـــذي أرَتْـــكَ زِمَـــام

مـــن يُـــرِد حقَّـــهُ فللحـــق أَنْـــصا

رٌ كثـــير، وفي الزمـــان كِـــرام

رافـــعَ الـــضَّادِ للـــسّها، هـــل قَبـــولٌ

فيبـــاهي النجـــومَ هـــذا النظـــام[1]؟

قامـــت الـــضادُ في فمـــي لـــك حُبًّـــا

فهْـــيَ فيـــه تحيـــةٌ وابتـــسام

إن في «يلـــدز» الهـــوى لخَـــلالاً

أنـــا صَـــبٌّ بلُطفهـــا، مُـــسْتَهَام[2]

قـــد تجلَّـــت لخـــير بـــدْرٍ أقلَّـــتْ

في كـــمالٍ بـــدت لـــه أعـــلام

---

(1) نفسه/ ٢٤٤.

الضاد: اللغة العربية.

(2) يلدز: قصر السلطان عبد الحميد في الآستانة (اسطنبول).

مُسْتَهَام: محب.

فـــالزم الـــتِمَّ أيهـــا البـــدرُ دَوْمـــاً

والـــــزمِ البَـــــدْرَ أيهـــــذا الـــــتمام[1]

في هذه القصيدة يعبر شوقي عن اغتباط المسلمين ورضاهم التام، وليس المسلمون وحسب، بل إن الإسلام نفسه ليغتبط ويزهو ويتطاول مزهواً، ويمسي مطمئناً لهذا الفرع المبارك من بني عثمان الذي ساس الأمة الإسلامية داعياً الله أن يديمه حاكماً، ملاذاً لها وملجأً، ولم يكتف بهذا، بل إنه يرحب بزمن عريق وأوقات هانئة قيض به لعبد الحميد أن يكون خليفة المسلمين وإماماً لهم في دينهم ودنياهم، مشبهاً إيّاه بأعدل خليفة بعد رسول الله ﷺ وأشدّهم تُقىً، إنه يشبهه بعمر بن الخطاب، فحيثما ذكر سيدنا عمر قرن به العدل والزهد والتقى، ولم يكتف بتشبيهه بعمر بل أضفى عليه ميزة أخرى وهي كونه ظلّ للخلق من المسلمين وعصمة لهم من عوادي الزمن ونائبات الدهر، وسلام لهم من دواهيه، ويمضي شوقي يرسم هذه الصورة الرائعة لخليفة المسلمين مشيراً إلى أنه ما كاد يتوج بالخلافة ويتربع على أريكة حكم الدولة الإسلامية المترامية الأطراف حتى تُوِّجَتْ شِفَاهُ البائسين والأيتام بالبسمة التي طالما افتقدوها، وبالأمل يراود أنفسهم، ولم لا، فمن رعيته الأسود كرام الرجال ومسرى ظلالها الآجام والأُكُم، وقد امتزجت برعيته المؤلفة من أمة الترك العريقة بالشجاعة والبأس المتمسكة بأهداب دينها ذات الشأن البعيد في التاريخ مع العراق وأهله ولبنان الجبل الأشم حتى وصلت صورها إلى -ساكني الخيام في الفيافي والبوادي- الشاسعة.

---

(1) التم والتمام: الكمال.

إن هذا العالم المترامي الأطراف المتعدد الشعوب، ما كان ليدين لهذا الحكم ولينظم في هذه القلادة لولا عبد الحميد الذي يمثله بالسلم مقتعداً وسطه وناشراً جناحيه على ربوعه جميعها. وينوه شوقي بالدولة الإسلامية التي رفع ركنها منذ ألف عام ومئات منذ هجرة الرسول ﷺ، فما زادتها هذه السنون إلا قوة، خاصة بالفترة التي توليت فيها أمرها، وينوه شاعرنا بحدب الخليفة على رعيته وعلى مصلحتها حتى أن مقلته لا تعرف النوم، ويشيد بشرفه الباذخ وملكه الكبير.

وشوقي وهو في ضيافة الخليفة محتفى به مكرماً لم ينسَ حق مصر في عنقه، فهو يستميح الإمام أن يقدم لمصر نصره ومساعدته تماماً كما ينصر الحسام الحسام، منوهاً بحب مصر للخليفة واستعصامها بظلاله طالباً منه أن يكون أبداً راع لها.

وقد أحسن شوقي أيما إحسان بإيراد حكمته في قوله:

من يرد حق فللحق أنصار

كثير وفي الزمان كرام

مؤكداً بذلك أن على صاحب الحق أن يحافظ على حقوقه وأن يرد كيد المعتدي عليها ولن يعدم الأنصار الكثر يقفون إلى جانبه. كما أن شوقي يحتفل باللغة العربية ويحتفي بها ويرفعها لتباري السها[1]، وقد امتلأ فيه حبه بلغتها العريقة وأزجاها حباً عاطراً للخليفة مقروناً بالتحية والبسمة. وفي هذين البيتين يذر شوقي الرماد في عيون أولئك المتحاملين الذين يتهمونه بالعنصرية لجنسه التركي، ويرمونه بحب أصله أكثر من لغته العربية.

---

(1) النجوم.

وقد سبق أن ذكرنا أن شعراء هذه الحقبة قد احتفلوا أيما احتفال بالإشادة بالخلافة رداً منهم على كيد الغرب، ولذا فإننا نرى أنه لا تمر مناسبة من المناسبات إلا وانبرى لها الشعراء المعاصرون، فهذا حافظ إبراهيم يقول من قصيدة له أنشأها في عيد تأسيس الدولة العلية سنة ١٩٠٦[1]:

لقد مكّن الرحمنُ في الأرض دَوْلةً
لعثمان لا تعفو ولا تَتَشَعَّبُ
بناها فظنتها الدراري منزلاً
لبدر الدجى تبنى وللسعد تنصب
وقام رجال بالأمانة بعده
فزادوا على ذاك البناء وَطَنَّبوا
أُسْدٌ على البسفور تحمي عرينها
وترعى نيام الشرق والغرب يرقب

ويقول محرم[2]:

يا آلَ عثمانَ من تُرك ومن عَرب
وأي شعبٍ يساوي التُّركَ والعَربا؟
صونوا الهِلالَ وزيدوا مجده علماً
لا مجد من بعده، إن ضاعَ أو ذهبا

(1) ديوانه/ ج٢/ ٩٧، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر/ ج١/ ٢٨.
(2) ديوان حافظ إبراهيم / ج٢/ ٤، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر/ ج١/ ٢٨.

أبــو الخلائــف ذو النــورَيْن مورثنــا

ملــك الهِــلال وهــذا المجــدُ والحَــسَبا

ويقول[1]:

لــولا بنــو عــثمان والــسَّنن الــذي

شرَعــوا لمــا وَضَــحَ الــسَّبيلُ الأقــوم

ســطعوا بآفــاقِ الخلافــةِ فــانجَلَى

عنهــا مــن الحــدَثَان ليــلٌ مُظلــمُ

مــــنهم ولاةُ أمورِهــــا وكُفاتهــــا

وهــم حمــاةُ ثُغورِهــا وهــم هُــمُ

إنــا بنــي عــثمانَ أعــلامُ الــوَرى

والأرضُ تُــشرقُ فوقَهــا الأعــلام

إنــا الــسَّنام إذا الأنــامُ تفــاخَرت

والنــاسُ فــيهم مَنْــسَمٌ وَسَــنام

(1) ديوان محرم (السباعيات)/ ٤١، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر/ ج١/ ٢٩.

وتمضي قافلة الشعراء تعزف على نغم الخلافة، فيقول الكاشف من قصيدة له في عيد جلوس السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٠[١]:

يـــا نـــاصرَ الإســـلامِ إنَّ زماننـــا
بـــكَ صـــارَ في عِـــزٍّ وفي اســـتكبار
ومُعـــزُّ كـــل مـــسالم لـــك خاضـــع
ومُـــذِلُّ كـــل مُعانـــدٍ جبَّـــار
ومعيـــد أدوارِ الـــشباب لمـــوطن
كـــم للحـــوادثِ فيـــه مـــن أدوار
قامـــت الـــضَّادُ في فمـــي لـــك حبـــاً
فهـــي فيـــه تحيـــةٌ وابتـــسام

ويقول نسيم من قصيدة له في تهنئة السلطان عبد الحميد في عيد الفطر[٢]:

أقمـتَ عرشـكَ بـين الحـق والـسَّدَد
فـــزاده الله تثبيتـــاً إلى الأبـــد
فكيـــفَ تفـــزعُ في الـــدنيا لكارثـــةٍ
وأنت تحمـي ذمـار الفـارغ الخفـض[٣]
خليفـةَ الله يـا ابـن العِـزِّ مـن نُجُـب
لله درُّك يـــومَ الـــرَّوْع مـــن عَـــضُد

(1) ديوانه/ ج١/ ٨، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر/ ٤٢.
(2) ديوانه/ ج١/ ١٦.
(3) العاجز عن النهوض.

جاهـدت في المُلْـكِ تحميـهِ وتحفَظُـه

جهـادَ طـهَ مـع الأنـصار في أُحُـد

والـسيفُ يكتـب آيَ الفـتحِ مُحْكَمَـةً

عـلى الـبلاد بـنفس مـن دمٍ جـسد

وقـد أعـدتَ إلى الإسـلام نُـضْرته

حتـى زهـا بـك واسـتذرى إلى سَـنَد

ويقول[1]:

وقـد أعـدتَ إلى الإسـلام نُـضرته

حتى ارتـدى روضـه باليـافع الخَـضِلِ

وبـتَّ ترعـى الرَّعايـا في مراقِـدِها

وصرتَ تحمـي ذمـارَ الفـارغ الوَجِـلِ

وكأن قلبك قلـب الـسيف مُـضْطرباً

فَعَـزَّ بعـدك قلـبُ الـسيفِ في الخَلَـل

فـلا بَرِحْـتَ لهـذا الـدينِ تكـلأه

حتـى يعـود إلى أيامِـهِ الأُوَلِ

---

(1) ديوانه/ ج١/ ١٣١.

ويقول عبد المطلب من قصيدة له في تهنئة السلطان عبد الحميد بعيد الدستور[1]:

يـا عيـدُ حـيِّ وأنـت خـيرُ نهـار
عبـدَ الحميـدِ بدولـة الأحـرار
ملـك أقـامَ عـلى الخلافـةِ مـنهم
حَرمـاً وقاهـا صـولةَ الأشرار
مـن بَعْـدِ مـا كـان الزمـانُ يحلهـا
بـالجور دار مذلـة وبـوار
عهدٌ مضى -لا عـادَ- كبَّـلَ دولـة الـ
إسـلام في الأغْـلالِ والآصـارِ[2]
فَرَمَـتْ مقاتِلَهـا يـدُ الأطـماع مـن
دول كَلِفْـنَ بحـب الاسـتعمار
هـذي تطالـبُ بالـدخول وهـذه
تحتـالُ في وَطَـرٍ مـن الأوطـار
لـولا أمـير المـؤمنين يَحوطُهـا
لرأيتهـا خـبراً مـن الأخبـار

وشعراؤنا المعاصرون في تلك الحقبة يعلقون على تركيا آمالاً جساماً، فهم يعلنون

(1) ديوانه/ ٩٣-٩٤.

(2) جمع إصر بكسر الهمزة وهو: الثقل والذنب.

ولاءهم لخليفة المسلمين في شتى المناسبات شاكين إليه ما نابهم من ضرٍّ وما نزل بهم من خطب، راجين تدخله لإنقاذهم، بل إنهم ليرون ذلك واجباً على خليفة المسلمين الذي نيط بعنقه رعاية شؤونهم وحياطة دولهم، يعاتبونه -وقد يقسون بالعتاب- إن تخلف عنهم[1].

ويقول الكاشف من قصيدة له في طرابلس سنة ١٩١١ يحض فيها المصريين على التمسك بعرى العثمانية، داعياً عباساً إلى العودة للخليفة بعد ما كان من جفاء[2].

إن الـــذي جعـــلَ الخِلافـــةَ فـــيكُم
جعـــلَ المـــودَّة والمحبـــةَ فينـــا[*]
إن ائـــتلافَ قلـــوبِكم وقلوبِنـــا
ليمـــــد أيـــــدِيكُم إلى أيـــــدينا
يـا آلَ مـصرَ - وفي الحـوادثِ عِـبْرة
فتـــصفَّحوها اليـــومَ مُعْتبرينـــا
فـدعُوا القـضيةَ للخليفـةِ عَلَّكـم
بعـــد الـــوَدادِ إلـــيهِمُ ناجونـــا

مـا كـان مـن حَـرَج عـلى مـصر إذا

---

(1) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، د. محمد محمد حسين/ ج١/ ٣٢.

(2) ديوانه/ ج٢/ ٢٢، الاتجاهات/ ج١/ ٣٤.

(*) مقابلة بديعة.

جـــرَّبْتُم بعـــدَ الجَفـــاء اللِّينـــا

ويقول علي الغاياتي مـن قـصيدة لـه وجهّهـا إلى الـسلطان عبـد الحميـد في عيـد الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ وينعته بأمير المؤمنين[1]:

أمـــيرَ المـــؤمنينَ مَـــضَتْ قلـــوبٌ

إليـــكَ يَحُثُّهـــا الحُـــبُّ المَكـــين

نؤمِّـــلُ أن نَـــراك لهـــا مُعينـــاً

وأنـــتَ لهـــا عـــلى الـــدَّهْر المُعـــين

فيـــا أمـــلَ القلـــوبِ إليـــكَ مِـــصْر

تُـــشيرُ وبـــينَ جَنْبيهـــا حَنـــينُ

رَمَتْهـــا الحادِثَـــاتُ بِـــشَرِّ قـــوم

لهـــم في كـــل مظلمـــة شـــؤون

قـــضت في عهـــدِهِم مـــصر ولـــولا

رجـــاءٌ فيـــك مـــا قَـــرَّتْ عُيـــون

فـــأعزِزْ يـــا حِمَـــى الإســـلام شَـــعْباً

بِعِـــزِّكَ لا يَـــذِلَّ ولا يَهُـــون

في هذه القصيدة المفعمة بالعاطفة المتأججة بالحب المتّقـد، يظهـر الـشاعر مقـدار

(1) وطنيتي / ٥٥/ راجع ديوان الغاياتي، الاتجاهات/ ج١/ ٣٧.

تمسك المسلمين بخلافته، وأنه أمل الأمة المرجى والمعين عند الشدّة عندما تدلهم الأمور وتشتد المواقف حلاكة وبأساً، ويصوره بأمل القلوب تعنو له، وفي جنبها يخفق القلب بحب الخليفة ويحن إليه، ويطلب منه أن يعمل على إعزاز شعب مصر كونه حمى للإسلام مؤكداً أن من يعتز بالخليفة -بعد الله- فلن يهون.

إن قلوب المسلمين كانت معلقة بأهداب الخلافة مطمئنة إلى أنها الشجرة الوارفة الظليلة التي يستظل بظلها المسلمون، ويقيلوا تحت أيكها الوارف الهانئ مطمئنين إلى أن حامياً يحميهم ويحافظ عليهم، فلا يتطرق لقلوبهم خوف أو خشية؛ لأنهم يسندون ظهورهم إلى خلافة قوية متينة ترعاهم وتسوسهم بالسياسة العادلة، وتحوطهم بالرعاية الكافية.

وإذا كان الغاياتي قد نفحنا بهذه القصيدة الرائعة بمناسبة إعلان الدستور فهل سيدع شوقي هذه المناسبة -وهو المنعوت بشاعر المناسبات- تمرّ دون أن يصنع حيالها شيئاً بديعاً، ونظماً فريداً وقصيدة رائعة العبارات، متينة التراكيب، قوية السبك والحبك؟ هذا مالا يمكن تصوره. لذا، فإن من المناسب أن نرهف أسماعنا صاغين، ونتطلع لشوقي لنرى ما علّه يقدم لنا بهذه المناسبة التي أسعدت المسلمين جميعاً سيّما وقد لحق بعض الأقطار الإسلامية الغبن نتيجة تصرفات بعض المحسوبين على الخلافة.

نستمع إليه وقد أمسك بقيثارته ومرّر أنامله الرشيقة عليها، فإذا هي تخرج هذه الأنشودة الساحرة التي تقطر رقّة وتنساب من بين كلماتها العذوبة كما تنساب قطرات الندى على أزهار السوسن الندية في فجر يوم طلي وهبوب النسيم العليل فوق وجنة

حسناء، فإذا هو يصطبغ بالحمرة الأرجوانية، فيقول[1]:

بُـشرى البريـةِ قاصـيها ودانيهـا

حـاطَ الخلافَـةَ بالدُّسـتور حاميهـا[2]

لمـا رآهـا بـلا ركـن تَـدَارَكَهَا

بعـد (الخليفـةِ) بالـشُّورى ونـاديهـا

أسـدى إلينـا (أمـيرُ المـؤمنين) يَـداً

جَلَّت، كما جلَّ في الأمـلاك مُـسديها[3]

بيـضاء، مـا شَـابَها للأبريـاء دَمٌ

ولا تكـدَّر بالآثـامِ صـافيها

ولـيس مُـسْتَعْظَماً فـضلٌ، ولا كَـرَمٌ

مـن صـاحب (الـسكة الكـبرى)

إن النَّـدى والـرضى فيـه وأُسرتِـه

---

(1) الشوقيات/ ج١/ ٢٨٦.

(2) ديوانه/ ج١/ ٢٨٦.

حاطَ: حفظها وتعهدها.

حاميها: هو الله تعالى.

(3) أسدى: أحسن.

أمير المؤمنين: السلطان عبد الحميد.

(4) السكة الكبرى: السكة الحديدية الحجازية، أنشأتها الدولة في زمانِه.

واللهُ للخـــيرِ هاديـــه وهاديهـــا

قوم على الحبِّ والإخلاصِ قد مَلَكـوا

وحـسبُ نفـسك إخـلاصٌ يُزكيهـا

خلافـةُ اللـــهِ في أحـضانِ دولـتهم

شـابَ الزَّمـانُ، ومـا شـابت نواصـيها

الـــرأيُ رأيُ (أمـــيرِ المـــؤمنين) إذا

حـارتْ رجـالٌ وضَـلَّت في مرائيهـا[1]

وإنَّـما هـي شـورى اللـــهِ، جـاء بهـا

كتابُـــهُ الحَـــقُّ، يُعليهـــا، ويُغْليهـــا

حقنـتَ عنـد مُنـاداةِ الجيـوشِ بهـا

دمَ البَرِيَّـــةِ إرضـــاءً لباريهـــا

ولـو منعـت أُريقَـت للعبـاد دمـاً

وطـاحَ مـن مُهَـج الأجنـاد غاليهـا

ومـن يَسُسْ دولـةً قـد سُـسْتَها زمنـاً

---

(1) مرائيها: آرائها.

تَهُــنْ عليــه مــن الــدنيا عواديهــا

أَتَــى ثلاثــون حَــوْلاً لم تَــذُق سِــنَةً

ولا اســتَخَفَّكَ للَّــذَّاتِ داعيهــا

******

أمـا تَـرى المُلـكَ في عُـرسٍ وفي فـرح

بدولـةِ الـرأيِ والـشورى وأهليهـا؟

لمـا اسـتعدَّ لهـا الأقـوامُ جئـتَ بهـا

كالمـاءِ عنـد غليـل الـنَّفسِ صـاديها

خلافـةُ اللـهِ جِـرَّ الـذيلَ حاضِرُهـا

بـما منَحَـت، وهـزَّ العطـفَ باديهـا

هَـبَّ النـسيمُ عـلى «**مقدونيا**» بَـرَداً

مـن بعـد مـا عَـصَفَت جَمْـراً سَـوافيها

تغـلي بـساكنِها ضِـغْناً ونـائرةً

عـلى الـصدور إذا ثـارت دواعيهـا

مـن كـل مُسْتبـسلٍ يَرْمـي بمهجتـه

في الهـول إن هـي جاشـت لا يراعيهـا

وإنـا وسـلام الملـك -يطلبهـا-

أمانـة عنـد ذي عهـد يؤديهـا

******

الـدينُ لله، مـن شـاء الإلـهُ هـدى

لكـل نفـسٍ هـوىً في الـدين داعيهـا

مـا كـان مُختلِـفُ الأديـانِ داعيـةً

إلى اخـتلافِ البَرايـا، أو تَعاديهـا

الكُتْـب، والرُّسـل، والأديـانُ قاطبـةً

خـزائنُ الحكمـة الكـبرى لِوَاعِيهـا

محبـةُ اللـهِ أصـلٌ في مراشِـدِها

وخـشيةُ الله أُسٌّ في مَبانيهـا

******

يا شعبَ عُثمانَ من تُـرْك ومـن عَـرَبٍ

حَيَّـاك مـن يبعـث المـوتى ويحييهـا

صبرتَ للحـقِّ حـين الـنفسُ جازعـةٌ

فـاهتف (لأنورهـا) واحمـد (نيازيهـا)

نلـتَ الـذي لم يَنَلْـه بالقنـا أحـدٌ

واللهُ بالـصَّبر عنـد الحـقِّ موصـيها

مـا بـين آمالِـك اللائـي ظَفِـرْتَ بهـا

وبـين (مـصر) معـانٍ أنـتَ تـدريها

في هذه القصيدة انطلق شوقي على نايه فرحاً طرباً ليزف للعالم الإسلامي قاصيه ودانيه نبأ أمنية طالما داعبت خياله وأسهدت أجفانه، تلكم هي إعلان الدستور العثماني ومساواة الرعايا العثمانيين أمام القانون.

ولقد تحقق نيل هذه الأمنية الغالية على يد خليفة المسلمين عبد الحميد. وشوقي في هذه القصيدة يعالج موضوع الدستور من منطلق إسلامي، فالشورى هي أساس الحكم في الإسلام وبإعلان الدستور أصبحت الشورى ركناً مهمًّا وأساساً ثابتاً من دعائم الحكم، وقد أسدى أمير المؤمنين للأمة الإسلامية يداً بيضاء لم يسفك بها دم بريء. وإعلان الدستور -على جلاله- فإن تحقيقه على يد هذا الخليفة ليس بالشيء المستعظم على من بنى السكة الحديدية (وهو ما يعرف بالخط الحجازي) التي ربطت أقطار العالم الإسلامي بشبكة حديدية سهلّت المواصلات بين أطرافها حتى امتدّت من اسطنبول إلى فلسطين، والحجاز، فالبصرة، وكانت النيّة أن تصل إلى الكويت ولكن الخط توقف عند البصرة، وما زلنا نرى بقاياها ماثلة أمامنا شاهدة على عظمة هذه الدولة. ولا يفوته أن يشير إلى عراقة الأصل العثماني، فينوه بالخليفة وبأسرته داعياً الله بأن يهديه ويهدي أسرته للخير والرشاد.

ويبدع شوقي في استعارته عندما يشبه الزمان برجل شاخ وخط الشيب رأسه، ولكن الخلافة العتيدة في أحضان هذه الدولة ما زالت يافعة بالرغم من شيب الزمان. وعلى الرغم من أن الشورى قائمة، إلاّ أن الرأي الحازم والحاسم هو رأي أمير المؤمنين في الوقت الذي تحاربه عقول الرجال وتتنكب سواء السبيل، وما الأمر أولاً وآخراً إلا شورى بين المسلمين، ونلاحظ كيف يدعوه بأمير المؤمنين، لزيادة ارتباط المسلمين به، وأنه أميرهم، وفي هذا تأكيد على إمارة المسلمين، وأن الحكم ديني ودنيوي في آنٍ معاً، وهذا موقف سياسي واضح.

وعبد الحميد بمبادرته بإعلان الدستور فإنما حقن دماء أبناء رعيته، وباتت هذه الأرواح تسبح بحمد الله وجلاله، وينوه بحكم عبد الحميد وأنه لم تستخفه شهوات الدنيا ونعيمها بالرغم من أنه حكم ثلاثين عاماً لم تغمض له خلالها جفن عن حقوق أمّته، وإنما كان يبيت مسهداً مفكراً مكدود الفؤاد مثقله؛ بما حمل من عبء بسياسة هذه الأمة، ورعايتها كي يوصلها إلى بر الأمان.

وقد كان إعلان الدستور بمثابة النسيم العليل الذي هبّ على عاصمة الخلافة برداً وسلاماً بعدما كادت تودي بها العواصف وتطيح بكيانها الهزّات.

ومع اتّساع هذه الدولة واحتوائها على العديد من الجنسيات، فإن شوقي لم ينس أن يذكر أن الدين لله وحده، ومن شاء الله له الهداية فقد اهتدى، ولا يجوز أن يكون اختلاف الأديان مدعاة لاختلاف الخلق واقتتال الأجناس، بل إن الدستور قد حدّد لكلّ مسؤوليته تجاه الدولة، وحدّد مسؤولية الدولة تجاه هذا المواطن، وفي ختام قصيدته يزف تحياته إلى شعوب الدولة العثمانية من عرب وأتراك داعياً من خالص قلبه أن يحميهم الله الذي يبعث الموتى من قبورهم، ويحييهم بإذنه وهو يشيد بصبر

هذا الشعب ورباطة جأشه، وبأنه وقف أمام الخطوب بالرغم من فداحة الأهوال.

وشوقي بعد كل هذا العنفوان والمديح الذي كاله للسلطان، لم ينس في جو هذا الاندفاع أن يشيد بمن كان لهم اليد الطولى في إعلان الدستور وهما أنور ونيازي، فيطلب من الشعب أن يهتف بحياتهما ويحمد لهما حسن تقديرهما، ولا ينس أن يذكّر بحقوق وطنه مصر وبأن بين هذه الآمال التي حقّقت وبين آمال أهل مصر معان تُدرى وأهداف تعلم.

وفي هذه الحقبة التي نؤرخ لها يتنادى بعض الأتراك لتأليف حزب (تركيا الفتاة) ويأخذ هذا الحزب على عاتقه أن تكون الدولة تركية، وتعمل على تتريك المملكة جميعها وفي هذا ما به من انفصام عرى الوحدة بين الأمة العربية والأتراك، ومن ثم يوحي بالقضاء رويداً رويداً على الإسلام، نتيجة للقضاء على لغة الضاد التي تجمع بين المسلمين جميعاً في شتى بقاع الأرض.

وبهذه المناسبة يقدم شوقي تحية حبّ وإعزاز للأتراك مذكّراً إياهم أن عليهم واجباً تجاه أمّتهم الإسلامية، وهو القيام بحماية الدولة، ويستنكر عليهم تثبيط عزائمهم عن أداء الواجب عازياً ذلك إلى أنهم تخموا من كثرة ما فتحوا من الأمصار وما قهروا من الممالك، مؤكداً أن هذه الدنيا تتصارع فيها البرايا، فمن لم يكن ذئباً أكلته الذئاب، كما يطلب إليهم أن يكون العلم رائدهم؛ كي يبنوا دولتهم وحضارتهم على أسس علمية سليمة.

ويتوجه لشباب الأتراك بالتحية والإجلال موضحاً أنهم أمل الأمة في غدها المشرق ومجدها المبتسم، وفي كل مناسبة لا ينس شوقي أن ينوه أن مصر تُحِلُّ الأتراك في قلبها وتقدم لهم آيات الودّ والمحبة، مؤكداً أن الرابطة التي بين المصريين والعثمانيين

تتجاوز حدود الرابطة العضوية والأخوة الآنية، وإنما هي رابطة دائمة تتمثل في توحيد اللغة العربية وفي اشتراك الأمّتين بتقديس الحرم والبيت، فضلاً عن انتماء كليهما إلى الشرق، ويتوج كل هذه الوشائج الرابطة الإسلامية ويدعو الأتراك إلى أن تكون اللغة العربية العامل المشترك بين هاتين الأمّتين.

ويشير شوقي بطرف خفيّ إلى حزب تركيا الفتاة داعياً لهم أن يبتعدوا عن هذه الأسماء فلا تركيا الفتاة ولا تركيا العجوز، ولكن لتكن تركيا القديمة التي انسابت خلال الديار تجوسها وتفتحها وتبني وتوطد أركان مملكة سادت العالم وهزّت عروش العديد من الممالك في الشرق والغرب، تركيا المسلمة التي كانت رايتها في الخافقين واتسعت رقعتها لتشمل ثلاث قارات، وما ذاك إلا لأنَّ سيفها كان هو السيف الصلد في المعارك وعدلها هو الذي طوق جيد الإسلام بالنِّعَم.

نرى كل هذه المعاني الإسلامية واضحة في قوله من قصيدة بعنوان «تحية للترك»[1]:

الدهر يقظان، والأحداثُ لم تَنمِ

فما رقادُكم يا أشرف الأمم؟

لعلكم من مِراس الحربِ في نَصَبٍ

وهذه ضجعةُ الآساد في الأَجَم[2]

---

(1) الشوقيات/ ج١/ ٢٢٥-٢٢٦.

(2) مراس الحرب: مزاولتها. النَّصَب: التعب. الضجعة: الرقدة. الآساد: جمع أسد. الأجم: جمع أجمة، وهي الشجر الملتف.

لقـد فتحـتم فأعرضـتم عـلى شِـبَعٍ
والفـتح يعـترض الـدولات بـالتُّخَمِ

***

وأصـبحَ العلـمُ رُكْـنَ الآخـذينَ بـه
مـن لا يُقِـمْ رُكْنَـهُ العرفـانُ لم يَقُـمِ
يـا فتيـةَ الـتُّرْكِ، حيَّـا اللهُ طلعَـتكم
وصـانكم، وهـداكم صـادق الخِـدَمِ
أنتم غَـدُ الملـك والإسـلامِ، لا بَرِحـا
مـنكم بخـيرِ غَـدٍ في المجـد مُبتـسم
تُحِلُّكُـمْ مـصرُ منهـا في ضـمائِرِهَا
وتعلـنُ الحـبَّ جَمًّـا غـير مُـتَّهَم
فـنحن -إن بَعُـدَتْ دار وإن قَرُبَـتْ-
جاران في الضَّادِ، أو في البيـت والحـرم
ناهيكَ بالـسببِ الـشرقيِّ مـن نَـسب
وحبَّـذا سـببُ الإسـلامِ مـن رَحِـم[1]

فـلا تَكُـونُنَّ «تركيـا الفتـاة»، ولا
تلـك العجـوزَ، وكونـوا تركيـا القِـدَم

(1) ناهيك: مِن الأغلاط الشائعة، الأصح أن نقول: أضف إلى ذلك. (مِن الكتابة والتعبير / ١٣٥ - د. إبراهيم صبيح وآخرون.

فـــسيفُها ســـيفُها في كـــل معـــترك
وَعَـــدْلُها طـــوَّقَ الإســـلامَ بـــالنِّعَمِ

الأسطول العثماني:

حرصاً من الدولة العلية على إبقاء قواتها المرابطة على حدودها قوية منيعة، ومحاولة منها لتقوية مركز السلطة الإسلامية ولرد كيد المعتدين في نحورهم، فقد قامت بتدعيم قواتها البحرية وتعزيز أسطولها ببارجتين كبيرتين اشترتهما من ألمانيا، وقد صادف وجود شاعرنا في الآستانة فشاهد هاتين البارجتين وهما تدشنان بالمياه التركية، وعزّ عليه أن تتحمل تركيا ما تتحمل، وتعاني ما تعاني في سبيل تقوية حدودها وتسليح جيوشها في حين يرى المسلمين قاعدين عن مساعدة أسطول الدولة الذي هو حماية لهم، فإذا به يصرخ بهذه القصيدة المعبرة مادحاً الخليفة محمد رشاد مشيداً بدولته العتيدة، وأنها دولة قائمة على العدل بين الرعايا المسيحيين واليهود جميعاً، حتى أن هاتين الطائفتين قاتلت معه أعداءه بإخلاص وذلك لما كان يتحلى به من عدل ومحبة من الرعايا جميعاً.

ويشيد برعيته قائلاً أنهم ورثة أهل بدر الذين لا يخشى عليهم الإظلام إذا ما جاء موعد المحاق كما يشيد بالخليفة وأنه سليل عشرين خليفة، كلهم غر بلج ينتسبون لأبناء الملوك.

وفي هذه المناسبة يخاطب الخليفة طالباً منه أن يزيد من بأس قواته ضارباً المثل بأن الذئب قد يداس في البراري؛ لضعفه، ولكن الأسدَ يُهاب بالرغم من وجوده في

القفص مقيداً، هذه كناية لطيفة عن قوة الدولة العثمانية ودعوة لاستمراريتها -ثم ينطق بالحكمة الخالدة- الحكمة التي كانت وما تزال درساً عسكرياً صحيحاً إلى يوم الدين.

والحَقُّ ليس وإن عَلا بِمُؤَيَّدِ
حتى يَحُوطَ جانِبَيْه حُسَامُ

إن الحق مهما كان أبلج واضحاً لن يحظى بالتأييد والقبول ما لم تحط القوة والصرامة هذا الحق، وتحرسه والتي تعطيه الوسيلة للمطالبة بإعادة هذا الحق إلى نصابه إذا ما اعتوره اعتداء أو اعتراه ضيم، ويضرب مثلاً بذلك أن رسول الله ﷺ أخذ هذا الأمر على وجوهه جميعها، ففي الوقت الذي خط فيه خندقاً للدفاع عن المدينة مشى حواليه يحوطه بالقوة والقنا والسهام، ويشير شوقي إلى قاعدة عسكرية معروفة وهي أن قوة الأمة ليست بما تملك من سلاح وعتاد وإنما تنبع القوة ممن يستعملون هذا السلاح، مركزاً بذلك على أهمية العنصر البشري.

نلاحظ كل هذه المعاني العذبة والشعور الإسلامي يتأجج في صدر شوق وهو يردد في قصيدته[1]:

هزّ اللِّواءَ بعزِّك الإسلامُ
وَعَنَتْ لقائمِ سَيْفِك الأيامُ

(1) الشوقيات/ ج١/ ٢٢٦-٢٢٧.

وانقـادت الـدنيا إليـك، فحـسبُها

عـذراً قيـادٌ أسلَـسَتْ وزِمَـام

عـرشُ النبـي محمـدٍ جَنَـبَاتُه

نـورٌ، ورَفْرَفُـهُ الطَّهـورُ غَـمام

لمـا جَلَـسْت سـما وعـزَّ، كـأنما

هـارونُ وابنـاه عليـهِ قِيَـامُ

حمـل (الـصليبُ) إليـكَ مـن فتيانـه

جنـداً، وقاتـل دونـك (الحاخـامُ)

والـدين لـيسَ برافـعٍ ملكـاً إذا

لم يبـدُ للـدُّنيا عليـه نظـام

البحـرُ محـشودٌ والبـوارجُ دونَـه

والـبَرُّ تحـتَ ظِلالـه آجـام

بـالله قـد دان الجميـع وشـأنهم

بـالله ثـم بعرشـك استعـصامُ

يـا ابـن الـذين إذا الحـروب تتابَعَـت

صَـلَّوْا عـلى حَـدِّ الـسيوفِ، وصـاموا

المظهـــرينَ لنـــورِ «بَـــدْرٍ» بعـــدما

خيـــفَ المحَـــاقُ عليـــه والإِظْـــلَامُ[1]

عُـــشرونَ خاقانـــا نَمَـــوْكَ وعَـــشرة

غـــرُّ الفتـــوح خلائـــفٌ أعـــلام[2]

نَـــسَبٌ إذا ذُكِـــر الملـــوكُ فإنـــه

لِرَفيـــع أنـــسابِ الملـــوكِ سَـــنَام

زِدْهُـــم (أمـــيرَ المـــؤمنينِ) مـــن القُـــوَى

إن القُـــوى عـــزٌّ لهـــم وقَـــوَام

والحـــق لـــيس -وإنْ عـــلا- بمؤيَّـــد

حتـــى يُحَـــوِّطَ جانبيـــه حُـــسام

خـــطَّ النبـــيُّ براحتيـــهِ خَنْـــدقاً

ومـــشى يُحـــيط بـــه قَنـــاً وسِـــهَام

مـــا الـــسفن في عـــدد الحـــصى بنوافـــع

حتـــى يَهِـــزَّ لِوَاءَهـــا مِقْـــدام[3]

---

(1) المحاق: آخر الشهر حيث يمحق نور القمر.

(2) الخاقان: كل ملك من الأتراك.

(3) الشوقيات/ ج١/ ٢٢٩.

وسألتُ هـل مـن (لؤلـؤ) أو (طـارق)

في البحـر تخفُـقُ فوقَـه الأعـلام[1]؟

ثـم تخلـص شـوقي إلى غايتـه وهـي دعـوة المـسلمين للتـبرع والمـساهمة في بنـاء الأسطول العثماني.

فيقول[2]:

يـا معـشرَ الإسـلام في أسـطولِكم

عِـزٌّ لكـم، ووقايـة وسـلام

جـودوا عليـه بمالكـم، واقـضوا لـه

مـا توجـبُ الأَعـلاقُ والأرحـام

لا الهندُ قد كَرُمت، ولا مِصْرٌ سخت

والغـربُ قـصَّر عـن نَـدىً، والـشام

سـيلُ الممالـكِ جـارفٌ مـن شـدَّةٍ

وقُـوىً، وأنـتم في الطَّريـق نِيَـام

حـبُّ الـسيادة في شـمائلِ ديـنِكُم

والجِـدُّ روحٌ منـه والإقـدام

---

(1) لؤلؤ هو حسام الدين لؤلؤ -أمير الأسطول المصري في الحروب الصليبية-.

طـارق: هـو طـارق بـن زيـاد -بطـل الأنـدلس الـشهير-. اسـتدعاء لشخـصيات الإسـلام من القادة.

(2) الشوقيات/ ج١/ ٢٣٠.

والعلـــمُ مـــن آياتـــه الكـــبرى إذا

رجعـــــت إلى آياتِـــــهِ الأقـــــوامُ

وهو يعجب من موقف الممالك الإسلامية، فلا الهند جادت بما لديها بالرغم من عددها وسعتها ولا مصر سخت بأموالها، وكذا ينطبق الحال على الغرب الإسلامي والشام الذي قصّر في تقديم العون والمساعدة، وإذا كان سيل الممالك جارفاً لما يعترض سبيله، فإنه يعجب لنوم المسلمين عن أن يهبّوا للمساعدة والوقوف أمام هذا السيل الاستعماري الجارف الذي يتكالب على الإسلام صارخاً فيهم مذكراً إياهم أن حب السيادة والسؤدد هما من دعوة الإسلام، وأن روح الجديّة والعزم والإقدام هم من شمائل هذا الدين، جنباً إلى جنب مع الأخذ بالأسس العلمية السليمة، وهذا واضح بالرجوع إلى القرآن الكريم ودراسة آياته التي تحض على العلم والأخذ به منهاج حياة وخطة عمل. ويقول شوقي في ختام قصيدته الطويلة في الوقائع العثمانية اليونانية[1]:

وإني لطـــيرُ النيـــلِ، لا طـــيرَ غـــيرهُ

ومـا النيـلُ إلاَّ مـن رياضِـكَ يُحْـسَبُ

إذا قلـــتُ شـــعراً فـــالقوافي حـــواضر

وبغـــدادُ بغـــدادٌ ويثـــربُ يثـــربُ

فلا زلتَ كَهْفَ الدِّينِ، والهادي الذي

إلى اللـــــهِ بـــــالزُّلْفى لـــــهُ نَتَقَـــرَّبُ

(1) الشوقيات/ ج١/ ٥٨، الاتجاهات الوطنية/ ج١/ ٣٣.

في هذه النفحة الرائعة يعلن للناس أجمعين أنه ينتسب لوادي النيل معتزّاً بهذا الانتساب مشبهاً نفسه بطائر، وما أحلى أن يكون الشاعر طائراً، تنساب من فيه أغنية عذبة وأنشودة حالمة خاصة، وهي أغنية لوطنه، وأنشودة تملأ رباه ووديانه بالتسبيح بعظمة هذا الوطن. وإذا كان لهذا الوطن من كبير إعزاز وعظيم إجلال، فإنه من الرياض التابعة للباب العالي، إنه روضة من رياض الخلافة، ولا يفوته أن يدعو الله ضارعاً أن يبقى الخليفة كهفاً للدين حامياً وحارساً يقظاً على سلامته هادي الناس ومرشدهم كونه ظل الله في الأرض بعد أن رفعت شعلة النبوة، وختمت الرسالة، وقد بلغ مركز الخليفة من نفسه موقعاً كبيراً حيث يتقرب إلى الله بتقربه من الخليفة، وما ذاك إلا كون الخليفة قائماً على بيضة الدين، مطبقاً حكم الله في الأرض، وهذه صورة من أروع الصور يتجلى بها أن حب الخليفة من حب الله، إذ هو يتوب إلى الله بالطاعة للخليفة، ونرى أثر القرآن الكريم واضحاً في شعره وإن لم يصرح به.

وإذا كنا نعرف عن شوقي حرصه هذا الكبير على الخلافة الإسلامية وحدبه عليها وتنصيبه نفسه حامياً لها ذاباً عن حرمتها، سيفاً صليتاً مشهوراً في وجه من سولّت له نفسه الاعتداء عليها، فإن هذا الحرص يتجلى في أدق صوره وأبرز ملامحه عندما وصلت الفتنة إلى أرض النبوة، الأرض التي بزغت منها شعلة الإسلام ومنها انطلق مارداً جباراً يحرر الإنسانية من العبودية لغير الله ومن الجور المحدق به، ومن الرذيلة التي يرتكس ويتردى في حمأتها فإذا به يرفع عقيرته مستغيثاً بالخليفة شاكياً له حال الحجاز وما سرى فيه من فوضى، وما حلّ ربوعه وروابيه من اختلال لحبل الأمن، وفي هذا ما به من استهانة لسلطان الخليفة وتشجيعاً للآخرين على الاحتذاء بذلك مشيراً إلى أن على الخليفة أن يهب دون توان لتأديب الثائرين على الإسلام

وتلقينهم درساً لا ينسوه دون أن تأخذه بهم شفقة أو رحمة وإن كانوا يدعون ظلماً أنه تربطهم بالرسول وشيجة من القربى وعرى النسب، فيقول من قصيدة «ضجيج الحجيج»[1].

ضج الحجاز وضج البيت والحرم
واستصرخت ربها في مكة الأمم
قد مسّها في حماك الضر فاقض لها
خليفة الله أنت السيد الحكم
لك الربوع التي ريع الحجيج بها
أللشريف عليها أم لك العلم
أهين فيها ضيوف الله واضطهدوا
إن أنت لم تنتقم فالله منتقم
أدبه أدب -أمير المؤمنين- فما
في العفو عن فاسق فضل ولا كرم
لا ترج فيه وقاراً للرسول فما
بين البغاة وبين المصطفى رحم

(1) الشوقيات ج١/ ٢١١، والتي رفعت إلى السلطان عبد الحميد استصراخاً من الشريف وأعوانه في ١٤ إبريل نيسان سنة ١٩٠٤، (وهذا حسب رأي الشاعر).

مـا كـان طـه لـرهط الفاسـقين أبـا

آل النبـــي بـــإعلام الهـــدى ختمـــوا

لا تجزهم منك حلماً[1] واجـزهم عنتـاً

في الحلـم مـا يـسم الأفعـال أو يـصم

كفـى الجزيـرة مـا جـروا لهـا سـفهاً

ومـــا يحـــاول مـــن أطرافهـــا العجـــم

فجـرد الـسيف في وقـت يفيـد بـه

فـــإن للـــسيف يومـــاً ثـــم ينـــصرم

ونلاحظ أن الشعراء المسلمين وبوجه خاص في مصر كان يثور فيهم إحساسهم وشعورهم الإسلامي في كل نازلة تصيب الخلافة، فلا غرو أن نجدهم يشعرون بالعزّة والحماسة عندما يصيب المسلمين نصراً، نستمع إلى شوقي وهو يدبج ملحمته الرائعة عندما انتصر الأتراك على اليونان سنة ١٨٩٧ وهي تفيض بالقوة وتنبض كلماتها بالحماسة والزهو، وانثالت المعاني المعبرة عن الفرحة والشعور المتدفق الفياض على لسانه انثيالاً، ودون تكلف، بل انسابت الكلمات على لسانه طوع الخاطر؛ لأنها صادرة من قلب مفعم بحب الإسلام والمسلمين، وليس بها تكلف أو صنعة. إنه يرى نصر الأتراك نصراً للإسلام أنَّى كان.

---

(1) جناس بديع.

فيقول بالوقائع اليونانية التركية في قصيدته تحت عنوان (صدى الحرب)[1]:

بسيفك يعلو الحق؛ والحقُّ أغلب

ويُنْصَرُ دينُ الله أيانَ تضرِبُ

وما السيف إلا آيةُ المُلْكِ في الورى

ولا الأمر إلا للذي يتغلب

فأَدِّبْ به القومَ الطغاةَ فإنه

لنِعْمَ المُرَبِّي للطغاةِ المُؤَدِّبُ

ومملكة (اليونان) محلولةُ العُرى

رجاؤك يعطيها وخوفك يسلب

وما زال فجراً سيفُ (عثمانَ) صادقاً

يساريه من عالي ذكائك كوكب

وفي هذه الملحمة يشيد بانتصار الترك الذين أعلوا راية الإسلام وصانوا خلافته، فارتفعت رؤوس المسلمين وكانوا من قبل ينكسونها خجلاً[2].

رفعنا إلى النجم الرؤوس بنصركم

وكنا بحكم الحادثات نُصَوِّبُ

---

(1) الشوقيات ج١/ ٤٢.

(2) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر (ص٤٣).

ومـن كـان منـسوباً إلى دولـةِ القَنـا

فلـيس إلى شيء سـوى العِـزِّ يُنْـسَبُ

إنها كلمة لطيفة عبّر بها شوقي عن الخلافة بدولة العـز والمنعـة، وحُـقَّ لمـن كـان ينتسب لمثل تلك الدولة العتيدة ألا يرى الذل ولا يذوق له طعـماً، بـل إنـه ليزهـو في ثياب العزّ والسؤدد ولا ينسب إلا لها، مرتدياً زيّها.

الانقلاب العثماني وسقوط السلطان عبد الحميد

ويلغي عبد الحميد الدستور الذي أصدره بعد حملة صحفية شنعت بزعماء الاتحاديين وبينت فساد دينهم، ويثير الاتحاديون فتنة في الجيش ويقتحمون بقواتهم الآستانة ويحاصرون قصر الخلافة، ويسقط القصر في أيديهم ويمثلون بأعوان الخليفة، ثم يعلنون عزله عن الخلافة، وما زلنا ليومنا هذا الذي نعيش نعاني من سوء تصرف هؤلاء المارقين الخونة الذين أطاحوا بالخلافة وهدموا بهدمها الإسلام بمعاول قوية خاصة، وقد تكشف الآن أن ما قام به الاتحاديون ما هو إلا عملية غريبة عن الإسلام كغربتهم عنه خطّط لها، ودبّر الكيد للإسلام والقضاء على خلافته، لأنها كانت الرمز الذي يجمع حوله الأمة من مشرقها إلى مغربها، ونحن أولاء نرى أنه بالرغم من المحاولات العديدة التي تمّت لإحياء الخلافة إلا أنها جميعاً باءت بالفشل، لأنها تحارب من دول الكفر ويرصد لمحوها -حتى من الأذهان ملايين الجنيهات والدولارات-.

وإذ عزل عبد الحميد ترتفع أصوات الشعراء بين مشفقين عليه وراثين له، وعندها ينطلق البلبل الحبيس من قفصه وينفث من صدره أنات الحزن ودموع الرثاء الواهة تسيل من عباراته اللوعة والحسرة والأسف وهي تقطر لوعة وكمداً، فيقول في قصيدته المشهورة:

سـلْ «يلـدزاً» ذات القـصور

هـل جاءهـا نبـأُ البـدور[1]؟

---

(1) الشوقيات/ ج١/ ١١٩ (يلدز في لغة الترك اسم نجم، وقد سمي به قصر عظيم في الآستانة كان يسكنه السلطان عبد الحميد إبان ملكه، والمخاطب بقوله سل يلدزا .. الخ هو السلطان).

لـــــو تـــــستطيع إجابـــــةً

لبكتـــــكِ بالـــــدمع الغزيـــــر

أخنـــــي عليهـــــا مـــــا أنـــــا

خَ عـــــلى الخورنـــــق والـــــسدير[1]

إلى أن يقول[2]:

شـــــيخ الملـــــوك وإن تـــــضع

ضـــــع في الفـــــؤاد وفي الـــــضمير

نـــــستغفر المـــــولى لـــــه

والله يعفـــــو عـــــن كثـــــير

وتـــــراه عنـــــد مـــــصابه

أولى ببـــــاك أو عـــــذير

ونـــــصونه ونجلـــــه

بـــــين الـــــشماتة والنكـــــير

عبـــــد الحميـــــد حـــــساب

مثلـــــك في يـــــد الملـــــك الغفـــــور

---

(1) الخورنق: مقر كان بالحيرة في العراق للملك النعمان الأكبر أحد ملوك بني المنذر.

السدير: مقر بالحيرة للمناذرة.

(2) الشوقيات/ ج١.

وعلى الرغم من إشفاقه عليه وحدبه في محنته وما آل إليه من ذل بعد عز، فإنه يتوجه إليه باللوم الخفي لتمسكه بالحكم الفردي دون الشورى الذي هو حكمة الملك الرشيد، وعصمة الملك الفريد. وفي هذه الفترة يظن شوقي لوقت ما أن الثوار ما قاموا إلا لنصرة الحق، وغابت عنه دسائسهم الدنيئة ودوافعهم الخسيسة، إذ ليسوا إلا منفذين لخطط أسيادهم فيشيد بهم، وكنت أتمنى ألا أجد بديوانه مثل هذا الثناء العطر لهذه الفئة الباغية، خاصة وهو شاعر الخلافة الذي وقف نفسه بحق عليها، فيقول[1]:

يـــا أيهـــا الجـــيش الـــذي
لا بالـــــدَّعِيِّ، ولا الفَخُـــــور
يخفـــى، فـــإن ريـــع الحمـــى
لفَـــــتَ البريَّـــــةَ بـــــالظُّهور
كالليـــثِ، يُـــسْرف في الفِعَـــا
لِ، ولـــيس يـــسرفُ في الـــزئير
الخاطـــب العليـــاء بالـــ
أرواح غاليـــــةِ المهُـــــور
عنـــد المهـــيمن مـــا جـــرى
في الحـــقِّ مـــن دَمِـــكَ الطَّهـــور

(1) الشوقيات ج١/ ١٢٣.

وهو إذ يخاطب الجيش مادحاً لقوّاده، فما ذاك إلا لكونه حامياً لأرض الإسلام، رادّاً عنه كيد العدى، ولكن عندما انحرف الجيش عن الطريق السوي، وقف أمامه كالطود الأشم مسفهاً أحلامه وخططه.

وفي عام ١٩٢٤ قام مصطفى كمال (أتاتورك)[1] بإلغاء الخلافة ونفى الخليفة من البلاد التركية؛ مما كان له صداه العميق في العالم الإسلامي الذي تصور أن الخلافة ذاتها جزء لا يتجزأ من العقيدة الإسلامية، ونظم شوقي قصيدة بعنوان «خلافة الإسلام» بدأها يقول: (عادت أغاني العرس رجع نواح) رثى فيها الخلافة ونبّه الممالك الإسلامية إلى إسداء النصح لأتاتورك علّه يعيد الخلافة، دون أن يهاب من ساكن يلدز الجديد، ذلك أن داعيه لبث مشاعره بعد حرصه على الخلافة الإسلامية التي تمثل بنظره الإسلام، المدافعة عن حماه، والمنافحة عما يلم به من أحداث[2]:

عـادت أغـاني العـرسِ رَجْـعَ نُـوَاح
ونُعيـــتِ بـــين معـــالم الأفـــراح
الهنـــد وآلهـــة، ومـــصرُ حزينـــةٌ
تبكـــي عليـــك بمـــدمعٍ سَـــحَّاح

---

(1) جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب ج٢/ ٢٣٧-٢٤١، لقب بداية في الغازي قبل الوقوف على مآربه الحقيقية في إلغاء الخلافة، راجع الرجل الصنم.

(2) الشوقيات ج١/ ١٠٦.

نَضَوْا: خلعوا، الوشاح: شبه قلادة ينسج من جلد عريض، ويرصع الجوهر، فتشده المرأة بين عاتقها وكشحها.

والـشامُ تـسأل، والعـراقُ، وفـارسٌ

أَمَحَـا مـن الأرض الخلافـةَ مـاح؟

نزعـوا عـن الأعنـاقِ خـيرَ قـلادةٍ

وَنَـضَوْا عـن الأعْطـافِ خـير وِشـاح

وبذا ينتفي كل ادّعاء مغرض أن شوقي إنما كان يصدر في شعره وعواطفه عن مصلحة القصر وحسب، ولا يخالجنا أدنى شك أو ريب أنه كان يصدر في أشعاره عن عاطفة دينية متوهجة تفيض بالإيمان وتمتلئ بالإسلام وحبّه، وبالخلافة والحرص على ديمومتها وبقائها نقية، بعيدة عن عبث العابثين، وإذا كان المسلمون في أقطارهم كافة يرون أن الخلافة هي جزء متمم للعقيدة، فإننا كمسلمين -ما زلنا نراها كذلك- مهما حاولت دول الكفر وأنظمة الحكم السائرة في ركابها أن تبعدنا عن الخلافة. إن الخلافة هي مصدر قوّة الأمّة الإسلامية وبدونها لن تقوم للإسلام قائمة، وقد أثبتت الأيام ذلك.

إن المسلمين اليوم يربو تعدادهم على المليار مسلم موزعين على شتّى بقاع العالم، ولكن هل تساءلنا ما فائدة هذا التعداد الهائل؟ نجيب والأسى يشيّعنا والحزن يعتصر قلبنا، لا فائدة!! بل الحقيقة أن كثرة التعداد هذه مثار سخرية الآخرين للمسلمين، وموضع استهزاء بهم، إذ أن الكثير ممن يجهلون الإسلام يظنون أن ما يرونه اليوم من أنظمة وتشريعات تطبق في البلاد الإسلامية من أنظمة الحكم هي الإسلام ولكنهم لا يعلمون أن هذه التصرفات ليست من الإسلام في شيء، أقول إن تعداد المسلمين الحالي ليس لصالح الإسلام بل مثار هزء مرير. فكثير من الأجانب يسخرون منا

كمسلمين بما يرونه من واقع المسلمين المتردي خاصة، وأن أربعة ملايين نسمة من شراد الآفاق الأفاكين يحتلون أقدس بقعة إسلامية، حرقوا الأقصى واستهانوا بالحرمات دون أن تحرك هذه الأعمال الشائنة ضمائر المسلمين ودون أن يضعوا حيالها حرا، ولكن اكتفوا بقرارات مجلس الأمن والشكاوى لدى هيئة الأمم التي صنعت إسرائيل وغرستها خنجراً مسموماً في جسم الأمة الإسلامية. إن هؤلاء الأجانب لا يعرفوا أننا مسلمون بشهادة الميلاد، وأن الإسلام يبكي ويئن ويستصرخ أهله صباح مساء للتحرك لدك حصون الكفر وتمزيق الأصنام المتحكمة في رقاب المسلمين -وما ذلك على الله بعزيز-.

ومع نهاية عام ١٩١٢ يضطرب حبل الأمن في شرق أوروبا، إذ تثور بلغاريا والصرب والجبل الأسود مطالبة بالاستقلال، وتقوم اليونان مطالبة بجزر الأرخبيل، فتضطر تركيا لإعلان الحرب على هذه الدول مجتمعة وعندها تنشط مصر في القيام بواجبها: الديني والوطني، فتؤلّف الجمعيات الخاصة بجمع التبرعات، وتتنازل تركيا عن جزر الأرخبيل وأدرنة أثر مؤتمر لندن الذي استمر لغاية ٢٣ يناير كانون الثاني ١٩١٣، وعندها يثور حزب الاتحاد على الوزارة التركية ويسقطها ويستأنف القتال، ويبدأ بانتصاره على العدو، إلا أن هذا النصر ما لبث أن انتكس وتسقط أدرنة وتتقدم جيوش البلقان، ولم يعد يعترض طريقهم إلى الآستانة شيئاً. ويرتكب جنود الكفر جرائم بشعة في الانتقام من السكان العزل المسلمين[1].

وأمام هذه الانتكاسة التي انتكسها الدولة في هذه الزاوية من الدولة الإسلامية

---

(1) حرب البلقان/ ١٧٧.

يجلجل صوت شوقي بقصيدة من أروع قصائده يربو عدد أبياتها على المائة، وفيها يندب مجد الإسلام الزائل، وقد ذكَّره ضياع هذه المنطقة من الدولة الإسلامية بضياع وانهيار سلطان الإسلام عن الأندلس العزيز، الأمر الذي حداه لتسميتها باسم (الأندلس الجديدة).

وكم من أندلس ضاع على الإسلام وما هذا الضياع لهذه الأراضي والمواطن الإسلامية إلا لترك المسلمين العمل بالدين وراء ظهرانيهم، ولعدم تبنيهم الإسلام حكماً ونظاماً في سياسة بلادهم، فما انتصر العرب والمسلمون يوماً بكثرة عددهم وعدّتهم، وإنما انتصروا دائماً بالإسلام وبالإسلام فقط ليس إلا ....

لنصغ إليه وهو يردد أناته بحزن وقلبه ينفطر ألماً يمزق الأحشاء لأنه مواطن مسلم عزّ عليه وشقّ على قلبه أن تهوي الخلافة وأن يتوقف الأذان فوق مساجد المسلمين في تلك الديار التي كان يعمرها ذكر الله ويجلجل صوت المؤذن صباحاً ومساءً في آفاقها، فيقول من قصيدة بعنوان «الأندلس الجديدة»[1]:

يا أخت أندلس، عليكِ سَلامُ

هوتِ الخلافةُ عنكِ والإسلام

نزل الهلال عن السماء فليتها

طويت، وعمَّ العالمين ظلام

---

(1) الشوقيات ج١/ ٢٣٠-٢٣٩.

أزرى بـــه، وأزالـــه عـــن أوجِـــهِ

قَـــدَرٌ يَحُـــطُّ البـــدرَ وهـــو تمـــام

جرحـــان تمـــضي الأمتـــان علـــيهما

هـــذا يـــسيل وذاك لا يلتـــام[1]

بكـــما أصـــيب المـــسلمون وفـــيكما

دُفِـــنَ الـــيَرَاعُ وغُيِّـــبَ الصَّمْـــصام[2]

لم يُطْـــوَ مأتمُهَـــا، وهـــذا مـــأتَمٌ

لبـــسوا الـــسوادَ عليـــكِ فيـــهِ وقـــاموا

ما بين مصرعها ومـصرعِكِ انقـضت

فـــيما نُحِـــبُّ ونكـــرَه الأيـــام

خلـــت القـــرون كَلَيْلَـــةٍ وتـــصرَّمت

دُوَلُ الفتـــوحِ كأنَّهـــا أحـــلام

---

(1) جرحان: خروج أدرنة من أيدي المسلمين، والثاني: خروج الأندلس من أيديهم.
الأمتان: العرب أيام نكبة الأندلس، والترك أيام ضياع أدرنة.

(2) اليراع: القلم. الصمصام: السيف.

في هذه القصيدة العصماء يخاطب البلقان واصفاً إياها بأخت الأندلس الشقيقة التي افتقدها المسلمون أيام ضعف حكامها وتفرقهم وتشتت كلمتهم وانغماسهم بالشهوات إلى أذقانهم وتلهيهم بتوافه الأمور عن جلائلها ومعاليها، حتى بات الواحد منهم يستعين بالأجنبي على أخيه، وكان أن اضطروا إلى الجلاء عن تلكم البلاد العامرة بعد أن ذبح من ذبح كالنعاج، وكان من شدّة القوط على المسلمين أنهم لم يبقوا منهم صريخاً أبداً. وبذا انتفى الإسلام عن تلك الديار وبات غريباً عنها بعد أن كانت تسبح بآلاء الله وذكره من على منابر مساجدها السامقة وكانت مآذنها تعانق الغمام وتباري النجوم. لقد أصاب البلقان ما أصاب الأندلس من انتكاسة، ومصيبتنا اليوم أعظم !! فهناك أندلساً أعزّ افتقد واجتث من أرض العروبة والإسلام هو فلسطين تلك الفردوس الغالية، فهل سنبقى نرثي ونعدد بالأندلسات تفتقد وتقتطع ونحن مقدورون مبهوتون دون أن نعي واجباتنا ونلتزم مسؤولياتنا ودون أن نفكر ولو لحظة بالعودة إلى الله والتمسك بحبله المتين الذي ينجي كل من تمسك به واعتصم.

إن شوقي وقد بلغ به التأثر والأسى فيه مبلغه، يذكر أن على تلك البقاع اليانعة السلام، سلام المودع، خاصة وقد رأى الخلافة تهوي عنه بشدة واتّحى الإسلام منها كطابع رسمي وهنا يلفتنا تعبيره بكلمة (وهوت) لشدة الهول وفزاعة الفادحة وجلال الرزء والكريهة التي حلّت بها بهذا الانحطاط إلى الهوة السحيقة من عل.

إنه يشبه تلك البقاع وقد خلا أو تخلى عنها الإسلام بالهلال، وقد هبط من علياء سمائه، ويتمنى أن تكون السماء قد طويت وعم العالم الظلام الحالك الدامس مشاركة منها بالمأتم الذي حلّ بتلك الديار، ولا ينسى أن ينوه أن هاتين النازلتين ما هما إلا

جرحان عميقان أصابا الأمة العربية والإسلامية في سويداء الصميم، فهذا ما زال ينزف دماً حاراً وذاك ما زال مفتوحاً لم يلتئم بعد، بالرغم من مرور ستين عاماً على ما يسمى بالنكبة.

في هاتين الكارثتين أصيب الإسلام في عقر داره وفي الصميم وفيهما دفن اليراع وما ينساب من لعابه وما يبثه من علوم وآداب، وغيب السيف، سيف الجهاد واحتمى بغمده وزوى نفسه في اللحد. ومما زاد الكارثة هولاً وفداحة أن المأتم الذي شهدته الأمة الإسلامية بفقدها الأندلس ما زال قائماً لم يطو بعد، إذ يلحق به مأتماً آخر، فما كان يخيل للمرء إلا أن ذلك من قبيل الهجمة على الإسلام.

وقبل أن يختم القصيدة يعرج شوقي إلى جماعة حزب الاتحاديين الذين كانوا يرون أن منطقة البلقان ما هي إلا مصدر متاعب ومثار قلاقل للدولة، وعليها التخلي عنها، فيقول موجهاً خطابه لهم متهكماً منهم، مسفّهاً لرأيهم[1]:

زعمـوكِ همّـاً للخلافـةِ نَاصِـباً
وهـل المالـكُ راحـةٌ ومنـام؟

ويقـول قـومٌ: كنـتِ أَشْـأَمَ مَـوْرِدٍ
وأراكِ سـائغةً عليـكِ زِحـامُ
ويـراك داءَ المُلْـكِ نـاسُ جَهالـةٍ
بالمُلْـكِ مـنهم عِلَّـةٌ وسَـقَامُ

*****

(1) الشوقيات ج١/ ٢٣٢.

لـو آثـروا الإصـلاحَ كنـتِ لعرشِـهم

ركنـاً عـلى هـام النُّجـومِ يُقـامُ

وَهْـمٌ يُقَيِّـدُ بعـضهُم بعـضاً بـه

وقيـودُ هـذا العـالمِ الأَوْهَـامُ

صُـورُ العَمـى شَـتَّى، وأقبحُهـا إذا

نظـرتْ بغـير عيـونِهِنَّ الهَـامُ

(يقول إن من أقبح العمل أن يسيطر الوهم على الإنسان فيرى الأشياء كما يصورها له وهمه لا كما تراها عينه التي في رأسه وكما هي في الواقع)[1].

ويتابع شوقي قصيدته إلى أن يقول:

«عيـسى» سـبيلُك رحمـةٌ ومحبـةٌ

في العـالمين، وعـصمة وسـلام[2]

مـا كنـتَ سـفّاكَ الـدِّماء، ولا امـرأً

هـان الـضِّعَافُ عليـه والأيتـام

يـا حامـلَ الآلامِ عـن هـذا الـوَرى

كَثُـرَتْ عليـه باسـمِكَ الآلام

---

(1) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ج١/ ٥٧.

(2) الشوقيات ج١/ ٢٣٤.

أنــت الــذي جعــل العبــادَ جَـميعَهُم

رَحمــاً، وباســمك تُقْطَــعُ الأرحــام

واليــومَ يهتــفُ بالــصَّليبِ عــصائِبٌ

هــــم للإلَــــه وروحِــــه ظُــــلَّام

خلطــوا صــليبكَ والخنــاجِرَ والمُــدى

كــــلٌّ أداةٌ لــــــلأذى وحِمَــــامُ

في هذه الأبيات يبين كيف اجتاحت جيوش البلقان المدن والقرى والتهمتها التهاماً، حتى بلغ من كثرة تلك الجيوش أن غطّت وجه الأرض. ومما يؤخذ على هذا الجيش العرمرم أنه كان بمقدمته القسس والكهان من رجال الكنيسة، حيث امتلأت قلوب هؤلاء بالحقد على الإسلام، ونشطوا وأبدوا نشاطاً ملموساً لكل ما هو حرام بنصّ إنجيلهم -الكتاب السماوي- الذي نزّل على سيدنا عيسى، حيث سخّروا تلك المدن الإسلامية لهم وعدوا سكّانها كأنهم أغنام، وفي هذا ما به من عنجهية وظلم إذا ما قورن بسماحة الإسلام ورفعة قدره، حيث يحترم الذميين الذين يساكنونه في دياره على حين يفتك هؤلاء القسسة بأهل المدائن الإسلامية، وشتّان بين نظام الإسلام وبين نظامهم المبتذل، حيث حرّفوا الكتاب وكذّبوا على الله وعصوه.

ولا يسع شوقي، المسلم، بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى، إلاّ أن يألم لذلك السبيل الذي اتّخذه هؤلاء القساوسة من سفك لدماء المسلمين واستحلال للحرمات واعتداء عليها، حيث ذلك ليس سبيل عيسى -عليه السلام- نبي المودّة والرحمة بالإنسانية، فما رسالته إلا عصمة وسلام وصحبة ونبل، وهو ينهى عن سفك الدماء،

وامتهان الأرامل والضعاف والأيتام. ويشبه سيدنا عيسى بأنه حامل آلام هذا العالم، خاصة وقد تحمل الكثير من الآلام بنسبة المجازر التي ارتكبها هؤلاء الفاسقين له عليه السلام، ونسبت إليه وهو منها براء براءة الذئب من دم يوسف -عليه السلام-. ولكننا نرى أدعياء المسيحية يقطعون أوصال الرحم باسم عيسى، وعلى رأس هذه الجيوش الجرارة عصابة يحملون الصليب ويهتفون باسمه، وإنما هم ظالمون عتاة لعيسى ولأم عيسى، وقد خلط هؤلاء الصليب بالخناجر والمدى واستعملوها أدوات للأذى وكؤوساً يسقونهم منها الردى.

وهو في شرحه لموقف هؤلاء الرهبان الذين أعمتهم المطامع الدنيوية، يقدم صوراً من جرائمهم يندى لها جبين الإنسانية الأغر، وكانت وما زالت وصمة عار سوداء في جبين القائمين على المسيحية، لأن المسيحية أصلاً بيضاء طاهرة، دنّسها - رهبان السوء بأناملهم القذرة -ودفعهم إلى ذلك دفعاً تعصبهم الذميم ضد الإسلام والمسلمين. ولو أنصف هؤلاء ورجعوا إلى عقولهم لاعتنقوا الإسلام ديناً، وحكمه مذهباً، ونظامه نظام عيش ومنهج حياة، ولسالموه؛ لأنه الدين الوحيد الذي منحهم الحرية وحفظ لهم أموالهم وحرية التملك، وحافظ على أعراضهم محافظته على أعراض المسلمين.

نستمع إليه وهو يقول[1]:

كم مُرْضِعٍ في حِجْرِ نعمَتِهِ غدا
ولَهُ على حَدِّ السُّيوف فِطَام

(1) الشوقيات ج١/ ٢٣٤-٢٣٥.

وصـــبيةٍ هُتِكَـــت خميلـــةُ طُهرهـــا

وتنـــاثرت عـــن نَـــوْرِه الأَكْـــمَامُ

وأخـــي ثمانـــين اســـتُبيحَ وقـــارُه

لَمْ يُغْـــنِ عنـــه الـــضَّعْفُ والأعـــوام

وجـــريحِ حـــرْبٍ ظـــامئٍ وأدوهُ، لَمَ

يَعْطِفْهُـــــمُ جَـــــرْحٌ دَمٍ وأُوام[1]

ومهـــاجرين تنكـــرت أوطـــانُهم

ضـلوا الـسبيلَ مـن الـذُّهول وهـاموا

الـسيف إن ركبـوا الفِـرَار[2] سـبيلُهم

والنَّطْـــعُ إن طلبـــوا القـــرار مُقـــام

يتلفَّتُـــون مُـــوَدِّعِينَ دِيَـــارَهُمْ

واللحـــظ مـــاءٌ، والـــديار ضرام[3]

وإذ تـواترت أنبـاء الزحـف البلقـاني الغاشـم، واكتـسح أمامـه المـدن والقـرى الإسـلامية، ووأدت الكثـير وأودت بحيـاتهم، وشـنّعت بهـم، واسـتباحت أعـراض المسلمين. ذهل المسلمون في مصر وبدا وكأن مصير الخلافة أصبح في كفّ عفريـت، في

---

(1) الأوام: العطش ودوار الرأس.

(2) بين السيف والنطع مراعاة النظير، وبين ركبوا الفرار وطالبوا القرار مطابقة، مع ما في ركـوب الفرار من استعارة جميلة.

(3) لأن جيوش البلقان أشعلت فيها النيران.

هذه الأثناء بدأ نفر من الطيارين الأتراك بالوفود إلى مصر سنة ١٩١٤ قبيل اندلاع شرارة الحرب العالمية الأولى، وتسقط بهما طائرتهما في الطريق. ويعاود زميلان آخران المحاولة فيصلا سالمين، عندها تثلج قلوب المصريين ويتوقعون الخير، ويراود نفوسهم الأمل بصعود نجم الإسلام وقيام دولته قوية متينة وتنبعث بها النشوة. وهل تبقى قصيدة الشعر حبيسة نفس شوقي، وبمعزل عن هذا الحدث الجلل الذي أعاد الثقة والطمأنينة إلى جمهور المسلمين في مصر، فتجلجل في صدر شوقي الجيّاش بحب الإسلام العامر بالإيمان به، هذه الأبيات ينفحها من عاطفة معطاءة، وتفيض من قلبه المترع إيماناً بالإسلام، وبأن نصر الله لا بدّ آت، مرحّباً بمن وصل سالماً من الطيارين معزياً لمن قضى وهو في طريقه لتأدية الواجب، فيقول في قصيدة بعنوان: استقبال[1]:

يا راكب الريح، حيِّ النيلَ والهَرَما
وعظِّم السَّفْحَ من سَيْنَاء، والحَرَما
عادَ الزمانُ، فأعطى بعدما حَرَما
وتابَ في أُذُنِ المحزونِ، فابتسما
فيا رَعَى اللهُ وفداً بينَ أعيُنِنَا
وَيَرْحَمُ اللهُ ذاك الوفد ما رَحِما
هم أقسموا لتدِينَنَّ السماءُ لهم
واليومَ قد صدقوا في قبرهم قسما[2]

(1) الشوقيات ج١/ ٢١٥.

(2) ديوان حافظ إبراهيم / ج٢/ ٧٦-٨٢.

ويشارك حافظ إبراهيم في هذه المناسبة قائلاً[1] بمناسبة استقبال الطيار العثماني فتحي بك:

أهـــــلاً بـــــأول مـــــسلم

في المـــــشرقين عـــــلا وطـــــار

النيـــــل والبـــــسفور فيـــــ

ـــــك تجاذبـــا ذيـــل الفخـــار[2]

يـــوم امتطيـــت براقـــك الـــ

ـــــميمون واجتـــــزت القفـــــار[3]

تلهـــــو وتعبـــــث بالريـــــا

ح عـــــلى المفـــــاوز والبحـــــار[4]

لـــــو ســـــابقتك ســـــوابق الـــــ

أفكـــــار أدركهـــــا العثـــــار[5]

---

(1) ديوانه ج٢/ ٧٦.

(2) كنى بـ(النيل والبسفور) عن مصر وتركيا.

(3) البراق: الدابة التي ركبها رسول الله ﷺ ليلة المعراج. شبه الشاعر طائرة فتحي بك بها في سرعتها ويمنها.

(4) المفاوز: جمع مفازة، وهي الفلاة الواسعة التي لا ماء فيها.

(5) يصفه في هذا البيت بالسرعة حتى إنه يسبق الفكر فيما يخطر به من خواطر.

حـــــسدتك في الأفـــــق الـــــبرو

ق وغـــــار في الأرض البخـــــار[1]

تجـــــري بـــــسابحة تـــــشق

ســـــــبيلها شـــــــق الإزار[2]

وتكـــــاد تقـــــدح في الأثيـــــ

ـــــــــر فيـــــــستحيل إلى شرار

مثـــــل الـــــشهاب انقـــــضّ في

آثـــــار عفريـــــت وثـــــار[3]

فـــــإذا علـــــت فكـــــدعوة الـــــ

ـمـــــضطر تخـــــترق الـــــستار[4]

---

(1) كنى «بالبحار» عن القواطر البخارية.

(2) يريد بالسابحة: الطائرة، شبهها بالسفينة السابحة فوق الماء، وشبه اختراقها للفضاء بشق الثياب.

(3) شبه الطائرة في سرعتها بالشهاب الذي كان يرسل على كل من يحاول استراق السمع من الجن.

(4) شبهها بدعوة المضطر، لما روي في الآثار من أنها ليس بينها وبين الله حجاب، فهي تخترق الآفاق من غير أن يحول بينها وبين الصعود حائل. ويريد بـ(الستار): حجاب السماء.

وإذا هـــوت فكـــما هـــوت

أنثـــى العقـــاب عـــلى الهـــزار[1]

وتـــــــسف آونـــــــة وآ

ونـــــة يحيـــــد بهـــــا ازورار[2]

فيخالهـــــا الـــــراءون قـــــد

قـــــرت ولـــــيس بهـــــا قـــــرار

لعـــــب الجـــــواد أقـــــل لي

ـــــثاً مـــــن قـــــضاعة أو نـــــزار[3]

أو كـــــاللعوب مـــــن الحـــــما

ئـــم فـــوق ملعبـــه اســـتطار

---

(1) هوت: هبطت. والعقاب: طائر من الجوارح تسميه العرب الكاسر. والهزار (بالفتح): عصفور صغير متنوع الصوت؛ ويقال له: العندليب.

(2) تسف: تدنو من الأرض؛ يقال: أسف الطائر إذا دنا مِن الأرض حتى كادت رجلاه تصيبانها. والازورار: الانحراف.

(3) أقل: حمل. وكنى بقولِه: «ليثاً مِن قضاعة أو نزار» عن كون الفارس عربيًّا. يقول: إن هذه الطائرة تلعب في ؟؟ فرساً ونشاطاً كما يلعب الجواد بفارسِه العربي. وقضاعة ونزار: قبيلتان معروفتان.

وكأنهـــا في الأفـــق حيـــ

ـــن يميـــل ميـــزان النهـــار[1]

والـــشمس تلقـــي فوقهـــا

حلـــل احمـــرار واصـــفرار

ملـــك تمثلـــه لنـــا (الـــسيما)

فيأخـــــذنا انبهـــــار

(فتحـــي) بربـــك مـــا رأيـــ

ـــت بـــذلك الفلـــك المـــدار

أبلغـــت تـــسبيح الملـــلا

ئـــك أو دنـــوت مـــن الـــسرار[2]

أم خفـــت تلـــك الراصـــدا

ت هنـــاك مـــن شـــهب ونـــار[3]

---

(1) ميلان ميزان النهار: كناية عن زوال الشمس عن وسط السماء وميلها إلى جهة المغرب.

(2) السرار (بالكسر): مصدر سارّه (بتشديد الراء). ويريد به هنا: مناجاة سكان السماء. يقال: سارّ فلان يساره: إذا ناجاه وأعلمه بسره. يسأل الطيار هل بلغ بطائرته من العلو إلى حيث يسمع مناجاة الملائكة في السماء.

(3) الراصدات: الشهب التي أعدها الله للجن حين كانت تسترق السمع من السماء؛ قال تعالى حكاية عن الجن: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن:٩].

أرأيـــــت ســـــكان النجـــــو

م وأنـــــــت في ذاك الجـــــــوار

أهنـــــاك في (المـــــريخ) مـــــا

في الأرض مـــن علـــل الـــشجار[1]

أهنـــــاك يـــــستعدي الـــــضعيـ

ـــف عـــلى القـــوي فـــلا يجـــار[2]

مـــــــا لابـــــــن آدم زاد في

غلوائـــــه فطغـــــى وجـــــار[3]

يـــا ليـــت شـــعري هـــل لـــه

في عـــــالم الملكـــــوت ثـــــار[4]

أم لاذ معتـــــــــصماً بكـــــــر

سيِّ المهـــــــيمن واســـــــتجار

---

(1) الشجار: النزاع والخصام.

(2) يقال: استعديت الأمير على فلان فأعداني، أي: استعنت به عليه فأعانني وأنصفني منه.

(3) الغلواء (وتسكن اللام): التغالي. والمراد هنا: التغالي في الأمل والطموح.

(4) الثار: الثأر، وسهلت الهمزة للشعر.

فاســـتل مـــن قلـــب الجـــما

د الـــصلب أجنحـــة وطـــار[1]

وتـــسلّق الأجـــواء ممـــ

ـــتطياً عواصـــفها وســـار

يرجـــو النجـــاء مـــن المظـــا

لم والمغـــارم والـــدمار[2]

يـــا أيهـــا الطيـــار طِـــر

فـــإذا بلغـــت مـــدى المطـــار[3]

فـــزر الـــسها والفرقديـــ

ـــن إذا أتـــيح لـــك المـــزار[4]

وســـل النجـــوم عـــن الحيـــا

ة ففـــي الـــسؤال لـــك اعتبـــار

---

(1) استل: انتزع.

(2) الدمار: الهلاك.

(3) مدى المطار: غايته.

(4) السها: كوكب خفي لبعده، وهو في بنات نعش الصغرى. والفرقدان: نجمان يهتدى بهما.

هـــــم ينبئونـــــك أنّ كـــــل

الكائنـــــــات إلى بـــــــوار[1]

والظلـــم مـــن طبـــع النظـــا

م فـــإن ظلمـــت فـــلا تمـــار[2]

إن الـــــذي بـــــرأ الـــــسديـ

ـــم هـــو الـــذي بـــرأ الغبـــار[3]

في العـــــالم العلـــــوي والـــــ

ـــــسفلي أحكـــــام تـــــدار

خلـــق الـــضعيف لخدمـــة الـــ

أقـــوى ولـــيس لـــه خيـــار

فتقـــــو يرهبـــــك القـــــوي

وهـــــن يلازمـــــك الـــــصغار[4]

---

(1) البوار: الهلاك والدمار.

(2) ماراه يماريه مماراة: جادله ونازعه. يقول لا تنازع في ظلم وقع عليك ولا تتبرم بـه، فـإن تـدبير العالم ونظامه يقتضيان وجود ظالم ومظلوم وقوي وضعيف.

(3) برأ: خلق. والسديم: الضباب الرقيق.

(4) هان يهون: ذل. والصغار: الذل.

في الأرض مـــا تبغـــون مـــن

عـــــز وآمـــــال كبـــــار

فيهـــا الحديـــد وفيـــه بـــأ

س يـــوم يمـــتهن الـــذمار[1]

فيهـــا الكنـــوز الحـــافلا

ت لمـــن تبـــصر واســـتنار

منهـــا اســـتمد قـــواه مـــن

قهـــر الممالـــك واســـتعار[2]

وبـــما احتـــوت رد الحـــصيـ

ـــف الـــرأي غـــارة مـــن أغـــار[3]

في ذمـــــــة الآفـــــــاق سر

وارجـــع إلى تلـــك الـــديار[4]

---

(1) الذمار (بالكسر): ما يلزمك حفظه وحمايته. يقول: إن في الأرض من الحديد ما تتخذ منه أسلحة نعتز بها وندفع كل من يحاول أن يعتدى علينا وينتهك من حرماتنا.

(2) «استعار»: معطوف على «استمد»، أي: استعار منها قوته وبأسه.

(3) حصيف الرأي: جيده ومحكمه وسديده.

(4) يريد بـ«الديار»: بلاد تركيا موطن الطيار.

واجعـــــــــل تحيتنـــــــــا إلى

بلـــــــد بـــــــه للملـــــــك دار[1]

دار عليهـــــــــا للخـــــــــلا

فـــــة والهـــــدى رفـــــع المنـــــار

دار الغـــــــــزاة الفاتحيـــــــــ

ـــــن الـــــصفوة الغـــــر الخيـــــار

في كـــــــل حـــــــاضرة لهـــــــم

غـــــــزو ففـــــــتح فانتـــــــصار

ضربـــوا الزمـــان بـــسوط عـــزتهم

فـــــــلان لهـــــــم فـــــــدار[2]

يمـــــــشون في غـــــاب القنـــــا

مـــــشى المـــــرنح بالعقـــــار[3]

---

(1) يريد بـ«البلد»: الآستانة مقر الخلافة.

(2) دار، أي: دار الزمان لهم بما يشتهون. يقول: إنهم بما لديهم من عزة ومنعة قهروا الزمان على أن يواتيهم بما شاءوا.

(3) القنا: الرماح؛ الواحدة قناة. شبهها بالغاب في كثرتها واشتباك بعضها ببعض. والعقار (بالضم): الخمر. والمرنح بها: الذي يتمايل في مشيته سكراً، شبه الجنود وقد ملئوا بنشوة الفرح بالقتال، بشارب الخمر المترنح سكراً.

مـــــن كـــــل أروع فاتـــــك

لا يستـــــشير ســـــوى الغـــــرار[1]

ذي مـــــــرة تـــــــشجيه ذا

ت النقـــــــع لا ذات الخـــــــمار[2]

يغـــــشى المعـــــامع ضـــــاربا

بحياتـــــــه ضرب القـــــــمار[3]

لا ينثنـــــي أو تخـــــرج الـــــ

أجـــرام عـــن فلـــك المـــدار[4]

عبـــــست لهـــــم أيـــــامهم

والعـــــبس يعقبـــــه افـــــترار[5]

---

(1) الأروع: هو الذي يعجبك بشجاعته ومنظره. والغرار (بالكسر): حد السهم والرمح والسيف.

(2) المرة: قوة الخلق (بفتح الخاء) وشدته واستحكامه. وذات النقع: الحرب لما تثيره من النقع، وهو الغبار. والخمار (بالكسر): ما تغطي به المرأة وجهها. يقولُ إن الحرب تطرب هذا الفارس وتشوقه أكثر مما تشوقه النساء بجمالهن.

(3) المعامع: الحروب؛ الواحدة: معمعة. يقول: إن هذا الفارس يدخل الحرب مقامراً بحياته وسواء لديه أخسرها أم كسبها.

(4) يصفه بالثبات والإقدام وأنه لا يرجع عن غايته حتى تخرج الكواكب عن أفلاكها في الدوران.

(5) العبس: العبوس. والافترار: التبسم والضحك الحسن.

مـــــا عـــــابهم أن الـــــصعو

د يليـــــه في الـــــدهر انحـــــدار

فلكـــــل غـــــاد روحـــــة

ولكـــــل وضـــــاء سرار[1]

ولـــــسوف يعلـــــو نجمهـــــم

ويـــــسود ذيـــــاك الـــــشعار[2]

ومن ذاك نرى أن العاطفة عند جلّ الشعراء في ذلك الحين كانت عاطفة إسلامية بحتة، سداها الدين، ولحمتها الإيمان، وباطنها وحصنها الحصين الخلافة الإسلامية، فكانت هذه الأشعار صدى لشعورهم الفياض، وفيضاً حافلاً بكل إخلاص ومحبة للإسلام زادته عنصرية الغرب توهجاً وتألقاً واجتماع كلمة على رفع رايته والذود عن سياجه، والعمل على رأب الصدع بين المسلمين وجمع ذات البين بينهم.

---

(1) الوضاء (بضم الواو وتشديد الضاد): البهيج الحسن؛ يريد البدر. والسرار (بكسر السين): الليلة التي يستسر فيها القمر، أي يختفي، و ذلك لا يكون إلا في آخر الشهر، وربما كان ليلة، وربما كان ليلتين. وكنى بذلك عما ينتهي إليه كل نضرة وجمال من بلى وذهاب.

(2) يريد بـ«الشعار»: الهلال، وكان شعار الدولة العثمانية.

الإشادة باللغة العربية وبأنها الكفيلة بحماية الإسلام

لطالما تغنى شوقي في العروبة واحتفى بها احتفاء الولد البار بوالديه، ونرى أن غناءه في العروبة واحتفاءه بها لم يكن تعصباً بقدر ما كان إشادة بمناقبهم، إذ هم حملة رسالة، وورثة أمانة، وقوام طريق، وصنّاع تاريخ، وبناة حضارة، وناشري فضيلة، مردوا على الكفر، ومرنوا على الفروسية، فكان احتفاؤه بالعروبة ممثلاً بأن هؤلاء القوم هم من رافقوا راية الإسلام تلوح بنودها في الخافقين عالية خفّاقة. صحيح أن الإسلام لا يفرق بين عربي ولا أعجمي (اللهم إلا بالتقوى)، ولكن، لما كان صاحب الرسالة عربياً، ولما كان من وقف بجانبه وشدّ أزره وحمى ظهره من كبار رجالات العرب، وهم الذين كان لهم الفضل الأكبر بنشر الرسالة وحملها إلى الآفاق، تماماً كما تحمل موجات المذياع المادة الإذاعية عبر الأثير لتنقلها إلى ملايين البشر في أرجاء المعمورة كافة، كان قمين بشوقي أن يفخر بالعروبة أيما فخر وأن يُدِلَّ بها أيّما إدلال، إذ أن هذا الفخر نابع من وجدانه وإحساسه، فهو يعايشه ويحس به، ويسري في روحه سريان الدم في الشرايين.

وبم يخاطبنا شوقي؟ أليس بلغة الضاد التي كان لها شرف نزول القرآن بها؟ ولو لم يكن للعرب مفخرة ومكرمة -وما أكثرها- إلا نزول القرآن بلغتهم لكفاهم ذلك شرفاً وفخاراً، ولأوفاهم ذلك أكبر حق، والعروبة هي الرابطة القوية التي تجمع بين المسلمين والمسيحيين الذين يساكنون المسلمون في دار الإسلام، فهم أهل ذمتهم ومحلّ احترامهم مذ عهد النبوة وما زالوا يتمتعون بتلك الحقوق منذ ذلك التاريخ، بالرغم من أنهم لا يقومون بما يتوجب عليهم من واجبات والتزامات في الوقت الحاضر. وما ذلك قصوراً منهم، ولكن من القائمين على شؤون الدولة في البلاد

الإسلامية بعدم تطبيقهم لنظام الإسلام، إذ هو نظام الحياة في كل عصر وكل مصر.

كان شوقي صاحب[1] بيان نضّر الله به صفحة الأدب وحفظ به تراث الإسلام والمسلمين، كان صوتاً قوياً من أصوات العروبة، وسيفاً مجلّواً يُنتضى للذياد به عن العرب، والدفاع عن الإسلام. كان حبه كله لبلاده وإخلاصه كله لدينه وقصائده وفرائده في الإسلام وتاريخه ومآثره ومفاخره، وفي الاعتزاز بكتابه الخالد وبلغته المبينة الفصيحة ورسالته في القديم والحديث ظلت منهلاً ينهل منه الواردون والظامئون، ويأخذ الحكمة منه السابقون ممن أتوا بعده واللاحقون.

ولشوقي قصيدة فريدة بديعة تحت عنوان (لغة العرب) يقول[2]:

لسانك الأول في الكتاب

ولغة الصبوة والعتاب

فخض عباب فقهه وسرّه

وغصّ على صحيحه وحُرَّه

لا ترض منه مبلغ الرعاع

وحصة الأعمى من الشعاع

واقرأ علوم السلف الأعلام

فإنها معالم الكلام

---

(1) دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه ج١/ ٩٩-١٠٠.

(2) نفسه ج٢/ ١٠٠-١٠١.

رب قـــديم كـــشعاع الـــشمس

أيـــن غـــد واليـــوم مـــن أمـــس

وخـــلّ مـــا زيفـــت الليـــالي

ومـــا نفـــت مـــصارف الأجيـــال

ولا تُـــضِعْ فـــضلَ الجديـــدِ كلـــه

يَفُتْـــكَ وضـــعُ الـــشيءِ في محلـــه

رب جديـــد عنـــده المُعَـــوَّلُ

وَرُبَّ كنـــــزٍ لم يُثِـــــرْه الأوَّل

إنَّ طريـــقَ العقـــلِ لا يُـــسَدُّ

ومـــذهب الأفكـــار لا يُحَـــدُّ

في هذه القصيدة نستشعر تمجيد اللغة العربية على لسان شوقي، وما ذاك إلا كونها لغة القرآن، وهو يهيب بالنشء الجديد أن يتزودوا منها بخير زاد، وأن يغوصوا في القرآن للوصول إلى معانيه الحقيقية والتوصل إلى كنه أسراره، ويطالبهم بعدم الاكتفاء منه بما يكتف به الرعاع، مصوراً هذه الصورة الحسية مشخصة بارزة للإيحاء بالقلة والنزر عندما يشير إلى النشء بعدم الاكتفاء منه كما يكتفي الأعمى بما يصل إليه من شعاع ووميض البرق وأي شعاع يصل إلى الأعمى في عماه؟ ويختم أبياته بهذا البيت الرائع من الحكمة التي عودنا إياها حين يقول[1]:

(1) دراسات في الأدب العربي الحديث ج١/ ١٠١.

إن طريـــق العقـــل لا يـــسد ومـــذهب الأفكـــار لا يحـــد

وفي هذا ما به من دعوة للاستقرار في التفكير ومواصلته للوصول بالأمة إلى مراقي العزة والمجد، بإعمال أفكارهم بغية الوصول إلى المبتغى ومواصلة الاجتهاد وعدم غلقه.

وفي قصيدة أخرى بعنوان (الوطن) يقول:

وأنجـــز الله النبـــيَّ وعـــده

وســـاد قومـــه الزمـــان بعـــده

فيرثـــوا قيـــصر في المـــشارق

وأخـــذوا الغـــرب بـــسيف طـــارق

وأمنـــوا الأمـــصار قائمينـــا

وعـــدلوا في العـــالمين حينـــا

واتخـــذوا كـــل القـــرى أوطانـــاً

وحاســـنوا الأهلـــين والقطّانـــا

فحيـــث حـــلّ العـــربي حيـــا

مـــن المـــلا قبيلـــة وحيـــا

وشـــاطر الأرض عـــلى التـــساوي

محاســـن الأقـــوام والمـــساوى

حتـــى انقـــضى ســـلطانهم وزالا

وفـــضلهم بـــاق ولـــن يـــزالا

يشرح شوقي في هذه القصيدة فضل الله وبركاته على رسوله الأمين، وأنه حقق وعده وأنجزه، وكان ذلك مدعاة لأن يسود قوم الرسول الزمان بعد انتقاله للرفيق الأعلى، فورثوا أعظم الإمبراطوريات سواء كان ذلك ملك قيصر في الشرق أو فتح الأندلس في الغرب بقيادة طارق، وفي هذا إشادة بالموروث من أبطال المسلمين وجعلهم حافزاً للحاضرين ليتأسوا بهم، وإذ وصل هذا الفتح المبين للأقطار شرقاً وغرباً، فإنه لن يدع ذلك يمر دون الإشادة بعدل المسلمين في سياسة الأقطار المفتوحة، وأنها كانت تحت سيادتهم وإمارتهم آمنة مطمئنة بعدلهم، وعدَّ هؤلاء البلاد حيث يذكر بها اسم الله موطناً لهم، واستمروا يسوسون الشعوب سياسة أخوة حتى آن لهذا الملك العزيز أن يزول، وإن زال عن البلاد من الناحية السياسية إلا أن ذكرهم العاطر ما زال يفوح شذاه في تلكم الديار.

ويورد الدكتور محمد عبد المنعم الخفاجي[1] آراء عدد من الأدباء والنقاد في شوقي وشعره وقد بدأها بعبد العزيز، وأنهاها برأي للعقاد، وكلهم يثني عليه وعلى شعره، كما يورد بعض صور من شعره[2].

ويخاطب الترك كونهم العنصر الإسلامي الذي بيده الحكم، ويبين موقعهم من الحب الكبير في قلوب أفراد الأمة، ذلك الحب الذي يحب لأمتهم، ملمحاً إلى أنه وإن بعدت الدار فإن ما يجمعهم يقربهم ألا وهو حب اللغة العربية التي جاء القرآن بها، وحب الإسلام الذي يمثله البيت الحرام، وهما خير، وفضلاً على موقعهم في الشرق ورسالة الإسلام التي تعد من أهم الأسباب، فيقول[3]:

---

(1) راجع رأيه في: دراسات في الأدب العربي الحديث ج١/ ١٠٤.

(2) دراسات في الأدب العربي الحديث ج١/ ١١٠-١١٣.

(3) الشوقيات ج١/ ٢٢٦.

تُحِلُّكُمُ مصرُ منها في ضَمائرِها

وتعلن الحبَّ جمّاً غير مُتَّهم

فنحن -إن بعدت دار وإن قربت-

جاران في الضاد، أو في البيت والحرم

ناهيك بالسبب الشرقي من نَسَبٍ

وحبَّذَا سبب الإسلام من سبب

وهل بعد هذه الأواصر الوثيقة إرباً وتطلعاً؟ كفى بذلك رباطاً وعرى الإسلام.

ويقول في قصيدة معالي العهد[1]:

وَصُنْ لغةً يَحِقُّ لها الصِّيانُ

فخيرُ مظاهرِ الأمَمِ البيَانُ

وكان الشعبُ ليس له لسانٌ

غريباً في مواطنه مَضِيما

وخذ لغة المُعاصر، فَهْيَ دنيا

ولا تجعل لسان الأصلِ نَسْيا

كما نقل الغرابُ فَضَلَّ مَشْياً

وما بلغَ الجديدَ، ولا القديما

(1) الشوقيات ج٤/ ٣٦، ناهيك: من الأغلاط الشائعة. الأصح أن يقول: أضف إلى ذلك.

وأي لغة أحق بالصون والحفاظ من لغتنا العربية المجيدة؟ سيما وقد صانها وحفظها الله بحفظه لذكره ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر:٩] -قرآن كريم-، مبرزاً أن البيان الذي تمثله اللغة العربية هو أظهر خير، وأن الشعب حيثما اتجه يفهم لغة أخيه، ويدعو إلى عدم الاستغناء عنها كما حاول الغراب أن يغير مشيته ففقد مشيته ومشية غيره عندما حاول تقليدها. وهذا مثل حي يضربه للرد على من يحاولون استبدال اللغة العربية بغيرها.

ثم يقبل على العربية فيمدحها في بيانها وأخلاقها وسياستها بما هي أهل له وحقيقة به[1]، ويمثل عزمهم بعزم الرسل، ورحمتهم برحمة الملائكة وبأسهم ببأس الأسود وعطاءهم بالغيوث وهم أهل العدل وإشاعته في البلاد، حيث هو الركن الركين في كيان الأمم، يوم كان الناس كالبهائم السائمة لا تدري من شأن دينها ودنياها شيئاً حتى أنهم عبدوا الأصنام وألّهوا الأوثان، فيقول[2]:

الله جـــلّ ثنـــاؤه بلـــسانِهم
خلـــق البيـــان وعلّـــم الأمثـــالا
وتخـــيَّرَ الأخـــلاقَ أحـــسَنها لهـــم
ومكـــارمُ الأخـــلاقِ منـــه تعـــالى
كالرُّسْـــلِ عزمـــاً، والملائِـــكِ رَحْمَـــةً
والأسْـــدِ بأســـاً، والغيـــوثِ نَـــوالاً

(1) الدين والأخلاق في شعر شوقي ١٣٤- بتصرف.

(2) الشوقيات ج١/ ٨٧.

عـدلوا، فكـانوا الغيـثَ وقعـاً، كلـما

ذهبــوا يمينــاً في الــوَرَى، وشــمالا

والعــدلُ في الــدولات أُسٌّ ثابــتٌ

يُفنــي الزمــانَ، ويُنْفِــدُ الأجيــالا

أيــامَ كــانَ النــاسُ في جهَلاتهــم

مثــلَ البهــائِم، أُرْسِــلَتْ إرســالا

مــن جَهْلهــم بالــدينِ والــدُّنيا معــاً

عبــدوا الأصــم، وألَّهــوا الأوثانــا

ويقبل على العرب يحمد بلاءهـم في حمايـة الـدين ويـشيد بمكانتهـا مـن البيـان وبمآثرها على العالمين بله الثقلين (الإنس والجن) إذ أُنْزِلَ القرآنُ لكليهما. فيذكر كيف أشاعت الرشد وبسطت العدل وردّت الحقوق، ونشرت النظام، وشرعت الـشرائع، وسنّت السنن، وكيف طبعت الحضارة بطابِعِهـا ووجهـت الـدنيا وجهتهـا، وكيـف صارت سيرتها مثلاً عالياً، ومناراً باقياً في الآخرين[1].

وحماهــا غــرّ كــرام أشــداء

عــلى الخــصم بيــنهم رحمــاء

أمّــة ينتهــي البيــان إليهــا

وتــؤول العلــوم والعلــماء

(1) الدين والأخلاق في شعر شوقي/ ٢٣٧.

جـازت الـنجم واطمأنـت بـأفْقِ

مطمـئن بـه الـسنى والـسناء

كلـما حثـت الركـاب لأرض

جـاور الرشـد أهلهـا والـذكاء

وعـلا الحـق بيـنهم وسـما الفـضل

ونالـت حقوقهـا الـضعفاء

تحمل النجم والوسيلة والميـزان مـن دينهـا إلى مـن تـشاء

وتنيـل الوجـود منـه نظامـاً

هـو طِـبُّ الوجـود وهـو الـدواء

يرجـع النـاس والعـصور إلى مـا

سَـنَّ والجاحـدون والأعـداء

فيـه مـا تـشتهي العـزائم إن

هـم ذووهـا وتـشتهي الأذكيـاء

فلمـن حـاول النعـيم نعـيم

ولمـن آثـر الـشقاء شـقاء

ويسائل بني الظل والماء من الأعاجم، أكان لهم أن يخرج الله من الفقر هداة البشر وأساتذة الدنيا وأن يثير من خيام الصحراء آساد هيجاء ومساعر حروب يقضون على الفوضى ويقطعون دابر الطغيان ويحلون السلام محل الخصام والحرية محل الاستعباد،

والرحمة محل القوة، والإخاء والمساواة محل الأثرة والاستبداد؟ وأياً يكن جوابهم، فقد أمضى الله إرادته وأتم حكمته وأدت العرب الرسالة على وجهها، وأدت الأمانة بكل عنفوان وصدق، فأحسنت الأداء وبلغت الرسالة فأحسنت البلاغ، بشهادة البر والبحر من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب في العالم القديم، فيقول:

أيرى العجم من بني الظل
والماء عجيباً أن تنجب البيداء
وتثير الخيام آساد هيجاً
تراها آسادها الهيجاء
ما أناخت على السواعد من الأر
ض طراً في أسرها والفضاء
تشهد (الصين) والبحار وبغدا
د و(مصر) والغرب و(الحمراء)

* * *

المدائح النبوية وبيان فضل النبوة والإسلام وما قاله معارضاً غيره من الشعراء في هذا الصدد

لقد كان شوقي من الرعيل الأول في عصره الذي اهتم بالروحانيات وأزرى بالحياة المادية ولم يحسب لها حساباً بالرغم من النعيم الذي يستظل بظله، وأشاد واحتفى بالحياة الروحية؛ لأثرها في تخليص النفس من أوضارها، وبعث هذا الفن من الفنون من سباته العميق الذي كان يغط فيه، بعد أن كان يمثل الركيزة الأساس في الأدب المصري في عصر المماليك، وما كاد شوقي يضع المفتاح في القفل حتى جاء من بعده ومن عاصره من الشعراء وتعاوروا هذا الفن وازدحموا في عراصه وساحاته حتى كادت تغص بهم وتمتلئ، وإذا كان لهؤلاء الشعراء من فضل فإن لشوقي عليهم فضل السبق وبداية الولوج في هذا المضمار في زمانه.

وشوقي في مدائحه النبوية العديدة، نستطيع أن نؤكد جازمين أنه كان ينظر إلى وراء بعين، أعني كان يتطلع إلى البوصيري معارضاً له في قصيدة البردة التي نالت شرف المعارضة من كثيرين، وكان لها على العربية، وعلى المكتبتين العربية والإسلامية، أكبر الفضل، فلطالما عارضها الكثير من الشعراء، ولو أردنا أن نسرد أسماء معارضيها لضاق بنا المقام، ولكن شهرتها وكثرة من عارضوها تغنينا عن البيان والتفصيل على الرغم من أن شوقي يقول في قصيدته نهج البردة -ولعل اسمها يدل دلالة واضحة على أنه انتهج نهجها وحذا حذوها- نراه يقول[1]:

الله يشهدُ أنّي لا أُعارِضُهُ

من ذا يعارضُ صوب العَارِضِ العَرِم

---

(1) الشوقيات / ج١/ ٢٠٠.

وإنـما أنـا بعـضُ الغـابطين، ومَـن

يغـبِطْ وليَّـك لا يُـذْمَم ولا يُلَـمِ

هـذا مقـامُ مـن الـرحمنُ مُقْتَـبَسٌ

ترمـي مَهابَتُـه سَـحْبان بـالبَكَمِ

وإذا علمنا أن نهج البردة يتفق مع البردة في الموضوع والوزن والقافية، بل وفي طابع الأسلوب، فكلتاهما في مدح الرسول -عليه السلام-، وكلتاهما على وزن البسيط الأول متراكبة القافية، ميمية الروى، مضمومة المجرى، وكلتاهما تصطنع البديع ما وجدت السبيل إليه[1]، علمنا إلى أي حد بلغ به احتذاءه لتلك القصيدة وتأثره بها، وإذا قبلنا من شوقي قسمه بأنه لا يعارض البوصيري فإننا لا نستطيع أن نقنع أنفسنا بأن قصيدته (نهج البردة) والتي يبدؤها بقوله[2]:

ريـمٌ عـلى القـاع بـين البـانِ والعَلَـمِ

أحـلَّ سـفكَ دمـي في الأَشْـهُرِ الحُـرُمِ

رمـى القـضاءُ بعَيْنَـيْ جـؤذَرٍ أَسَـداً

يا سـاكنَ القـاعِ، أدرِكْ سـاكِنَ الأَجَـم

لمـا رنـا حَـدَّثَتْني الـنَّفْسُ قائلـةً

يا ويح جَنْبِكِ، بالسَّهْم المُصيبِ رُمِـي

(1)الدين والأخلاق في شعر شوقي/ ٣٤.

(2) الشوقيات / ج١/ ١٩٠-١٩٢.

رزقتَ أسمحَ ما في النفس من خُلُقٍ

إذا رُزقتَ التماسَ العُذرِ في الشِّيَمِ

يا لائمي في هواه -والهوى قَدَرٌ-

لو شَفَّكَ الوجدُ لم تَعْذِل ولم تَلُمِ[1]

يا ناعسَ الطَّرْفِ، لا ذُقْتَ الهوى أبداً

أسهرتَ مُضْناكَ في حِفْظِ الهوى فَنَمِ

مَنِ الموائِسُ بانـاً بالرُّبا وقَناً

اللاعِباتُ بِروحي، السافحات دَمِي

السافراتُ كأمثالِ البدورِ ضُحًى

يُغِرْنَ شمسَ الضُّحَى بالحلي والعِصَمِ

القاتلاتُ بأجفانٍ بها سَقَمٌ

وللمنيةِ أسبابٌ من السَّقَمِ

العاثراتُ بألبابِ الرِّجالِ، وما

أُقِلْنَ مِن عَثَراتِ الدَّلِّ في الرَّسَمِ

الحاملاتُ لِواءَ الحُسْنِ مختلفاً

أشكاله، وهو فَرْدٌ غير مُنقسِمِ

---

(1) شفه الوجد: أهزله وأنحل جسده. المعنى: الذي أثقله المرض.

مـن كـل بيـضاءَ أو سـمراءَ زُيِّنَتـا

للعـين، والحُـسْنُ في الآرام كالعُـصُم

أقول إنها ليست بعيدة عن معارضة كعب بن زهير بن أبي سلمى في مدحته للرسول ﷺ والتي يبدؤها بقوله[1]:

بانَـتْ سُـعَادُ فقلبـي اليـومَ مَتْبُـولُ

مُتَـيَّمٌ إِثْرَهَـا لَمْ يُجْـزَ مَكْبُـولُ[2]

وَمَـا سُـعَادُ غَـدَاةَ البَـيْنِ إِذْ رَحَلُـوا

إِلَّا أَغَنُّ غَضِيضَ الطَّـرْفِ مَكْحُـولُ[3]

تَجْلُو عوارِضَ ذي ظَلْـمٍ إذا ابتـسَمَتْ

كأَنَّـهُ مُنْهَـلٌ بـالرَّاحِ مَعْلُـولُ[4]

---

(1) ديوانه/ ٢٦-٤٢ مع الشرح (من البحر البسيط).

(2) بانتْ: فارقَتْ. ومتبولٌ: أصيب بتبل، أي: تبلت قلبي. ومتيم: مضلل وهو التذلل، ذلله الحب. ومكبول: محتبس عندها. والكبل: القيد، يقال: مكلَّب ومكبل بمعنى واحد. وقال ابن الأعرابي: مكبل: بالحديد، ومكلب: شد في كلبة السرج وهي حلقة في مؤخرة السرج. ويُروى «لم يفد» من الفداء. ولم يُجْز: من الجزاء، يقول: ما أثابتني.

(3) الأغنّ: الذي في صوته غنة. ويروى: «غداة البين إذ برزت». وغضيض الطرف: فاتر الطرف.

(4) العوارض: الأسنان، وهي ما بين الثنية والضرس. والظلم: ماء الأسنان. ومنهل: قد أنهل بالخمر، والنهل: أول شربة. والمعلول: قد سقي مرتين، والعلل: الشرب الثاني.

شَـجَّتْ بِـذِي شَـبَمٍ مِـنْ مَـاءٍ مَحْنِيَّـة
صَافٍ بِأَبْطَحَ أَضْحَى وَهُوَ مَـشْمُولُ[1]

تَجْلُـو الريـاحُ القَـذَى عنـه وأَفْرَطَـه
مِـن صَـوْبِ سـارِيةٍ بِـيضُ يَعَاليـلُ[2]
يَـا وَيْحَهَـا خُلَّـةً لـو أَنَّهَـا صَـدَقَتْ
مَا وَعَـدَتْ أَولَـوَ انَّ النُّـصْحَ مَقْبُـولُ[3]
لكنَّهَـا خُلَّـةٌ قَـدْ سِـيطَ مِـنْ دَمِهَـا
فَجَـعٌ وَوَلَـعٌ وَإِخْـلَافٌ وَتَبْـدِيلُ[4]
فَـمَا تَـدُومُ عَـلَى حَـالٍ تَكُـونُ بِهَـا
كَـمَا تَلَـوَّنُ فِي أَثْوَابِهَـا الغُـولُ
وَمَا تَمَسَّكُ بِالوَصْـلِ الَّـذِي زَعَمَـتْ
إِلَّا كَـمَا تُمْـسِكُ المَـاءَ الغَرَابِيـلُ

---

(1) شجت: عوليت بالماء ومزجت. بذي شبم: بماء ذي برد. والشبم: البرد. والمحنية: ما انحنى من الوادي فيه رمل وحصى صغار.

(2) عنه: يريد عن الظلم. وأفرطه: ملأه. وسارية: سحابة تسري فتمطر بالليل. قال: ويقال للغدير اليعلول. فهذه اليعاليل ملأت مواضع الماء في الأبطح، يعني سيولاً. وقال غيره: يعاليل: مرة بعد مرة. وقال آخر: يعاليل: مطردة طوال.

(3) خلة: يقال للذكر وكذلك للأنثى. يقول: ما أتهمها لو لم يكذب موعدها ولو قبلت نصحي لها في أمري، ولكن هذا مما ينقصها.

(4) سيط: خلط. والذي يخلط به: المسواط. والفجع: المصيبة. والولع: الكذب، يقال: رجل ولوع أي: كذوب، وفيه ولع وولعان أي: كذب.

كَانَتْ مَوَاعِيدُ عُرْقُوبٍ لَهَا مَثَلاً
وَمَا مَوَاعِيدُهَا إِلَّا الأَبَاطِيلُ[1]
أَرْجُو وآمُلُ أَنْ يَعْجَلْنَ فِي أَبَدٍ
وَمَا لُهُنَّ طَوَالَ الدَّهْرِ تَعْجِيلُ[2]
فَلَا يَغُرَّنَّكَ مَا مَنَّتْ وَمَا وَعَدَتْ
إِنَّ الأَمَانِيَ وَالأَحْلَامَ تَضْلِيلُ
أَمْسَتْ سُعَادُ بِأَرْضٍ لا يُبَلِّغُهَا
إِلا العِتَاقُ النَّجِيبَاتُ المَرَاسِيلُ[3]
وَلَنْ يُبَلِّغَهَا إِلا عَذَافِرَةٌ
فِيهَا عَلَى الأَيْنِ إِرقَالٌ وَتَبْغِيلُ[4]

---

(1) عرقوب بن نصر: رجل من العمالقة نزل بالمدينة قبل أن ينزلها اليهود بعد عيسى ابن مريم - عليه السلام -، وكان صاحب نخل. وإنه وعد صديقاً له ثمر نخلة من نخله، فلما حملت= =وصارت بلحاً أراد الرجل أن يصرمه، فقال عرقوب له: دعها حتى يشقح أي يحمر أو يصفر، فلما شقحت أراد الرجل أن يصرمها، فقال عرقوب له: دعها حتى تصير رطباً، فلما صارت رطباً قال: دعه حتى يصير تمراً، فلما صار تمراً انطلق إليه عرقوب فجده ليلاً. فجاء الرجل بعد أيام فلم ير إلا عوداً قائماً. فذهب موعود عرقوب مثلاً.

(2) قوله: طوال الدهر، أي: ما بقي عمري.

(3) المراسيل: الخفاف التي تعطيك ما عندها عفواً. يقول: لا يبلغني سعاد إلا مثل هذه النوق لبعدها.

(4) عذافرة: شديدة غليظة. والأين: الإعياء. والإرقال: أن تعدو وتنقض رأسها. والتبغيل: ضرب من الهملجة.

مِنْ كُلِّ نَـضَّاخَةِ الـذِّفْرَى إذا عَرِقَـتْ
عُرْضَـتُها طـامِسُ الأعـلامِ مَجهـولُ[1]

ترمـي الغُيـوبَ بعَيْنَـيْ مُفْـرِدٍ لَهَـقٍ
إذا توقَّـــدَتِ الحُـــزَّانُ والمِيـــلُ[2]

ضَـــخْمٌ مُقَلَّـــدُها فَعْـــمٌ مُقَيَّـــدُها
في خَلْقِهَا عن بَناتِ الفَحْـلِ تفـضيلُ[3]

حَـرْفٌ أخوهـا أبوهـا مـن مهجَّنـةٍ
وعمُّهـا خالُهـا قَـوْدَاءُ شِـمْليلُ[4]

يمـشي القُـرادُ عليهـا ثـم يُزْلِفُـهُ
منهـا لَبَـانٌ وأقْـرابٌ زَهاليـلُ[5]

---

(1) يقول: إن هذه الناقة لعرضة للسفر قوية عليه. والعرضة: الهمة. يقول: إنها تطيق ذلك. والطامس: ما طمس من الأعلام. وأراد أن عرضتها خرق ما توارى وبعُد.

(2) المفرد: الفرد الذي خذل عن صواحبه. واللهق: الشديد البياض. والحزان: ما غلظ من الأرض: مد النظر. يقول: إن هذه الناقة لا تكسر في الهاجرة.

(3) فعم مقيدها: ممتلئ رسغها. يقال: أفعم فلان حوضه إذا ملأه. وبنات الفحل: يعني النوق، أي: لها فضل عليهن في عظم خلقها.

(4) قوداء: طويلة العنق. يقول: جمل حمل على أمه فوضعت ناقة فصار الجمل أخاها وأباها. وقوله: عمها خالها، يريد أن ثلاثة أجمال من ناقة ذكرين وأنثى، فأنزي أحد الذكرين على أمه فوضعت ثلاثة، فصار أحد الأخوين أباها والآخر عمها وخالها. وقوله: من مهجنة يعني ملاحاً. والهاجن: التي تحمل صغيرة.

(5) أقرابٌ: خواصر، الواحد قرب. والزهاليل: الملس. واللبان: الصدر.

عَيْرَانةٌ قُذفتْ في اللَّحـم عـن عُـرُضٍ

مِرْفَقُهَـا عَـن بنـاتِ الـزَّوْرِ مَفْتُـولُ[1]

كـأنَّ مـا فـات عينيهـا ومـذْبَحَها

من خَطْمِهـا ومـن اللَّحْيَـيْنِ بِرْطيـلُ[2]

تُمِـرُّ مثـلَ عَـسِيب النَّحْـلِ ذا خُـصَلٍ

في عـــارِزٍ لم تَخَوَّنْـــهُ الأحاليـــلُ[3]

قَنْـــواءُ في حُرَّتَيْهَـــا للبـــصير بهـــا

عِتْـقٌ مُبـينٌ وفي الخَـدَّيْنِ تَـسْهيلُ[4]

تَخْـدِي عـلى يَـسَراتٍ وهـي لاحقـةٌ

ذَوَابِـــلٌ وَقْعُهُـــنَّ الأرض تَحْليـــلُ[5]

---

(1) عيرانة: تشبه العير لصلابتها. وقوله: عن عرض، أي رميت باللحم في أعراضها. قذفت أي: رميت. يريد أنها اعترضت باللحم اعتراضاً. وبنات الزور: العضلتان والملاطان والمذبح. والزور: عظام الصدر.

(2) البرطيل: واحد البراطيل وهي حجارة إلى الطول ما هي، وقد يكون المعول.

(3) الغارز: ضرعها، والغراز: انقطاع اللبن. وقوله: لم تخونه، أي لم تنقصه. والأحاليل: مجاري اللبن. والإحليل: الثقب، يريد أنها لم تنتج فتحلب فيضر ذلك بقوتها. وتمر: يريد تمر بذنبها على ضرعها.

(4) قنواء: في أنفها كالحدب. وحرثاها: أذناها. والعتق: الكرم، وعتقها أن تكونا مؤللتين. والقنا عيب، وكذاك هو في الفرس.

(5) تحليل: مثل تحلة اليمين. وذوابل: ليست برهلة، أراد أنها ضخمة.

سُمْرُ العُجَايَاتِ يَتْرُكْنَ الحَصَى زِيَماً

لَمْ يَقِهِنَّ رُؤُوسَ الأُكْمِ تَنْعِيلُ[1]

يَوْماً يَظَلُّ بِهِ الحِرْبَاءُ مُصْطَخِماً

كَأَنَّ صَاحِيَه بالنَّارِ مَمْلُولُ[2]

كَأَنَّ أَوْبَ ذِرَاعَيْهَا وَقَدْ عَرِقَتْ

وَقَدْ تَلَفَّعَ بِالقُورِ العَسَاقِيلُ[3]

وَقَالَ لِلْقَوْمِ حَادِيهم وقد جَعَلَتْ

وُرْقُ الجَنَادِبِ يَرْكُضْنَ الحَصَى قِيلُوا[4]

شَدَّ النَّهَارُ ذِرَاعَا عَيْطَلٍ نَصَفٍ

قَامَتْ فجاوبَهَا نُكْدٌ مَثَاكِيلُ[5]

---

(1) سمر: في ألوانها. والعجايات: عصب باطن اليدين، واحدها عجاية. وزيماً: أي متفرقة، واحدته: زيمة.

(2) المصطخم: القائم من الحر، يقال: ظل مصطخماً، أي: منتصباً. وضاحيه: ما ظهر منه للشمس.

(3) أوب: رجع. وتلفع: تلحف. والقور: جمع قارة.

(4) الورق: الطوال. وقال: الورق وغيرها ها هنا سواء. والأورق: الأخضر إلى السواد. قيلوا: يريد من القائلة: منتصف النهار.

(5) شد النهار: ارتفاع النهار. العيطل: الطويلة. ونكد: قليلات الأولاد. والنصف هي التي قامت تنوح.

نَوَّاحـةٌ رَخْـوَةُ الـضَّبْعَيْنِ لَـيْسَ لهـا

لَّـا نَعَـى بِكْرَهـا النـاعون مَعْقُـولُ[1]

يَـسْعَى الوُشَـاةُ بِجَنْبَيْهَـا وَقـولُهُم

إِنَّـكَ يـا ابْـنَ أَبي سُـلْمَى لمقتـولُ[2]

وقـال كـلُّ خليـلٍ كنـتُ آمُلُـه

لا أُلْفِيَنَّـكَ إِنِّي عَنْـكَ مـشغولُ[3]

فقلـتُ خلُّـوا طريقِـي لا أَبـالكُمُ

فَكُـلُّ مـا قَـدَّرَ الـرحمنُ مفعـولُ

كـلُّ ابـن أُنْثَـى وَإِنْ طَالَـتْ سَـلَامَتُهُ

يَوْمـاً عَـلَى آلَـةٍ حَـدْبَاءَ مَحْمُـولُ[4]

أُنْبِئْـتُ أَنَّ رسـولَ الله أَوْعَـدَنِي

والعفـوُ عنـد رسـولِ الله مـأمولُ

مَهْلاً هـداكَ الـذي أَعطـاكَ نافِلَـة الـ

قـرآنِ فيهَـا مَـواعِيظٌ وتفـصِيلُ

---

(1) بكرها: أول ولدها. والمعقول: العقل.

(2) الوشاة: الذين يشون الكذب ويزينونه.

(3) لا ألفينك: أي: لا أكون معك في شيء.

(4) الآلة: الحالة. وحدباء: معوجة

لا تأخُـــذَنِّي بـــأقوالِ الوُشَـــاةِ ولم
أُذْنـــبْ ولـــو كثُـــرتْ عنِّـــي الأقاويـــلُ

لقـــد أقـــومُ مَقامـــاً لـــو يَقُـــومُ بـــه
أَرَى وأســـمَعُ مـــا لـــو يَـــسْمَعُ الفيـــلُ

لظـــلَّ يُرْعِـــدُ إلا أن يكـــون لـــه
مـــن الرســـولِ بـــإذنِ الله تنويـــلُ[1]

حتـــى وضـــعتُ يَمِينـــي لا أُنَازِعُـــهُ
في كـــفِّ ذي نَقِـــماتٍ قيلُـــه القيـــلُ[2]

لَـــذَاكَ أَهْيَـــبُ عنـــدي إذ أُكَلِّمُـــه
وقيـــل أنـــك مـــسبورٌ ومـــسؤولُ

مِن ضَـيْغَمٍ مِـن ضِرَاءِ الأَسْـدِ مَخْـدَرُه
بِـــبَطْنِ عَثْـــرَةَ غِيـــلٌ دونَـــه غِيـــلُ[3]

---

(1) التنويل: من النائل وهو العطاء. والتنويل هاهنا: الأمان والعفو.

(2) أي: قوله الصادق.

(3) مخدره: مكانه. وعثر: موضع قبل تبالة. والغيل: الغيضة. يقول: رسول الله أهيب عندي من الأسد. والضيغم مشتق من الضغم وهو العض، يقال: ضغم يضغم ضغماً. وقوله: من ضراء الأسد: أي: مما ضري منها بأكل الناس. ومخدره: مكمنه الذي يستتر فيه. والغيل: الشجر الملتف.

يَغْـدُو فـيَلْحَمُ ضِرْغَـامَيْنِ عَيْـشُهُمَا

لَحْـمٌ مـن القـومِ مَعْفُـورٌ خَرَاذِيـلُ[1]

إذا يُـسَاوِرُ قِرْنـاً لا يَحِـلُّ لَـهُ

أنْ يـتركَ القِـرْنَ إلا وهـو مفلـولُ

منـه تَظَـلُّ حمـيرُ الـوَحْشِ ضَـامِزَةً

ولا تَمْـشِي بِوَادِيـهِ الأَرَاجِيـلُ[2]

ولا يَـزالُ بِوَادِيـهِ أَخُـو ثِقَـةٍ

مُطَـرَّحُ البَـزِّ والدِّرْسـانِ مَـأكولُ[3]

إنَّ الرسـول لَـسَيْفٌ يُستـضاءُ بـه

مُهَنَّـدٌ مـن سُـيُوفِ الله مَـسْلُولُ

في عُـصْبَةٍ مـن قُـريشٍ قَـالَ قـائلُهُمْ

بـبطنِ مَكَّـةَ لَمَّـا أَسْـلَمُوا زُولُـوا

---

(1) يلحم ضرغامين: يطعمهما اللحم. ومعفور: مطروح في التراب. وخراذيل: مقطع. ضرغامين: شبلين شديدين. والعفر: التراب بعينه.

(2) الضامزة: الساكنة، والضامز: الذي لا يرغو ولا يجتر. والأراجيل: الرجالة، يقال: راجل ورجل ورجالة وأراجيل وأراجل. ويقال: رجل بمعنى راجل.

(3) الدرسان: ثياب خلقان، والواحد دريس.

زَالُـوا فَـما زَال أَنْكَـاسٌ ولا كُـشُفٌ

عنـدَ اللِّقَـاءِ وَلَا مِيـلٌ مَعَازِيـلُ[1]

شُـمُّ العَـرَانِينِ أبطـالٌ لَبُوسُـهمُ

مِـن نَـسْجِ دَاودَ في الهَيْجَـا سَرَابِيـلُ[2]

بـيضٌ سَـوَابِغُ قـد شُـكَّتْ لها حَلَـقٌ

كأنَّهـا حَلَـقُ القَفْعَـاءِ مَجْـدُولُ[3]

يَمْشُونَ مَشْيَ الجِمَالِ الزُّهْـرِ يَعْـصِمُهُمْ

ضَرْبٌ إِذَا عَـرَّدَ الـسُّودُ التَّنَابِيـلُ[4]

لا يفرَحـون إِذَا نالـت رِمَـاحُهُمُ

قومـاً ولَيْـسُوا مَجَازِيعـاً إِذَا نِيلُـوا

لا يَقَـعُ الطَّعْـنُ إلَّا في نُحُـورِهِمُ

ما إنَّ لهم عَن حِيَاضِ المـوتِ تَهْلِيـلُ[5]

---

(1) الكشف: الذين ينهزمون ولا يثبتون. الميل: جمع الأميل وهو الذي لا يثبت على السرج. والنكس: الضعيف.

(2) العرانين: الأنوف، والواحد: عرنين. والشمم: حدة في طرف الأنف مع تشمير.

(3) بيض سوابغ: يعني الدروع أنها سابغة ضافية فضفاضة. وشكت: أدخل بعضها حلقها في بعض وسمرت. القفعاء: بقل من بقل الرمل وعشرة لها ثمرة مثل حلقة الخاتم أو أصغر منه.

(4) يعصمهم: يمنعهم. الزهر: البيض. عرد: فر.

(5) تهليل: تكذيب.

وإذا كان شوقي ناظراً لكعب بن زهير متأثراً به هذا التأثر مترسماً خطاه بمدحه الرسول فإن احتذاءه للبوصيري وهو أقرب إلى عصره من عصر كعب بن زهير يكون من باب أولى، نرى البوصيري يستهل قصيدته بقوله[1]:

أمن تذكر جيران بذي سلم
مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم

أم هبت الريح من تلقاء كاظمة[2]
وأومض البرق في الظلماء من أضم
فما لعينيك إن قلت اكففا همتا
وما لقلبك إن قلت استفق يَهِمُ
أيحسب الصَّبُّ أن الحب مُنْكَتِمٌ
ما بين مُنْسَجِمٌ منه ومضطرم
لولا الهوى لم تُرِقْ دمعاً على طلل
ولا أرقت لذكر البان والعلم
فكيف تنكر حباً بعدما شهرت
به عليك عدول الدمع والسقم
نعم سرى طيف من أهوى فأرّقني
والحبُّ يعترض اللذاتَ بالألم

(1) ديوانه / ٢٣٨-٢٤٩.

(2) كاظمة: اسم بلد حاليًّا في الكويت، وإضم: اسم مكان كذلك.

يا لائمي في الهوى العذري معذرةً

منـي إليـك ولـو أنـصفت لم تَلُـمِ

محضتني النصح لكـن لـست أسـمعه

إن المحـب عـن العُـذال في صَـمَم

إني اتهمـت نـصيح الـشيب في عـذلي

والـشيب أبعـد في نـصح عـن الـتُّهم

وإذا عدنا إلى القصائد الثلاثة نحللها فإننا نراها جميعاً صيغت في مدح الرسول ﷺ ومدح شرفه ونسبه وفضله، كما أننا نراها جميعاً قد بدأت بالنسيب، فقد كان السابق إلى ذلك كعب بن زهير، وإذا علمنا أن القصيدة الجاهلية كانت تبدأ أول ما تبدأ بالنسيب، أو ذكر الأطلال وبوصف الناقة وهي تقطع الفيافي والصحاري المقفرة لتصل إلى الممدوح تجاوزنا عن مدحة كعب بن زهير بن أبي سلمى للرسول ﷺ بقصيدته مبدوءة بالنسيب والتشبيب بالمحبوبة، وذلك لتأثره بما تعوَّد عليه الشاعر الجاهلي لقرب عهده من عصر الرسول من ناحية، ولعدم تأثره بالإسلام لدرجة التشبع من ناحية أخرى وتجاوز رسول الله ﷺ عن ذلك، وأن ما يعرفه عن الإسلام لماماً لا يقاس بما يعرفه شوقي والبوصيري، فإذن لا ضير على كعب بأن يبدأ مديحته بالنسيب وإن كان يؤخذ عليه ذلك بصورة جزئية. ولكن هناك مخرج آخر لكعب بن زهير كما يذكر الأستاذ الدكتور عبد السلام سرحان، فيورد ثلاثة اتجاهات بشأنها:

١ - أن تكون محبوبة حقيقية لها فوق النجود وجود، ويكون لها من المكانة والمنزلة التي تحدثت عنها الأبيات ذلك الحديث المستفيض، ويبعد هذا الاتجاه أنها قيلت

بحضرة الرسول، وأن مقام الخوف والفزع يوحي بأنها بعيدة عن دائرة الوجود.

٢- أنها فتاة خيالية غير حقيقية اخترعها خياله ليبدأ على حبها إنشاده على طبيعة الشعر في صنعته القديمة، وهذا ما أميل إليه وأظنه الحق.

٣- أن سعاد كناية عن راحته وسعادته وطمأنينته أيام محنته وهجرته وكربته، فقد افتقد الراحة مدة طويلة عندما كان هارباً من رسول الله ﷺ عندما أهدر دمه مفتقداً للطمأنينة باحثاً عنها بكرة وأصيلا، ولكنه كان يمشي على الحصى وينام على شوك القتاد.

إن تلك القصيدة كانت نفحة أدبية خالدة، ولقد خُلِّدت بما ترتب عليها من نتائج. فقد حظي قائلها بشرف المثول بين يدي الرسول عليه السلام، وبلمس يعينه لا ينازعه في ذلك منازع، ومِن ثَمَّ تجلّى كرم الخلق المطبوع في نفس الرسول الكريم إذ لم يكتف بقبول عذره ومسامحته وبأمر الأنصاري الذي همّ بقتله (عندما عرفه وكان الرسول قد أهدر دمه) بالامتناع، بل خلع بردته الشريفة عن جسمه الشريف وألقاها على كعب، فحاز كعب بذلك شرفاً ما بعده شرف، وأي إنسان يطمع أن يصنع له الرسول صنيعه لكعب؟

وبالرغم من أن القصيدة لم تكن مدحاً صرفاً كما قدّمنا، وإنما هي نسيب بالبداية ثم وصف للناقة، وكأنه ارتاح لوصف ناقته حيث تطوى به الأرض طيّاً لا تأبه بالهاجرة ولا بالمسافة ولكنها تتطلع تطلعاً للوصول إلى سعاد التي أشاطر الأستاذ سرحان بأنها الهناءة والاطمئنان لأنه سيحظى بلقاء رسول الله ﷺ ومن ثم اعتذر عما رماه به الوشاة وأبدى جزعه وخوفه الشديد من هدر الرسول ﷺ دمه حتى أن الفيل

لو كان بمكانه ليغرق فزعاً، وذلك مدحاً ضمنياً للرسول في شدّة هيبته، وانتشار سلطانه، ولذا فقد رأيناه صلوات الله عليه يهتز طرباً وبهجةً عندما يصل الشاعر إلى قوله[1]:

إن الرسول لنور يُستضاءُ به

مهنَّدٌ من سيوف الله مسلول

أشار إلى أصحابه أن اصمتوا. وهذا غني عن البيان، فقد اهتز طرباً وندى لهذا الشعر، وسرت في نفسه الشريفة أريحية لموقع هذا الشعر من الصدق، فهو نور بعثه الله هدى ورحمة للعالمين، وهو سيف من سيوف الله أشهره على رؤوس الكفر وعبدة الأوثان.

لقد كانت هذه القصيدة دوحة سامقة فينانة ظليلة، قال تحتها الشعراء يتفيأون ظلها، ويقطفون من ثمراتها، ويجنون من أغصانها وأعطافها ما شاء لهم أن يجنون، ومن هنا رأيت العديد من الشعراء الإسلاميين حذوا حذوها، وبنوا على نهجها، وعُدَّ مدح الرسول فناً من الفنون الإسلامية والأدبية، فعمّ الآفاق وملأ الدواوين، ولقد كانت هذه القصيدة لؤلؤة مكنونة وزبرجدة فريدة عالجها الكثير من الشعراء والأدباء كي يفتقوا أكمامها ويشيعوا شذاها، وينشروا عبيرها ويفجروا نبعها الثر النضاخ ليبعث الخصب والنماء والحياة، فقد كانت زهرة ندية تفوح شذى، وتتضوع مسكاً، وتسيل أرى أضفى عليها تقدير الرسول ﷺ لها خلوداً ما زلنا نعيشه.

---

(1) ديوان كعب بن زهير/ ٤٠.

ومن هنا كثرت معارضتها والسير على نهجها، وحقاً فقد كانت هذه القصيدة من غرر الشعر العربي فألفاظها جزلة قوية، وعباراتها رصينة، وأسلوبها سهل ممتع ممتنع، صحيح أنه قد يخيل إلى السامع أن في ألفاظها إغراباً، ولكننا لو طوينا صفحة الزمن وعدنا نسترق السمع لها في ذلك الوقت والعهد السحيق فإننا نجد ألفاظها عادية سلسة تتناسب والزمن الذي قيلت فيه، وانشرح لها جميع من سمعها. وكلما مرّ عصر عليها زادت بهاء وفتنة وأينعت أطيب الثمار، وكان لها في الأدب أبهى حلّة، فهي نبع لا ينضب، ومعين لا يفتر عن العطاء، فكم تصدى لها من الشراح. ونرى أن كلاً منهم يقدم لها صوراً جديدة ومعالم واضحة وسمات بارزة، وما ذاك إلا لأنها اكتسبت طابع الخلود.

وهنا نسلم أن البوصيري استوحى قصيدته نهج البردة من قصيدة «بانت سعاد»، وبالرجوع إلى (البردة) التي صاغها البوصيري يتبدى لنا بجلاء أنه نظمها احتذاء لقصيدة كعب السابقة، وذلك حيثما يئس من مرضه وأسلم نفسه للألم الممضّ المضني، وأنعم في البعد عن زخارف الحياة، بعد أن علم أنه مفارقها بين عشية وضحاها، فبدت به روح تميل إلى الصوفية، ولكن ما يؤخذ عليه في قصيدته هو إنعامه باحتذاء كعب في النسيب، بالرغم من أن المعروف عنه أنه لم يكن صاحب مغامرات مع النساء. وبذا نعجب من نسيبه خاصة وهو في مأزق صحي بين الموت والحياة، وبنفس الوقت يستشفع بحالته المرضية الخطيرة سيد الخلق أن يُبرِأه بشفاعته من علته -فكان له ذلك على ما يروى[1]، إذ ذاع صيت القصيدة، وعلا كعبها، وسمت منزلتها بعدما أشيع ما أُسبغ على صاحبها من كرامة وبرء، وإننا لنأخذ على

(1) ديوان البوصيري/ ٨-٩، وتسمى قصيدة «البرء».

البوصيري نهجه هذا الذي نهج، إذ لم يكن المقام يتطلب النسيب خاصة وهو ينشدها بين يدي رسول الله الكريم، وإذا كنا قد أخذنا على البوصيري هذا المأخذ فعجبنا يشتد، إذ نرى شوقي يضع الحافر على الحافر، والعنان مع العنان، كما أن شوقي أكثر إنعاماً بالنسيب والتشبيب من البوصيري، فقد كان عليه أن يبتعد عما وقع به صاحبه من خطأ -إن صح هذا التعبير- خاصة وأن عصر شوقي البعيد عن التكلف والتصنع يحتم عليه مخالفة صاحبه البوصيري الذي كان في زمن ركود ثقافي، وكان الشعر في وقته ركيكاً يعتمد على الجناس والمحسنات البديعية، ويفتقر إلى المعنى السليم والأداء الصحيح وهذا القول لا يقبل على عواهنه، وإن كان به بعض الصحة، على العكس من زمن شوقي حيث خلف البارودي الذي ثار على ذلك النظام للشعر، وكان البارودي بحق باعث النهضة الأدبية التي احتذاها وترسم خطاها من بعده شوقي ومعاصروه.

نهج البردة[1]، القصيدة التي تناقلتها الألسنة، وحفظتها الأفئدة، هذه هي نغمة شوقي، تلك الأغنية العذبة في فم الزمن، التي حفظتها الملايين في معظم الأقطار الإسلامية واهتم بها شداة الأدب ورواد الثقافة، فنهلوا من معينها، وارتوَوْا من غديرها، وقالوا على شطآنها.

إنها النغمة الشعرية الخالدة التي عارض بها من حيث المبدأ قصيدة البردة للبوصيري، وإن كان يقول أنه لم يقصد معارضتها، صحيح أنه عارض البوصيري

(1) أشار البوصيري إلى اليهود، وأنهم قتلة الأنبياء. مزرياً عليهم عدم تجاوبهم للدعوة المحمدية ولم يتعرض لذلك شوقي، راجع ديوان البوصيري/ ٩.

ببردته، ونهج على نهجه، ولكنه في الواقع سما عن البوصيري وارتفع في فخامة وسلاسة أسلوبه، وحبك عباراته، ونسق أبياته، وقوة وشدة أسر عباراته، فخلت قصيدته من الركاكة والضعف، وإن لم تخل منها بردة البوصيري، وخلت من الحشو وجانبت الأقاويل، واعتمدت على الحجة والمنطق والبراهين.

صحيح أن عقد مقارنة بين القصيدتين ممكن من حيث المعاني والصور الشعرية التي احتوتها، ولكنه من ناحية النسج وقوة العبارة بعيد، إذ أن شوقي شأنه في معظم شعره يتأنق في صوغ عباراته، ويختار معانيه وألفاظه، وكثيراً ما فشل البوصيري في إيداع الصور بالرغم من حومانه حولها، بينما التقطها شوقي منه وصاغها صياغة بديعة، وألبسها حلياً ووشياً جميلاً فاق الصورة الأصلية للبوصيري. وإذا عقدنا هذه المقارنة بينهما فإننا نرى:

١ - اشتركا في الاستهلال بالنسيب، ولكن شوقي أنعم في ذلك أكثر من البوصيري.

٢ - اشتركا في وصف الرسول ﷺ وخلقه وخُلقه.

٣- كلاهما يرى الرسول شفيعاً يوم القيامة، وهذا مأخوذ من قول رسول الله ﷺ في حديثه المشهور..

٤ - كلاهما تكلم عن غار حراء، والعنكبوت والحمامة، بالرغم أن هذا لم يثبت في السيرة النبوية الأصيلة، وإنما هي من مبتدعات الرواة.

٥ - كلاهما تحدث عن إيوان كسرى.

٦ - تحدث شوقي عن الراهب بحيرا، ولم يتطرق إليه البوصيري.

٧- كلاهما تحدث عن الإسراء والمعراج، ووصف شوقي البراق ركوبة رسول الله في إسرائه.

٨- كلاهما وصف الرسول بالبدر.

٩- كلاهما اشترك بوصف الوجد والهوى، وإن عانى منه شوقي وراضه، ولم يسمع عن البوصيري مثل ذلك.

١٠- بينما يذكر البوصيري أن بحيرة ساحرة غارت وقت ميلاده، نرى أن شوقي يحتج بنبوته على تظليل الغمامة له.

١١- شبه شوقي الرسول بأمير الأنبياء، فكان موفقاً في تعبيره، بينما كان البوصيري جافياً بتشبيه الأنبياء بخدم للرسول ﷺ.

١٢- ذكر شوقي أن محمداً خير من نطق بالضاد، فاللغة العربية حلته، فهو يشيد بفصاحته، بينما لا نرى البوصيري يتعرض لذلك، وهذا مصداق قول رسول الله ﷺ: «أوتيت جوامع الكلم».

١٣- نلاحظ أن البوصيري لم يكن يهتم إلا بنفسه ويدعو لها، ونعجب كيف أنه وهو الذي عاش في خضم الأحداث والحروب الصليبية لا يطلب من المسلمين أن يجتمعوا على الإسلام ويجاهدوا الصليبيين المعتدين، ويدعو الله على الأقل لنصرة دينه، بينما اهتم شوقي بشؤون المسلمين ووقف نفسه للدفاع عن قضاياهم، فكان المحامي البارع والداعية الصالح الذي يبدو قلبه يتفطر على مصير أمته الإسلامية، إذ اتسع قلبه لكل البلاد الإسلامية وليس لتركيا وحسب، على رأي من يتهموه بالتعصب أو لمصر على من رأوا أنه دعا للقومية.

ولقد قرأت البردة وعشت في ظلالها لحظات أستروح عبير لغة الضاد من بين أبياتها وأملأ قلبي إيماناً بذكر صاحبها رسول الله ﷺ، لما حوته هذه القصيدة من إيمان بالرسول ووصف لرسالته ومراحلها، فمنذ بعث الله الرسول، ومنذ أن نزل عليه الوحي وهو يتعبد مروراً بالغار والعنكبوت، ثم بالإسراء والمعراج، ووصف لخلال الرسول وخلقه وخُلقه، كل هذه عبارات تملأ القلب نوراً وإيماناً بسيد الخلق، وهي فوق ما تتجلى به من معان إسلامية سامية، تريح الفؤاد، وتثلج الخاطر، ويسرح البصر بعيداً في ملكوت هذه اللغة التي امتلك شوقي ناصيتها عزًّا وفخراً بها، فكان أدباء العصر على حق حينما توجوا هامته بإمارة الشعر، ولم يكونوا مغالين في ذلك أبداً.

لقد امتلأت عباراتها وفاضت بالقوة، وكأنها نضاخة تكاد تتفجر العذوبة من بين كلماتها، ألفاظها جزلة، وأسلوبها سهل ممتع وممتنع، يخيل إلى السامع أو القارئ أنه يستطيع أن يحاكي شوقي في رقته، وعذوبة ألفاظه وسهولة مخارجه، ولكنه يفشل عند المحاولة، فهذا هو الأسلوب السهل الممتنع الذي يتحلى به شوقي. فكانت نهج البردة أثراً جليلاً من آثار شوقي، حُقّ له أن يفخر بها، وأن يسامي، ونراه يحسن الإعراب عن الفخر بأن اسمه أحمد، واسم رسول الله كذلك، فيتسامى بذلك ويفخر، ولم تكن نهج البردة هي الوحيدة التي صاغها في حب الرسول ومديحه، فاستمع إليه في همزيته «ولد الهدى فالكائنات» يقول في مطلعها[1]:

بك يا ابن عبد الله قامت سَمْحَةٌ

بالحق من مِلَلِ الهُدى غرّاء

---

(1) الشوقيات ج١/ ٣٤-٣٩، والقصيدة مغنّاة من الشعر الغنائي.

بُنِيَتْ على التوحيدِ، وهي حقيقةٌ

نادى بها سُقراطُ والقُدَماءُ

فرسَمْتَ بعدَك للعبادِ حُكومةً

لا سوقَةٌ فيها ولا أُمَراءُ

الله فوقَ الخلقِ فيها وحدَهُ

والناسُ تحت لِوائِها أَكْفاء

والدينُ يُسر، والخلافة بيعةٌ

والأمرُ شُورى، والحقوقُ قضاء

والبِرُّ عندك ذِمَّةٌ، وفريضةٌ

لا مِنَّةٌ ممنونَةٌ وجَباءُ

جاءت فوحَّدَتِ الزكاةُ سبيلَهُ

حتى التقى الكرماءُ والبُخَلاء

أنصفت أهلَ الفقرِ من أهلِ الغِنَى

فالكُلُّ في حَقِّ الحياةِ سَواءُ

إنه يذكر الدعائم والركائز التي قام عليها الإسلام، فقد بني الإسلام على التوحيد، واستن الرسول للعباد حكومة تمتاز بالعدل يرفرف عليها، فلا فرق بها بين غني وفقير، بل الله وحده هو المتجلي على العباد، وهو فوق الجميع، وكذلك يوضح أمور هذه الحكومة، فبين أن الدين يسر وليس عسراً، ويؤكد أن الخلافة الإسلامية

بيعة من المبايع إلى الخليفة، والأمر شورى بين المسلمين والحقوق يجب أن تؤدى وتقضى إلى أصحابها.

فالتأثر بالهدي الإسلامي وبالقرآن واضحاً أبرز الوضوح في هذه القصيدة، وأركان الإسلام بها مبيّنة، فمن التوحيد إلى العدل، إلى الخلافة، إلى الزكاة، كلها جاءت بتناسق مطّرد، وبحسن إظهار وفضل بيان، كما نراه ينافح عن الإسلام في نهج البردة راداً عنه التهم بسفك الدماء، فمن قوله:

قالوا غزوتَ ورُسْلُ الله ما بُعِثوا
لقتلِ نفسٍ ولا جاءوا بِسَفْك دَم

جهلٌ وتضليلٌ أحلامٍ وسفسطةٍ
فتحتَ بالسيف بعد الفتحِ بالقلم

والشرُّ إن تَلْقَهُ بالخير ضِقْت به
ذَرْعاً وإن تَلْقَهُ بالشَّرِّ يَنْحَسِم

سَلِ المسيحيةَ الغرّاءَ كم شربت
بالصَّاب من شهوات الظالم الغلم

طريدة الشرك يؤذيها ويوسِعُها
في كل حين قتالاً ساطِعَ الحَدَمِ

في نهج البردة يذكر الخلفاء الراشدين أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب الفاروق، وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب ويمدحهم بما قدموا للإسلام

والمسلمين من فضل، فيقول[1]:

وما بلاء أبي بكر بمُتَّهم
بعد الجلائل في الأفعال والخِدَمِ
بالحزمِ والعزمِ حاطَ الدين في محن
أضلَّتِ الحلمَ من كهل ومحتلم
وَحِدْنَ بالراشد الفاروق عن رشدٍ[2]
في الموت، وهو يقينٌ غير منبَهم

ويقول عن عثمان، ويشير إلى فتنة قتله والقرآن في يده، ويقتل وهو صائم فيقول[3]:

أو كابن عفانَ والقرآنُ في يده
يحنو عليه كما يحنو على الفُطُم
ويجمع الآيَ ترتيباً وينظمُها
عِقْداً بجيدِ اللَّيالي غير مُنْفصِم

وهذا إشارة إلى جمع القرآن الكريم من قبل عثمان، وبه يظهر تأثره بالقرآن الكريم ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩].

---

(1) الشوقيات/ ج١/ ٢٠٦-٢٠٧.

(2) نفسه/ ج١/ ٢٠٧.

(3) الشوقيات/ ج١/ ٢٠٦.

ويقول عن دور الإمام علي بن أبي طالب في علمه وشجاعته في أوقات السلم والحرب:

وكالإمـــام إذا مـــا فَـــضَّ مُزدحمـــاً

بمـــدمع في مـــآقي القـــوم مـــزدحم

الزاخـــر العـــذب في عِلْـــم وفي أدبٍ

والنـاصر النَّـدْبُ في حـرب وفي سَـلَمِ

ويحدثنا عن خالد بن الوليد ويصفه بالسيف الناصر للحق الذي سُلَّ على أهل الشرك، فيقول[1]:

خلقـــــت لأعظـــــم الـــــسيوفا

إلا الـــــشريف العـــــالي العيوفـــــا

النـــــاصر الحـــــق عـــــلى المقاتـــــل

والـــــضارب الباطـــــل في المقاتـــــل[2]

كـــــابن الوليـــــد موئـــــل الأعـــــلام

ســـــيف الإلـــــه أســـــد الآجـــــام

نفـــــس غـــــذّتها الجاهليـــــة الـــــدما

وأرضـــــعتها جـــــرأة ومقـــــدما

---

(1) دولة العرب/ ٦٩.

(2) دول العرب (ص٦٩).

فكـــان مـــن عنايـــة الإســـلام

بـــه اكتـــساب أدب الإســـلام

ثم يعطف على الخلافة حادباً عليها وحانياً، وذائداً عن حياضها ببراعته المعهودة، وما ذاك إلا حبًّا لله وهوىً للحق والإصلاح، فيقول[1]:

عهـــد الخلافـــة فيّ أول ذائـــد

عـــن حوضـــها ببراعـــة نـــضاح

حـــبّ لـــذات الله كـــان ولم يـــزل

وهـــوى لـــذات الحـــق والإصـــلاح

ولشوقي غير البردة من المدائح النبوية في مناسبات عديدة، منها ذكرى المولد النبوي ومطلعها[2]:

ســـلوا قلبـــي غـــداةَ ســـلا وتابـــا

لعـــلَّ عـــلى الجـــمالِ لـــهُ عِتَابـــا

ثم الهمزية التي مطلعها[3]:

كيـــف ترقـــى رُقِيَّـــكَ الأنبيـــاءُ

يـــا ســـماءً مـــا طاوَلَتْهـــا سَـــماءُ

---

(1) انظر الأدب/ ٧-١٢.

(2) ج١/ ٦٨-٧٢.

(3) ديوان البوصيري/ ٤٩-٧٧ (سماها البوصيري أم القرى في مدح خير الورى/ ديوانه/ ٢٦. سنا وسناء: جناس ناقص.

لم يُساووك في عُلاكَ وقد حا

ل سَنَا منك دونهم وسَنَاءُ

ونحن نرى أنه في القرون الأخيرة، لقلما نجد ديوان شاعر يخلو من مديح للرسول، وإن كان يتسم في الغالب بالركاكة والضعف، لما كان بها الشعر في ذلك الوقت من ضعف وتكرار للصور الأدبية، وما بها من محسنات بديعية متكلفة وليست من سيل الخواطر.

نستمع كذلك إلى قصيدة علي الدرويش الذي يضارع بها بردة البوصيري، ويقول فيها[1]:

يا مولداً هلت الأنوارُ في الحَرَم

مني سلامٌ على أنوارِ ذي سَلَم

وكل يوم استضاء الكون وهو دجى

بدراً بَدَا ونسيماً دبَّ في النَّسَم

فلا سرير ولا اهتزت قوائمه

ولا أمير وما تلقاه ذا رحم

عليه صلى وسلم ربنا وعلى

أصحابه ابتداء الحمد مختمتي

---

(1) ديوان علي الدرويش (ص٢٥٧).

جد الضعف والركاكة والتكلف وفتور العاطفة، وتحس أن كل همّ الشاعر اللعب بالألفاظ فيأتي بتورية أو جناس[1].

ثم يطالعنا بعد ذلك البارودي بمدائحه النبوية، وأشهرها قصيدة (كشف الغمة في مدح سيد الأمة) ومطلعها[2]:

يا رائد البرق يمم دارة العلم

واحد الغمام إلى حي بذي سلم

أعد على السمع دار البان والعلم

واعذر شآبيب دمعي إن جرت بدمي

لم اتخذ بعدها داراً أُقيم بها:

إلا تذكرت أيامي بذي سلم

وقد ضمّنها سيرة الرسول منذ ولادته إلى أن توفي، كما يقول في مقدمة القصيدة، مما أدى إلى ضعفها، وجعلها كأنها سرد تاريخي، إلا أنها تمتاز بوصف غزوات الرسول وصفاً حياً رائعاً وذلك يرجع إلى طبيعة البارودي كجندي خاض غمار الحروب، فحديثه عنها حديث مجرب لها، عالم بها[3]. كما مدح الرسول بقصيدة طويلة يتوسل فيها بجاهه ويطلب شفاعته ويرجو الرحمة والمغفرة من الله بسببه، ويقول[4]:

---

(1) شوقي وشعره الإسلامي د. ماهر حسن فهمي.

(2) ديوان محمود سامي البارودي / ٥٤٢، قراءة ثانية في البارودي، د. عمر محمد الطالب.

(3) شوقي وشعره الإسلامي د. ماهر حسن فهمي.

(4) ديوان البارودي.

هــو النبــي الــذي لــولا هدايتــه

لكــان أعلــم مــن في الأرض كــالهمج

أنا الــذي بــتّ مــن وجـدي بروضـته

أَحِــنُّ شــوقاً كطــير البَانــةِ الهَــزِج

هاجــت بــذكراه فاكتــست وَلَهــاً

وأي صــبٍّ بــذكر الــشوق لم يَهِــج

يا رب المصطفى هب لي وإن عَظُمَـت

جرائمـي، رحمـةً تغنـي عــن الحِجَـجِ

ولا تَكِلْنــي إلى نفــسي فــإن يــدي

مغلولــةٌ وصــباحي غــير مُنْــبَلِجِ

وبالرغم من أن شوقي كان يعيش حياة فارهة، فلم تلهه الرفاهية، وبلهنيّة العيش التي يتقلب في نعمائها، ويتلذذ في اغترافها، ويتفيأ في ظلالها عن أن يكون ذلك الشاعر الذي تحس أنه زاهداً وربما متصوفاً وإن كنا نستبعد تصوفه بالمعنى المفهوم لكمة التصوف. ننظر إليه وهو يدعو ربه متضرعاً إليه أن يحقق دعاه المرتجى، فيقول[1]:

ربنــا يــا ذا الــتجلي والجــلال

يــا خفــي اللطــف يــا رب النــوال

(1) الشوقيات.

هـب لنـا الـصالح مـن عمـر ومـال

ربنـا والْطُـفْ بنـا في كـل حـال

ربنـا ثبّـت عـلى الحـق القلـوب

وامنـع الأسـواء عنـا والخطـوب

ربنـا اللهـم جنّبنـا الـذنوب

واهـدنا الحكمـة في كـل الفعـال

ربنـا اللهـم أصـلح شـأننا

وأقـم في نفعنـا حكامنـا

ربنـا واحفـظ بنـا أوطاننـا

واجعـل الملـة في أوج الكـمال

هذا هو شعر التدين والزهد، والضراعة إلى الباري أن يلطف به، ولم يقصر الدعاء والسؤال لنفسه وحسب، بل وسع ضراعته ليشمل الخير والسلام لوطنه الكبير ولملته الإسلامية. وهكذا كان شوقي أثيراً لا يعرف الأثرة، بعيداً عن الأنانية والذاتية، وإنما كان يسأل لوطنه ويحدب على دينه، ويطلب له الرفعة والمنعة، ويسأل الله أن يصلح ولاة الأمر، إذ بهم تكون المنفعة.

وشوقي في قصيدته الهمزية ينبئ بحبه للعرب والعربية، والإسلام وكتابه ولغته وبيته العتيق، وقد تحدث فيها عن قداسة البيت وعظمته، وتاريخه وسدنته من قريش أبناء إسماعيل ومن العرب الميامين الذين انتشروا في كل صقع.

ولا يفوتنا أن نذكر أن شوقي احتفل بتاريخ الإسلام في قصيدته الفريدة الهمزية

في بداية الديوان (كبار الحوادث في مصر) والتي سجل بها تاريخ مصر القديم وما تعاورها من غزاة ماراً بذكر سيدنا موسى وعيسى، وحكم القياصرة والفرس إلى أن يبلغ إلى رسول الله عليه السلام، فيقول:

أشرقَ النُّـــورُ في العـــوالِمِ لـــمَّا

بَـــشَّرَتْها بأحمـــــدَ الأنبـــــاءُ

بـــاليتيم الأُمِّـــيِّ، والبَـــشَر المـــو

حَـــى إليـــه العلـــومُ والأســـماءُ

قـــوةُ الله إن تولَّـــتْ ضَـــعيفاً

تعبـــت في مِرَاسِـــهِ الأقويـــاءُ

ويسجل في هذه القصيدة شرف الرسول ودعوته الناس للإيمان به وبرسالته وبإله واحد لا شريك له، ويذكر فتح عمرو بن العاص لمصر، ويسير على خطى التاريخ ليلهج بذكر صلاح الدين الأيوبي ومدح الدولة الأيوبية، فيقول:

واذكـــر الغـــرّ آلَ أيـــوبَ وامـــدح

فمـــن المـــدح للرجـــال جـــزاء

هـــم حمـــاةُ الإســـلامِ والنفـــرُ البِيـــ

ـــضُ الملـــوك، الأعـــزةُ، الـــصُّلَحاء

وإذا جاز لنا أن نذكر أن شوقي لم يكن مبتدعاً بالسير مع التاريخ الإسلامي وسرد أخبار الخلفاء والعظماء المسلمين، إذ أنه تأسى بمن سبقوه كابن المعتز[1]، الذي

(1) طبقات الشعراء المحدثين/ عبد الله بن المعتز.

نظم تاريخ المعتضد العباسي وكما فعل ابن عبد ربه[1] في نظم تاريخ الناصر الخليفة الأموي الذي حكم الأندلس خمسين عاماً من ٣٠٠-٣٥٠هـ.

وبها ينظم ابن عبد ربه القصائد الطوال في شرح سياسته، وما أضفاه على الإسلام من خير في حكمه ويسير بها مع سني حكمه فيقول[2]:

قد أوضح اللهُ للإسلام مِنْهاجاً

والناسُ قد دخلوا في الدّين أفواجا

وقد تَزَيَّنَتِ الدُّنيا لساكِنِها

وكأنما أُلْبِسَت وَشْياً وديباجا

يا ابن الخلائفِ إن المُزَن قد علمت

نَداكَ ما كان منها الماء ثَجَّاجا

والحربُ لو علمت بأساً تقول به

ما هَيَّجت من حَمِيَّاك الذي هاجا

مات النِّفاقُ وأعطى الكفرَ ذمته

وذلَّتِ الخيل لجاماً وأسراجا

وأصبح النصرُ معقوداً بألويةٍ

تَطوي المراحلُ تهجيراً وإدلاجا

---

(1) العقد الفريد/ ج٤/ ٤٩٩.

(2) كتاب العسجدة الثانية في الخلفاء وتواريخهم وأخبارهم، العقد الفريد أبي عمر بن أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي -الجزء الرابع/ ٤٩٩.

أدخلــتَ في قُبَّــةِ الإســلامِ مارقــةً

أخـرجتهم مـن ديـار الـشرك إخراجـا

بجحفـلٍ تُـشْرِقُ الأرضُ الفـضاءَ بـه

كــالبحرِ يقــذف بــالأمواج أمواجــا

يقــودُه البــدرُ يَــسري في كواكبــه

عَرَمْرَمــاً كــسوادِ الليــلِ رَجْراجــا

فإننا نرى لزاماً علينا أن نعده رائد التجديد في هذا الميدان دون منازع، إذ أحسن ربط التاريخ الإسلامي بصانعيه وصانعي بطولاته وعظمته ربطاً محكماً، ونسجه نسجاً يصعب نكثه وذلك بما أوتي من عبقرية فذّة وشاعرية محلقة، وموهبة جليلة.

ولم يكتفِ شوقي بالبردة وبالهمزية التي وفّق بها أكثر ما وفّق في البردة، فلعله في الهمزية لم يكن محتذياً كما كان في البردة، وقد بلغت في الجودة الأدبية والإتقان ما لم تبلغه مدحة أخرى فوق ما اشتملتا عليه من سيرة الرسول وتحليل شريعته والكشف عن محاسنها وأسرارها العجيبة[1] إلى موضوعات اقتصادية وسياسية، وكلها تنطلق من منطلق الحرص على الوحدة الإسلامية، وسلامة مصر كونها قلب الإسلام وشريان من شرايينه الحيوية التي يجب أن تصان. بل إنه ينتهز فرصة حلول ذكرى المولد النبوي الشريف ليصوغ قصيدة رائعة بائية تعد من غرر شعره، وإذا ما قرأنا القصيدة رأيناها مفعمة بالروح والمعاني الإسلامية، فبعد الافتتاحية والتي يطلب فيها

(1) (ص٣٥٠) -المتنبي وشوقي-.

أن يسأل قلبه عما سلا وعما يعتب على الجمال، فإنه ينتقل من ذلك ويحسن إلى تدبيج حكمة صادقة حين يقول[1]:

وكل بساط عيشٍ سوف يُطْوى

وإن طالَ الزمانُ به وطابا

فهذه سنّة الحياة ونظام الكون منذ خلق الله الخليقة إلى يوم أن يرث الله الأرض وما عليها.

في هذه القصيدة يركز شوقي جهده على احتقار الدنيا والزهد بها وبمفاتنها، والتأكيد على أن الإنسان مهما بلغ ومهما وصل إليه من جاه ومال، فإنه لا محالة زائل، وسيدفن مثله في ذلك مثل الرسل السابقين، لا فرق في الموت بينه وبينهم. وبما عرف عنه من أسلوب عذب يتوجه بالخطاب إلى الأغنياء والبخلاء منهم خاصة أن عليهم حقاً معلوماً ورزقاً مقسوماً يجب أداؤه، ذلكم هو الزكاة حتى يسود المجتمع المحبة والسماحة، ويبتعد عن الحق والضغينة وهو في هذه الصورة ينطلق من أحكام الإسلام والحض على الالتزام بركن مهم من أركانه وهو الزكاة مؤكداً أن المال داء عضال في هذه الدنيا يحرص عليه الأغنياء حرصاً شديداً[2].

ولم أر مثلَ جمعِ المالِ داءً

ولا مثلَ البخيلِ به مُصابا

---

(1) الشوقيات/ ج١/ ٦٨.

(2) الشوقيات/ ج١/ ٦٩.

والله سبحانه يقول في كتابه الحكيم ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا . وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر:١٩-٢٠] فهو ينطلق من منطلق إسلامي، ويبدو أثر القرآن واضحاً في شعره. كما يؤكد على أن الإنسان لا يركن إلى الكسل والتراخي ويقعد عن العمل متمنياً سائلاً، فإن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة، ولكن الله يرزق الناس بعضهم من بعض، ويشدد على ضرورة السعي والجد، والاجتهاد حتى يصل الإنسان إلى مبتغاه، وينتزع ما يسمو إليه ويتطلع انتزاعاً[1].

ومـــا نيـــلُ المطالِـــب بـــالتَّمَنِّي

ولكـــن تُؤْخَـــذُ الـــدُّنيا غِلابـــا

وينتقل بعد ذلك إلى الإشادة بمولد الهادي رسول الله، إذ عمّت البشائر البوادي والمدن مادحاً آمنة بنت وهب على ما قدمت للبشرية (وهذا من فضل الله ولا دخل لآمنة في ذلك) وبه يصف الرسول الكريم بأوصاف حسية ومعنوية وبولادته ازدهرت يثرب ومكة والبطاح. وشوقي في هذه القصيدة كعادته يدعو ويستشفع الرسول للمسلمين جميعاً، وليس لنفسه وحسب، مبيناً أن عليهم أن يحذو بحذوه ويسترشدوا بهديه، ويقتدوا به في أعمالهم، وبذلك يكون لهم حجاباً وصوناً من التردي في هذا النحس، مؤكداً أن الأخلاق التي جاء بها الإسلام هي أفضل الأخلاق وأجمل الصفات.

وشوقي المسلم الذي يشيد بأركان الإسلام من صلاة وزكاة وجهاد وحج، لا ينس أن يشيد بالحج وفضائله، ويصف مناسك الحج وصفاً حاذقاً دقيقاً كأنه موجود

---

(1) الشوقيات/ ج١/ ٧١/ من الشعر الغنائي/ وهي مغناة.

مؤدٍ لشعائره، متابع للحجيج برواحهم وغدوهم حتى ليخيل إلى القارئ أنه فعلاً مع هؤلاء الحجيج يطوف معهم ويؤدي مناسك الحج كما يؤدون. ولعل كثيراً من الحجاج يحضرون مناسك الحج لا يستطيعون وصف المناسك وأدائها على وجهها الصحيح. فمن عرفات الله إلى باب الحرم، حيث جبريل عليه السلام سفير الله إلى الرسول يشيع بكفه الرسائل الرحمانية الطيبة، إلى الكعبة الشريفة الغراء إلى ميزاب الماء في الجبل إلى زمزم المباركة التي يتشبه ماءها بماء الكوثر، إلى رمي الجمرات، كلّ هذه الشعائر التي يؤديها الحاج يصفها شوقي وصف المشاهد المعاين، بالرغم من أنه لم يحظ بالقيام بهذا الركن المهم وهو الحج.

وإذ تقعد بشوقي همته وتقصر به عزيمته عن أداء الحج على ركوبة أسوة بالخديوي الذي انتدبه ليكون معه، ولكنه اختفى بآخر لحظة، فإنه يذكر أنه لو أعطي ناقة صالح لما سلست له وأسلمت، ويرجو أن تيسر له سيارة أو طائرة حتى يستطيع السفر عليها، وأداء مناسك الحج، ولم يك يعلم أن الله يبقيه حيّاً حتى تنتشر السيارات والطائرات، ومع ذلك لا يقوم بأداء الحج، هذه الفريضة المهمة في جيد الإسلام.

وإنه ليحزّ في النفس أن شوقي بالرغم من الظروف التي كانت متاحة له لأداء هذه الفريضة إلاّ أنه -للأسف- لم يظفر بنيلها، ولم أر له من العذر ما يمنعه عن أدائها بالرغم من تمحل الأعذار وتوسله إلى الله طالباً الصفح والعفو والمغفرة وعدم تلبيته لدعوة الخديوي ، فيقول من قصيدة بعنوان «إلى عرفات الله»[1]:

---

(1) الشوقيات/ ج١/ ٩٨.

دعــاني إليــه الــصالحُ ابــن محمــد

فكــان جــوابي صــالحَ الــدَّعوات

وخــــيّرني في ســــابحٍ أو نجيبــــةٍ

إليــكَ فلــم أخــتر ســوى العَــبَرات

وقــدَّمْتُ أعــذاري وَذُلِّي وَخَــشْيَتي

وجئــتُ بــضعفي شــافِعاً وشَــكَاتي

إلى أن يقول:

ويــا ربِّ، هــل ســيارةٌ أو مطــارةٌ

فيــدنو بعيــدُ البيــدِ والفلــوات؟

ويا ربِّ، هل تُغني عــن العبــدِ حَجَّــةً

وفي العمــر مــا فيــه مــن الهفــوات؟

وتــشهدُ مــا آذيــت نفــساً، ولم أَضِر

ولم أَبْــغ في جَهــري، ولا خطــراتي

ولا غلبتنــــي شِــــقْوَةٌ أو سَــــعَادَةٌ

عــــلى حكمــــة آتَيْتَنِــــي وَأَنَــــاةِ

ولا جــال إلا الخــيرُ بــين سرائــري

لــــدى سُــــدَّةٍ خيريَّــــةِ الرَّغَبَــــات

ولا بــتّ إلا كــابن مــريم، مــشفقاً

عــلى حُــسَّدي مــستغفراً لعــداتي

ولا حُمِّلَــتْ نفــسٌ هــوىً لبلادهــا

كنفــسيَ، في فعــلي وفي نَفَثَــاتي[1]

وإني -ولا مَــنٌّ عليــك بطاعــة-

أُجِــلُّ، وأُغــلي في الفُــروض زكــاتي

أبــالغ فيهــا وهــي عَــدْلٌ ورحمــةٌ

ويتركهــا النُّــسَّاكُ في الخَلَــوات

وأنــتَ وليُّ العفــوِ فــامْحُ بناصــعٍ

من الصَّفْح مــا سَــوَّدْتُ مــن صــفحاتي

وهنا نلمح محاولة لتبرير قعوده عن أداء الفريضة متمثلاً بأقوال العامة التي كثيراً ما نسمعها، وخاصة في هذه الأيام عندما تقذف بوجه أحدهم، وتنعت عليه قعوده في أداء واجب من الواجبات أو فريضة من الفرائض، كعدم أداء فريضة الصلاة أو إيتاء الزكاة مثلاً، فيقول بأن طويته سليمة، وقلبه خال من الحقد والضغينة على الناس، وكل ذلك جميل ومقبول، ولكن بجانب الفضائل التي نوّهت عنها، ما الذي يمنعك من القيام بالفرض وإمكانية القيام به متوافرة وميسورة، والحياة اليوم تعطيك الفرصة للطاعة، فلم لم تهتبلها قبل أن يحل بك شيء الندم، وليت ساعة مندم، والله بعد ذلك غفور رحيم وتواب ...

(1) نفثاتي: جمع نفثة، تطلق على الشعر مجازاً.

فشوقي في هذه القصيدة ينحو هذا المنحنى، ويتجه هذا الاتجاه، وكنا نود ألا نشير إليه بأصبع الاتهام، وننعته بالتقصير والتقاعس عن فريضة من الفرائض، وخاصة هذه الفريضة المهمة وآخر نسك من الفرائض، كان باستطاعته القيام بها، سيما وهو يدعو الناس للتمسك بالدين والعمل على إحاطته بالمهج والدفاع عنه، وإن كان قد عزف عن الحج في بداية العمر ومقتبل الشباب يوم كان الحج على متون العيس، فإنه استمر على عزوفه حتى بعد أن أصبحت السيارات والطائرات متوافرة ومأمونة، فإلى الله نترك أمره، والله يعفو عن كثير.

ولكن ما نودّ أن ننوه به، أن الزكاة بالرغم من أنه يغالي في أدائها، والصلاة وجميع الأعمال الخيرة لا تسد مسدّ هذا القصور؛ لأن الإسلام إنما يبنى على أركان، فإذا انتقص منه ركن شاع الفساد وانتهى به الأمر إلى الاضمحلال والله يقول: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة:٨٥].

ومع شعورنا أن شوقي كان راسخ الإيمان ثابت الجنان، وقف نفسه وقلبه وشعره على الإشادة به، ذابّاً عن حياضه، والتحدث عنه، والدعوة إلى تحكيم الإسلام في الأمور كلها وعلى الرغم من هذا التشبث بعرى الدين والتمسك به، فلم يك مع ذلك متعصباً أو منكمشاً على نفسه، وإنما كثيراً ما كان يلهج لسانه بذكر سيدنا عيسى عليه السلام في أبياته، وأعتقد أن مرد ذلك هو وجود فئة كبيرة من المسيحيين في مصر، ولكن كثرة تردد ذكره على لسان شوقي دعت الأستاذ الدكتور شوقي ضيف يضيق ذرعاً به فيقول: (ونحن مثل سائر الخلق لا يخالجنا أدنى شك في رسوخ العقيدة الإسلامية عند أمير الشعراء، ولكننا لا نملك أنفسنا من العجب لفرط هذا الشاعر

المسلم بذكر السيد المسيح في كل مناسبة، حتى في قصيدته في الحج (إلى عرفات الله)، فقد قال فيها عن نفسه:

ولا بتّ إلا كابن مريم مشفقاً

على حسّدي مستغفراً لعداتي

ولا يجوز في الإسلام أن يستغفر مسلم لكافر، قال سبحانه لسيدنا إبراهيم: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة:١١٤].

وشوقي هو ابن مصر البار، وبلبلها المغرد الصداح لا ينس أن يشيد بصرح من صروح الإسلام في مصر، ألا وهو الأزهر الشريف الذي جعله الله في كنانة مصر كالبيت الحرام في مكة المكرمة حسبما يرى، فهو الذي حفظ عروبة وإسلام مصر، ومنه خرج هداة للعالم يحملون مشاعل الحرية والدين، ومن خريجيه من حملوا ألوية النصر وجاهدوا في سبيل الله حق جهاده، فهو يشيد به على أنه منارة عالية من منائر الإسلام، كما يقول.

* * *

تصديه بعنف وإباء للاستعمار الفرنسي والإيطالي والإنجليزي، ودعوته مبكراً للوحدة العربية لأنها الدرع الحصين الذي يصون الأمة الإسلامية ويحفظ عليها كيانها

بالرغم من أن شوقي كان متهماً بأنه يعيش في برج عاجي بعيداً عن تحسس مشكلات الشعب الإسلامي أو الشعب الذي يعيش بين ظهرانيه، فإننا نرى أن حسّه الشعري ينداح في أطراف البلاد العربية جمعاء، ويلتزم بالدفاع عن أرض العروبة التي هي موطن الإسلام بالمفهوم الأعم الأوسع، فلا يحرضهم للدفاع عن أرض مصر أو تركيا أو أرض وشعب ليبيا فقط، بل نراه يتعدى ذلك إلى بقاعٍ أخرى في العالم الإسلامي، كبغداد والشام، وينعى على المستعمرين الكافرين حقدهم وإزهاق الأرواح، ويتمنى لو بقيت العلاقة بين (الشعوب) على الود والوئام[1]:

ركـــزوا رُفاتَـــكَ في الرِّمـــال لِـــواءَ
يـــستنهضُ الـــوادي صـــباحَ مـــساءَ

يـــا ويحهـــم! نـــصبوا منـــاراً مـــن دَمٍ
تـــوحي إلى جيـــلِ الغَـــدِ البغـــضاءَ
مـــا ضرّ لـــو جعلـــوا العلاقـــةَ في غـــدٍ
بـــين الـــشعوب مَـــوَدَّةً وإخـــاءَ؟
جـرحٌ يـصيحُ عـلى المـدى، وضـحيةٌ
تـــــتلمَّسُ الحُرِّيَّـــــةَ الحمـــــراءَ

(1) الشوقيات/ ج٣/ ١٧-١٨.

يـا أيُّهـا الـسيفُ المُجَـرَّدِ بـالفلا
يكسو الـسيوفَ عـلى الزمـان مَـضاءَ
تلـك الـصحارى غِمْـدُ كـلِّ مُهَنَّـدٍ
أبـلى فأحـسنَ بالعَـدُوِّ بَـلاءَ
وقبـورُ مـوتَى مـن شـباب أُميَّـةٍ
وكهـولهم لم يبرَحُـوا أحيـاءَ
لـو لاذَ بـالجوزاءِ مـنهم مَعْقَـلٌ
دخلـوا عـلى أبراجِهـا الجَـوْزَاءَ
فتحـوا الـشَّمال: سـهولَهُ وجبالَـهُ
وتوغلـوا، فاسـتعمروا الخـضراءَ
وَبَنَـوْا حـضارَتَهُم فطـاول رُكنُهـا
(دار الـسَّلامِ) و(جلَّـقَ) الـشماءَ[1]

خُيِّرْتَ فاخترتَ المبيـتَ عـلى الطَّـوَى
لم تَـبْنِ جاهـاً، أو تَلُـمَّ ثَـراءَ
إن البطولـةَ أن تمـوتَ مـن الظَّـما
لـيس البطولـةُ أن تَعُـبَّ المـاءَ

******

(1) دار السلام: بغداد، جلَّق: دمشق.

في ذمّـــةِ الله الكـــريم وحِفْظِـــهِ

جَـسَدٌ (ببرقَـةَ) وُسِّـدَ الـصَّحْرَاءَ

لم تُبْـقِ منـه رحـى الوقـائع أعظُـماً

تـــبلى، ولم تُبْـــقِ الرمـــاحُ دِمـــاءَ

كَرُفـــاتِ نَـــسْر أو بقيـــةِ ضَـــيْغَمٍ

باتـــا وراء الـــسَّافياتِ هبَـــاءَ

بطـلُ البـداوةِ لم يكـن يغـزو عـلى

(تَنْـكٍ) ولم يَـكُ يركـبُ الأجـواءَ[1]

لبـى قـضاءَ الأرضِ أمـسِ بمُهجـةٍ

لم تَخْـــشَ إلا للـــسماء قَـــضاءَ

وافـــاه مرفـــوعَ الجبـــين، كأنـــه

سُـــقراطُ جَـــرَّ إلى القُـــضاةِ رِداءَ

شـــيخ تَمالَـــكَ سِـــنُّهُ لم ينفجـــر

كالطفـلِ مـن خـوفِ العِقـابِ بُكـاءَ

الأســد تــزأر في الحديــد ولم تــرى

في السِّجْنِ ضِرْغاماً بكـى استخذاءَ[2]

---

(1) تنك: الدبابة المستعملة في الحروب.

(2) الشوقيات/ ج١/ ١٩.

وأتـى الأسـيرُ يَجُـرُّ ثِقْـلَ حَدِيـدِهِ

أَسَـــدٌ يجـــرِّرُ جبَّـــةً رَقْطـــاءَ

وتخـــيَّروا الحبـــلَ المهـــين منيّـــةً

لليـــثِ يلفِـــظُ حولَـــهُ الحَوْبَـــاءَ

******

يـا أيهـا الـشعب القريـب، أسـامعٌ

فأصـــوغ في عمـــر الـــشهيد رثـــاءَ؟

أم ألجمَـتْ فـاكَ الخطـوبُ وَحَرَّمَـتْ

أُذُنَيْـكَ حـين تُخاطَـبُ الإصْـغاءَ؟

ذهـب الـزعيمُ وأنـتَ بـاقٍ خالـدٌ

فانقُـد رجالَـكَ، واخـتر الـزُّعَماء

وأرِحْ شيوخَك مـن تَكـاليفِ الـوَغَى

واحمـــل عـــلى فِتْيانِـــكَ الأعْبـــاءَ

في هذه القصيدة تبدو عاطفته المفعمة بالإسلام، المتأججة بالحقد على الطليان، الذين احتلوا طرابلس سنة ١٩١١ اشتبكت على أثرها في حرب مع تركيا، وقامت الأولى بالاستنجاد بالدول الأوروبية، وتستعر الثورة الشعبية في ليبيا، ويقود حركة الثورة والجهاد فيها مجاهد كبير هو عمر المختار، ذلكم هو شهيد المسلمين والعرب، بطل طرابلس الخالد، وهو من الأسرة السنوسية أصحاب الطريقة السنوسية، ذات النفوذ الروحاني العظيم في كثير من الأقطار الإسلامية، ظلّ يقاتل الطليان في سبيل

الذود عن وطنه وقومه حتى قبضوا عليه وأعدموه شنقاً سنة ١٩٣١، وأشيع وقتئذ أنهم سلكوا في إعدامه سبلاً بشعة متوحشة، ولم يرحموا سنّه التي نيفت على التسعين، ولعلهم ألقوه من الطائرة وهي على ارتفاع شاهق لتدّك عظامه (ولكن ما يضير الشاة سلخها بعد الذبح).

في هذه القصيدة الثائرة يبدو شوقي بروح إنسانية مخاطباً الطليان بهذه الروح العالية قائلاً يا ويحهم، لقد قاموا بعملهم الشنيع هذا ينصب مناراً من دم يغرس تصرفهم هذا المشين الحقد والغل في قلوب المسلمين على إيطاليا، ويسأل قائلاً: ما كان يضر هؤلاء لو جعلت العلاقة الإنسانية بين الشعوب كافة تسودها المحبة والصداقة والود؟ ثم يصف إعدام الشهيد المختار بأنه جرح ينزف وسيبقى يصيح ويتفجر منه الدم حتى يحصل على حريته بدمه. ويشيد بالشهيد البطل الذي اختار أن يكون طعماً للرماح ولم يرض بحياة الاستكانة والسكون والميل إلى الترف والرخاء مقدماً حكمة من أروع الحكم حين يقول:

إن البطولةَ أن تموتَ من الظَّما

ليس البطولةُ أن تَعُبَّ الماءَ

نعم إنها لكذلك، وإلا فقدت معناها بين الظلال ورفيف النعيم، إن البطولة تعرف حين تمارس بين القنا وعلى ظباة السيوف! ثم يودع هذا البطل الخالد الذي ما زلنا نتأسى به. ولقد قدمت الأمة العربية الإسلامية الآلاف أمثاله قائلاً أنه في ذمة الله ذلك الجسد الطاهر الذي وسّد الصحراء، صحراء برقة.

ثم يستنكر بشدة تصرف هؤلاء البلهاء الحمقى حين لم يرحموا ضعف هذا الشيخ الكبير ولا سنّه، وإنما شنقوه بطريقة مهينة، حيث طوق الحبل عنقه ولفظ عليه

أنفاسه، وينوه به قائلاً أنه أغلب ماجد، نعم إنه لكذلك.

لقد كان شوقي جدّ موفقاً في كل بيت من أبيات هذه القصيدة، وهو إنما صدر فيها عن عاطفة حقة، وعن شعور فيّاض لما أصاب هذا البطل كونه فقيداً للإسلام والعروبة، وليس فقيداً لليبيا فقط. وأخيراً لا ينس شوقي في خضم اندفاعه، وصبّ جام غضبه على اللئام المستعمرين أن يقدم التعزية إلى الشعب الليبي بفقد زعيمهم، مؤكداً أنه إن قضى فإن في ليبيا من الأبطال من يحل محله، وما على الشعب الليبي إلا أن ينقد رجاله ويقدم الزعماء، داعياً الشباب أن يتحملوا المسؤولية على عواتقهم الفتية، ويَدَعُوا الشيوخ يركنون إلى السلام والراحة.

وشوقي صاحب القلب الكبير الذي اتّسع واتّسع حتى استطاع أن يسع العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه، يتطوع عندما بلغه أن الشيخ علي يوسف قد أنشأ جمعية الهلال الأحمر في نوفمبر تشرين ثاني (١٩١١) وتطوع كثير من المصريين للدفاع عن ليبيا بدافع من الحمية الإسلامية، حين أغارت عليها إيطاليا، بالرغم من معارضة الإنجليز لذلك، فينسج من نبضات قلبه، ورموش عينيه هذه القصيدة التي تثير الحماسة والحمية في النفوس حاثاً الشعوب الإسلامية التي تجمعها الرابطة العثمانية على التعاون والاتحاد، فيقول[1]:

يا قومَ عثمانَ -والدنيا مداولةٌ-

تعاونوا بينكم يا قومَ عُثمانا

---

(1) الشوقيات/ ج١/ ٢٤٥-٢٤٧.

كونوا الجدارَ الذي يقوى الجدارُ به

فالله قد جعل الإسلامَ بُنيانا

البرُّ من شُعَب الإيمان أفضلها

لا يقبل الله دون البِرِّ إيمانا

هل ترحمون -لعل الله يرحَمُكُم-

بالبيد أهلاً، وبالصحراء جيرانا؟

في ذمة الله -أو في ذمة- نَفَرٌ

على طرابُلُسٍ يقضون شجعانا

إلى أن يقول[1]:

هذا الهلال الذي تُحيونَ لَيْلَتَهُ

أبهى الأهِلَّةِ عند الله ألوانا

أراه من بين أعلام الوغى مَلَكا

وما سواهُ من الأعلام شيطانا

لحامليه جلال منه مُقْتَبَسٌ

كأنَّما رفعوا للناس قرآنا

كأن ما ابيضَّ في أثناء حمرته

نور الشهيد الذي قد مات ظمآنا

---

(1) الهلال: اسم راية الدولة العثمانية وهي حمراء اللون في وسطها رسم الهلال بلون أبيض.
رضوانا: من الملائكة الكرام موكل بأبواب الجنة.

كأنــه مــن جمــال رائــع وهُــدىً

خــدودُ يوسُــفَ لمــا عــفَّ ولهانــا

كأنَّــــه وردةٌ حمــــراءُ زاهيــــةٌ

في الخلد قـد فُتِّحَـتْ في كـفِّ رِضـوانا

مشيراً في ذلك لقوله -صلوات الله وسلامه عليه-: «الإيمان بضعٌ وسبعون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان».

ويقول حافظ في قصيدته التي قالها في حرب طرابلس سنة ١٩١٢[1]:

طمــع ألقــى عــلى الغــرب اللثامــا

فاســتفق يــا شرق واحــذر أن تنامــا

يستثير فيها حمية المصلين بتصوير ما ارتكبت الجيوش الإيطالية من جرائم:

كبَّلــــوهُم، قتَّلــــوهم، مَثَّلــــوا

بــذوات الخِــدْرِ طــاحوا باليتــامى

ذبَّحــــوا الأشــــياخَ والزَّمْنَــــى ولم

يرحمــوا طفــلاً ولم يُبقــوا غلامــا

أحرقــوا الــدور اســتَحَلُّوا كــل مــا

حرَّمَــتْ لا هــايُ في العهــد احترامــا

(1) ديوانه/ ج٢/ ٦٦.

بـــــارك المطـــــران في أعمالهـــــم

فـــسلوه: بـــارك القـــوم علامـــا؟

أبهـــــذا جـــــاءهم إنجـــــيلهم

آمـــراً يلقـــي عـــلى الأرض الـــسلاما؟

وإنهُ لمن حسن الطالع أن نرى هذه الأيام القيادة الليبية بزعامة الرئيس معمر القذافي قد اتخذت موقفاً سياسيًّا موفقاً وصلباً من حكومة إيطاليا بأن عليها الاعتراف بجرائمها الغادرة في أثناء فترة الاحتلال لليبيا، وأن تعتذر للشعب الليبي لما الحقت به من كوارث ودمار وسفك دماء، وأن تعوض ليبيا ماديًّا -وإن كان ذلك رمزيًّا-، فكان أن اعتذرت حكومة إيطاليا الحالية بذلك، وأذعنت للمطالب الليبية، وقدمت تعويضاً ماليًّا مقداره ثلاثة مليارات من الدولارات الأمريكية. ولا ينقص ليبيا هال، ولكن الهدف الذي سعت إليه القيادة الليبية هو الاعتراف ببغيهم وعدوانهم، فأين الحكومات العربية الأخرى، التي تنهج هذا النهج مع المحتلين البغاة، وخاصة الحية الرقطاء بريطانيا التي كان لها وما زال الدور الأكبر في نهب خيرات العرب والمسلمين واحتلالها لديارهم وقتل لأبنائهم، وحتى إسقاط خلافتهم، وغرس خنجر مسموم في خاصرة العرب والمسلمين، دون أن ننس الاستعمار الفرنسي الذي أهلك الحرث والنسل في بلاد الغرب العربي وبلاد الشام؟

ونراه كذلك يمتد ببصره بعيداً ليشمل جميع أجزاء الشرق، وها نحن نبصره، وقد عدت عوادي الزمن على عروس الدنيا وزهرة الشرق (دمشق) ذات الأصالة العريقة الموغلة في القدم عروبة وإسلاماً، نراه يستجمع مشاعره الفوارة، ويهب ناسجاً مبدعاً قصيداً قلّ من يستطيع به مداناته، راثياً لحالها، محرضاً المسلمين على الوقوف بجانبها معدداً مآثر الدمشقيين، حاملاً على الفرنسيين، حملة شعواء مبيناً

كذبهم ونفاقهم، طالباً منهم الكف عن عملهم العدواني الإجرامي، وهم من يدّعون صيانة الحريات، ومن ناضلوا طويلاً من أجل نيلها؟؟!

يقول من قصيدة بعنوان «نكبة دمشق»[1]:

سلام من صبا (بردى) أَرَقُّ
ودمعٌ لا يُكَفْكَفُ يا دمشق
ومعذرة اليَراعةِ والقوافي
جلال الرُّزء عن وَصْفٍ يَدِقُّ
لحاها الله أنباءً توالَتْ
على سمع الوَلِيِّ بِما يَشُقُّ

يُفَصِّلُها إلى الدُّنيا بريدٌ
وَيُجْمِلُهَا إلى الآفاقِ بَرْقُ
تكادُ لروعةِ الأحداثِ فيها
تُخال من الخُرافة وَهْيَ صِدْق

وشوقي، المسلم المؤمن، وقد صدمته هذه الأنباء المريعة، وما لحق بدمشق من أهوال أفجعه أن تصل إلى هذه الحالة المؤلمة، فقد عزّ عليه أن تهتك أستارها وتدك معالمها، وتفضح على يد الكفر غيدها وخرائدها، فنراه يتألم متوجعاً إذ يقول[2]:

---

(1) الشوقيات/ ج٢/ ٧٤-٧٧. قيلت في حفلة أُقيمت لإعانة منكوبي سوريا في مسرح حديقة الأزبكية في يناير كانون أول ١٩٢٦.

(2) نفسه/ ٧٦، وهن: نصف الليل أو بعده بساعة.

سـلي مـن راع غِيـدكِ بعـد وَهْـنٍ

أبـين فـؤاده والـصخر فـرق؟

وللمـستعمرين -وإن ألانـوا-

قلـوبٌ كالحجـارَةِ لا تَـرِقُّ

رمـاك بِطَيْـشِهِ، ورمـى فرنـسا

أخـو حـربٍ، بـه صَـلَف، وَحُمْـقُ

إذا مـا جـاءه طُـلابُ حـقٍّ

يقـول: عـصابةٌ خرجـوا وشـقوا

نـصحت ونحـن مختلفـون داراً

ولكـن كُلُّنـا في الهَـمِّ شَرْقُ

ويجمعنـا إذا اختلفـت بـلادٌ

بيـانٌ غـيرُ مختلـفٍ ونطـقُ

وكأنما التاريخ يعيد نفسه، فإن عباراته الموحية تلك، تذكرنا اليوم بتخريف عصابة الإفك والعدوان (ما يُسمى اليوم إسرائيل) إذ تقول عن ثوار المسلمين الأشاوس من أبطال فلسطين وأبناء البلاد العربية المسلمين الذين نذروا أنفسهم وأرواحهم لخدمة دينهم ووطنهم، وأقسموا ليعودون منتصبي القامة، مرفوعي الرأس، أو ليقضوا كرماء، نراهم أطلقوا عليهم لفظ (المخربين) ثم ابتدعوا لفظة أخرى هي الإرهابيين، ولعمري أننا ندري أنهم هم الإرهابيين، والعالم كله يعي ذلك ولكن له عمىً وصمم عن رؤية

الحق، وهذا ما نراه كذلك في احتلال العراق العظيم من دولة الكفر والبغي أمريكا، التي عانت النساء في أرض العراق، وما زال أهلها في العراق يكتوون بنار احتلالهم البغيض، ولكن الذي يحز بالنفس أنهم استطاعوا أن يفرقوا بين أهلنا في العراق، ويثيروا فيهم نعرة الجاهلية بالتقسيم الطائفي، فهذا سني وذلك شيعي، فهذه دائماً هي مهزلة القوى المحتلة، ولا بد لمثل هذه القوى الطاغية من الاستنجاد بقواميس تضعها وقوانين تستنها لتجد ألفاظاً ترمي بها الخارجين على سلطانها، الرافضين الركوع بين يديها والتسبيح بجلالها، والمستهينين بقوتها وجبروتها لعلمهم الذي لا يخالطه شك، ولا يخالجه التباس، أن الحق بجانبهم وأنه سيعود ولو بعد حين...

وينتقل شاعرنا لمخاطبة الفرنسيين مباشرة، مستوحياً من ما يسمونه (بالثورة الفرنسية) التي قامت مع مطلع القرن التاسع عشر لتحرر الفرد وتنشر المثل العليا حسب ادعائهم، فيقول:

دم الثـــوارِ تعرِفُـــهُ فَرنـــسا
وتعلـــمُ أنـــه نـــورٌ وحَـــقُّ
جـــرى في أرضِـــها منـــه حيـــاة
كَمُنْهَـــلِّ الـــسماءِ وفيـــه رزق
بـــلاد مـــات فِتْيتهـــا لتحيـــا
وزالـــوا دون قومِهِمُـــوا ليبقـــوا
وحـــررت الـــشعوب عـــلى قناهـــا
فكيـــف عـــلى قناهـــا تُـــسْتَرَقُّ!!

أبيات تحمل في طيّاتها الذكرى، وإن الذكرى لتنفع، ولكن المؤمنين، وليس هؤلاء المارقين الطغاة، إنه يصور في عباراته أبلغ صور ويجسّد أدق تجسيد وإفصاح وإبانة، حينما يشبه الحرية بالحياة! فمن الحرية جرت الحياة، واخضرت، وأينعت كأنها السماء المنهمرة بالرزق والخير الوفير. وإن شباب الأمة لتضوى وتفنى في سبيل مبادئها، وفي سبيل حياة وطنها وشعبها، فالشباب وهم الركن المهم في المجتمع يفنون ويقضون كي تبقى الأوطان، فيعرب عن استغرابه وعجبه وهو يرى أن الشعوب تحررت بالقنا، فكيف بها تستعبد وتسترق بما تحررت به!!

إن في عباراته مقابلات بديعة، وطباق أخاذ. مات، تحيا، زالوا، يبقوا، حررت وتسترق، إنها ألفاظ موحية ومعبرة!! وهو في مخاطبته لدمشق والفرنسيين، لم ينس أن يتوجه بالخطاب إلى الثوار الأشاوس أسد العرين وحماة الديار، الذين أشعلوها ناراً متأججة تحت أقدام الأجنبي، لتعيد الأرض الإسلامية من تحت أقدامهم وتحرقهم بلظاها، وتنجاب تلك الغمامة عن أرض العروبة وظئر الإسلام، فيقول:

بنـــي ســـورية اطَّرِحُـــوا الأمـــاني
وألقـــوا عـــنكم الأحـــلام ألقـــوا
وقفـــتم بـــين مـــوتٍ أو حيـــاةٍ
فـــإنْ رُمْـــتُمْ نعـــيمَ الـــدَّهْرِ فاشْـــقوا
وللأوطـــان في دم كـــل حـــرّ
يَـــدٌ سَـــلَفَتْ وَدَيْـــنٌ يُـــسْتَحَقُّ
ومـــن يـــشقى ويـــشرب بالمنايـــا
إذا الأحـــرار لم يُـــسقوا ويَـــسقوا؟

ولا يبنـــي المالـــك كالـــضَّحايا

ولا يُـــدني الحقـــوقَ ولا يحـــق

ففـــي القـــتلى لأجيـــالٍ حيـــاةٌ

وفي الأسرى فِـــدىً لَـــهُمُ وعِتْـــقُ!!

وللحريـــــةِ الحمـــــراءِ بـــــابٌ

بكـــل يـــد مُـــضَرَّجةٍ يَـــدق

جـــزاكم ذو الجـــلال بنـــي دمـــشقٍ

وعِـــزُّ الـــشرقِ أَوَّلُـــهُ دِمَـــشْق

يقول الأستاذ سامي الكيالي (في هذه القصيدة: ارتفع شوقي إلى السماكين، ففاض قلبه بوهج الحرية، حرية الشعوب التي تناضل عن حريتها وسيادتها وكرامتها، وأشار إلى نضال السوريين وثورتهم اللاهبة في تلك الفترات العصيبة، وإلى الكثير من الصور التي أثارت النفوس وجعلتها في نضال دام إلى أن تم الجلاء، وانبلج فجر الحرية والاستقلال).

حقاً إن قصيدته هذه في نكبة دمشق لتستحق منّا وقفة، وقفة تحمل كل معاني الإجلال والإكبار لهذا الشاعر الذي امتلك بين حناياه قلباً خافقاً وثّاباً، يشعر في كل ما يصيب أية دار من ديار الإسلام من أقصاها إلى أقصاها، منصِّباً نفسه بصورة أبدية المحامي الأول عن أرض العروبة والإسلام، فتضمنت أبياته حكماً خالدة كانت وما زالت وستبقى في فم الزمن تنعم بالخلود وتتردد على الأفواه، وتلهج بذكرها الألسن، انظر إليه مستفسراً وما قصد إلا التأكيد:

ومـــن يـــسقي ويـــشرب المنايـــا

إذ الأحـــرار لم يُـــسْقَوْا ويَـــسْقُوا؟

ونحن نتساءل معه نعم! من يصنع هـذا الـصنيع إن لم يـصنعه هـؤلاء؟ ويؤكـد حقيقة ما زالت وحريّاً بها البقـاء، أن بنـاء الممالـك والقيـام عليهـا لا يـتم إلا بتقـديم الجماجم والضحايا قرباناً لها وسياجاً لكيانها، ولم ينس أن يبين الطريق إلى ذلك قـائلاً: إن في القتلى حياة للأجيال القادمة، وفي الأسرى منهم فدى لهؤلاء القادمين وعتـق!! ثم يتغنى في بيته الخالد مختتماً هـذه القـصيدة العـصماء التـي يـشاركه بهـا كـل إنـسان وخاصة في وطننا العربي:

وللحريـــــة الحمـــــراء بـــــاب

بكـــل يـــد مـــضرجة يـــدق

وإن لم تكن الأيدي مضرجة بالدماء، مخضبة بها، تـدق عـلى بـاب الحريـة بقـوة، ومضاء سـواعد، فـأنّى للحريـة أن تفـتح بابهـا، وتفـتح صـدرها معانقـة لاسـتقبال هؤلاء؟؟

وشوقي وهو يتأثر بشدّة بما يحيط به من أحداث، يخاطب الأمة ويناشدها الثورة، ولم تكن صيحاته في واد، والأمة في واد آخر، وإنما سرت قصيدته في الأمة الإسـلامية وأثرت أكبر الأثر وقابلتها الأمة بالارتياح الشديد والعهد بمواصلة المـسيرة الثوريـة وإكمالها حتى يتم الظفر ويتم الجلاء ...

فهذا شاعر الشام الأستاذ شفيق جبري يـشير إلى أثـر قـصيدته القافيـة في الأمـة قائلاً:

كـم هـززت الرجـال في ثـورةِ الـشام

فثـــاروا ولم يُبـــالوا الخطايـــا

نفخـــتَ فـــيهِمُ التلائـــدَ روحـــاً

جعلـــت في الـــشَّدائد المـــوت عـــذبا

فاســتطاروا مِثـلَ الريـاح إلى المـوت

فكـــانوا فيـــه رِياحـــاً نُكبـــا

ففضَـــضْنا عـــن المرابِـــعِ ضَـــيْماً

ســـال فيـــه النَّجِيـــعُ مُزْنـــاً وسُـــحْبا

غـــصبوا الـــشامَ واســـتباحوا حِمـــاهُ

ثـــم طَـــاحُوا ومـــا تَمَلَّـــوهُ غَـــصْبا

هذا هو شوقي، بالرغم مما كان ينعم فيه من رغـد عـيش وطيـب حيـاة وبلهنيـة ورفاء، لم تلهه مثل هذه الأسباب عن تلمس مصير وطنه الكبير وأحداثه.

ومع انبلاج فجر الحرية والاسـتقلال بـسورية، ومـرور الـذكرى الـسنوية لهـذا الاستقلال وذكرى شهدائها الأبرار، الذين سطّروا بدمائهم الزكية أنصع الصفحات وأنقى الـسطور يـشارك شـوقي ذو الوجـدان المتـدفق والعاطفـة الـسيّالة، والـنفس الشديدة الانفعال، والخيال المتحفز الوثاب، فيسكب من وجدانـه الـصافي وعاطفتـه المؤثرة بما حققت سوريا من مكاسب ما كانت لتحققها لولا كفاح أبنائهـا وبطـولتهم

التي غدت مضرب المثل فيقول[1]:

حيـــاة مـــا نريـــد لهـــا زِيَـــالا
ودنيـــا لا نَـــوَدُّ لهـــا انتقـــالا
وعـــيشٌ في أصـــولِ المـــوتِ سُـــمٌّ
عـــصارته، وإن بـــسط الظـــلالا
وأيـــامٌ تطـــيرُ بنـــا ســـحاباً
وإن خِيلَـــتْ تَـــدِبُّ بنـــا نِـــمَالا
قِـصارٌ حـين نَجْـري اللهـوَ فيهـا
طِـــوالٌ حـــين نَقْطَعُهَـــا فِعـــالا
ولم تَـــضِق الحيـــاةُ بنـــا، ولكـــن
زِحَـــامُ الـــسوءِ ضَـــيَّقها مجـــالا
ولم تَقْتُـــل بِراحَتِهـــا بَنِيهـــا
ولكـــن ســـابقوا المـــوتَ اقتتـــالا
ولـــو زاد الحيـــاةَ النـــاسُ ســـعياً
وإخلاصـــاً لَـــزَادَتْهُم جَمـــالا

******

(1) الشوقيات/ ج٢/ ١٨١.

كـــأنَّ اللهَ إذ قَـــسَم المعـــالي

لأهـــل الواجـــب ادَّخَـــر الكـــمالا

إذا فعلـــوا فخـــيرُ النـــاس فعـــلاً

وإن قـــالوا فـــأكرَمُهم مقـــالا

وإن ســـألتْهُمو الأوطـــانُ أعْطَـــوْا

دمـــاً حـــرًّا، وأبنـــاءً، ومـــالا

ثم يتوجه للشعب السوري البطل معزياً مواسياً ما أصابه بفقد بنيه، مؤكداً أن مصر شقيقة سورية وجارتها، فيقول[1]:

بنـــي البلـــد الـــشقيق، عـــزاءَ جـــارٍ

أهـــابَ بدمعـــه شَـــجَنٌ فَـــسَالا

قَـــضَى بـــالأمْس للأبطـــالِ حقـــاً

وأضـــحى اليـــوم بالـــشُّهَداءِ غـــالي

يُعَظِّـــمُ كُـــلَّ جُهـــد عَبْقَـــرِيٍّ

أَكـــانَ الـــسِّلْمَ أم كـــان القتـــالا

******

(1) الشوقيات/ ج٢/ ١٨٢.

بنـــي ســـورية الْتَئِمُـــوا كيـــومٍ

خـــرجتم تطلبـــونَ بـــه النِّـــزَالا

ســـلوا الحريـــةَ الزَّهـــراء عنـــا

وعـــنكم هـــل أذاقَتْنـــا الوِصَـــالا؟

وهـــل نلنـــا كلانـــا اليـــومَ إلا

عراقيـــبَ المواعِـــدِ والمِطَـــالا؟

عـــرفتم مهرهـــا فَمَهَرْتُموهَـــا

دمـــاً صـــبغَ الـــسباسِبَ والـــدِّغَالا

وقمـــتم دونهـــا حتـــى خَـــضَبْتُم

هوادِجَهـــا الـــشريفةَ والحجـــالا

ويشيع بنظراته البعيدة إلى بطل ميسلون الخالد -الشهيد يوسف العظمة- مؤكداً أنه سيذكره ما عاش على ظهر هذه الدنيا؛ لأنه البطل الذي وقف نفسه كبش الفداء لوطنه ونازل الفرنسيين بالرغم من قلّة عَدَدِهِ وعُدَدِه، فكان أن قضوا عليه وعلى جنده البواسل وتهاوت دمشق تحت ضربات مدافعهم[1]:

ســأذكر مـــا حَيِيـــتُ جـــدارَ قـــبرٍ

بظـــاهر جِلَّـــقٍ رَكِـــبَ الرِّمَـــالا

مقـــيم مـــا أقامـــت (مَيْـــسَلونٌ)

يُـــذَكِّرُ مـــصرعَ الأسَـــدِ الـــشِّبالا

(1) نفسه/ ج٢/ ١٨٣.

تَغَيَّـــبَ عَظْمَـــةُ العَظَـــمَاتِ فيـــه

وأوّلُ سَـــــيِّدٍ لَقِـــــيَ النِّبـــــالا[1]

كـــأن بُنَاتَـــهُ رفعـــوا مَنـــارا

مـــن الإخـــلاص، أو بعثـــوا مِثـــالا

سراجُ الحـــقِّ في ثَـــبَجِ الـــصَّحارى

تهـــاب العاصـــفات لـــه ذُبـــالا

تـــرى نـــور العقيـــدة في ثـــراه

وتنـــشق مِـــن جوانبـــه الخـــلالا

مـــشى ومَـــشت فيـــالقُ مـــن فرنـــسا

تجـــر مطـــارِفَ الظَّفَـــرِ اخْتِيَـــالا

مـــلأن الجـــوَّ أســـلحةً خِفَافـــاً

ووجـــهَ الأرضِ أســـلحةً ثِقَـــالا

وأرسَـــلْن الريـــاحَ عليـــهِ نـــاراً

فـــما حَفِـــلَ الجنـــوبَ ولا الـــشَّمالا

ســـلوه: هـــل ترجَّـــلَ في هبـــوبٍ

مـــن النـــيران أرْجَلَـــتِ الجبـــالا؟

---

(1) تورية.

أقـــام نهـــارَهُ يُلقـــي ويَلْقـــى

فلـــما زالَ قـــرصُ الـــشمس زالا

فَكُفِّـــنَ بالـــصوارِمِ والعـــوالي

وَغُيِّـبَ حيـثُ جـال وحيـثُ صـالا

إذا مَـــرَّت بـــه الأجيـــالُ تَـــتْرى

ســـمعتَ لهـــا أزيـــزاً وابتهـــالا

تعلَّـــق في ضـــمائِرِهِمْ صـــليباً

وحلَّـــقَ في سرائـــرهم هِـــلالا

لقد كان شوقي في هذه القصيدة واضحاً وضوح الشمس، فقد انبهر بما قدمته سوريا من ضحايا، وها هي اليوم تحتفل بعيد الاستقلال وبذكرى الشهداء، فإذا نفسه المفعمة بالحب لهؤلاء الشهداء تفيض منهمرة لتعبر عن شعور الأخ المصري لأخيه السوري، ومشاركته له في فرحته، وكذا مشاركته له في الصبر على الاستعمار، فكم وعد الاستعمار مصر وكذا سوريا بالاستقلال ولم تنالا منه إلا مواعيد عرقوب!!

كانـت مواعيـدُ عُرْقـوبٍ لهـا مَـثَلاً

ومـــا مواعيـــدُها إلَّا الأباطيـــلُ

وها هو اليوم، يرى النصر يتحقق على جماجم الأبطال وأشلائهم، فإذا به يزهو ويفخر وينشد صادحاً على أيكه هذه الأنشودة العذبة التي نقل بها ما يستكنه في قلبه كشاعر وما يمثله كفرد مصري من حب وأخوة وشعور مشترك لأخيه الشامي.

وإذا كان شوقي قد ذكر أنه سيذكر يوسف العظمة ما حيي، فإنني أطمئنه أن

مواطني الأمة العربية سيذكرونه معه، ولقد أتيحت لنا فرصة زيادة سوريا والتعرف على موقع قبره وعلى المعركة التي حصلت على الجبال على مدخل دمشق، فإذا بصورته تعلق في ضمائرنا، وتحلق في سرائرنا وستبقى كذلك.

وإذا كان الفرنسيون قد دكّوا حصون دمشق، وروَّعُوا غيدها الحسان، فإن بيروت تعرضت هي الأخرى للضرب الشديد من قبل الأسطول الإيطالي، ولم يقف شوقي حيال ذلك صامتاً بل هزّه المصاب الجلل، وانطلق يعزف على نايه، ولكن بحزن، فتذكر الساعات الجميلة التي قضاها في ربوع بيروت، مبيناً أن بيروت لم تكن يوماً مقر قتال أو أداة حرب، ولكنها مدينة أنس ومرح، فنراه يقول في قصيدته بعنوان «نكبة بيروت»[1]:

يـا ربِّ، أمـرُكَ في الممالـك نافـذٌ
والحُكْـمُ حُكْمُـكَ في الـدَّمِ المَسْفُوكِ
إن شـئت أَهْرِقْـهُ، وإن شـئت احمِـهِ
هـو لم يكـن لِـسِوَاكَ بـالمملوك
واحكـم بعـدلك إن عـدلك لم يكـن
بـالمُمْتَرَى فيـه، ولا المـشكوكِ
بيروت، مات الأُسْدُ حَتْفَ أُنوفهم
لم يُـشْهِرُوا سـيفاً، ولم يَحْمُـوكِ

(1) الشوقيات/ ج١/ ١٦٢.

سـبعونَ ليثـاً أَحْرِقُـوا أَو أُغْرِقُـوا

يـا ليـتهم قتلـوا عـلى (طـبروك)

يـا مَـضْرِبَ الخـيمِ المنيفـة لِلقـرى

مـا أنـصفَ العُجْـمُ الأولى ضربـوك

مـا كنـتَ يومـاً للقنابِـلِ مَوْضِـعاً

ولـو أنهـا مـن عَـسْجَدٍ مَـسْبُوك

بـيروت، يـا راحَ النزيـل، وأُنْـسَهُ

يمـضي الزمـانُ عـليَّ لا أسـلوك

الحُـسْنُ لفـظٌ في المـدائن كلهـا

ووجدتُـه لفظـاً ومعنـىً فيـك

تـالله مـا أحـدَثْتِ شراً أو أذىً

حتـى تُراعـي، أو يُـرَاعَ بَنـوك

أنـت التـي يَحمـي ويَمْنَـع عِرْضَـها

سـيفُ الشَّريفِ، وَخِنْجَـرُ الصُّعلوك

إن يجهلـوك، فـإنَّ أمَّـكِ سـوريا

والأبلـقَ الفـرَد الأشَـمَّ أبـوك

سـالت دمـاءٌ فيـك حـول مَـسَاجِدٍ

وكنـائِس، ومـدارس و(بنـوك)

لــك في ربــى النيــل المبــارَكِ جـيرةٌ

لــو يَقْــدِرُون بِــدَمْعِهِمْ غَــسَلوك

ونرى شوقي متأثراً أيما تأثر، وحانّاً للشام حنيناً كبيراً، مشيداً بها، ذاكـراً تاريخهـا وأمجادها زمن الأمويين واصفاً لرباها وأنهارها وبساتينها وضياعها وسمائها وشمسها مؤكداً أنهم صـيد مـن نـسل بنـي (عبـد شـمس)، فنـراه يقـول في قـصيدته بعنـوان (دمشق)[1]:

قم ناد جلّق وانـشُد رسـمَ مَـن بَـانُوا

مَـشَتْ عـلى الرَّسـم أحـداثٌ وأزمـان

هــذا الأديــم كتــاب لا كفــاء لــه

رثُّ الــصحائف، بــاقٍ منــه عُنــوان

الــدِّينُ والــوحيُ والأخـلاقُ طائفـةٌ

منــــه، وســــائره دنيــــا وبهتــــان

بنــو أميــة للأنبــاء مــا فتحــوا

وللأحاديــث مــا ســادوا ومــا دانــوا

كـانوا ملوكـاً سريـرُ الـشرق تَحْـتَهُمُ

فهل سألتَ سرير الغـرب: مـا كـانوا؟

(1) الشوقيات/ ج٢/ ١٠٠-١٠٣، جِلَّق: دمشق.

يا ويح قلبِيَ! مهما انتاب أرسُمَهُم

سرى بـه الهـمّ، أو عادَتْـهُ أشـجان

بالأمس قمتُ على (الزهراء) أَنْدُبُهم

واليومَ دمعي عـلى (الفيحـاءِ) هَتَّـان[1]

لـولا دمـشق لـما كانـت (طُلَيْطِلَـةٌ)

ولا زهـت ببنـي العبـاس (بغـدان)

مـررت بالمـسجد المحـزون أسـأله

هـل في المـصلى أو المحـراب مـروان[2]

تغـير المـسجد المحـزون، واختلفـت

عـلى المنـابر أحـرارٌ وعِبْـدان

فـلا الأذان أذان في منارتـه

إذا تعـالى، ولا والآذان آذان

******

آمَنْـتُ بـالله واسـتثنيتُ جَنَّتَـهُ

دمـشق رَوْحٌ، وجَنَّـاتٌ، وريحـان

---

(1) الزهراء: حيٌّ من أحياء قرطبة بها قصر خلفاء بني أمية بالأندلس، قصر الحمراء، الفيحاء: دمشق، طليطلة: حاضرة في الأندلس، بغدان: إحدى لغات كثيرة في بغداد.

(2) المسجد الأموي.

جـرى وصـفق يلقانـا بهـا (بـردى)

كـــما تلقـــاك دونَ الخُلْـــدِ رضـــوان

وخلتُهـــا وحواشـــيها زُمُـــرُّدَةٌ

والـشمس فـوق لُجَـيْنِ المـاءِ عِقْيَـان

والحور فيه (دُمَّرٍ) أو حـول (هامَتِهَـا)

حـور كواشِـفُ عـن سـاقٍ، وولـدان

وربـوةُ الـوادِ في جلبـاب راقـصة

الـساق كاسـيةٌ، والنحـرُ عُرْيَـان

******

نزلـت فيهـا بفتيـان جَحَاجِحَـةٍ[1]

آبـاؤهم في شـباب الـدهر غـسان

بـيض الأسرة، بـاق فِـيهِمُ صَـيَدٌ

من (عبـد شـمس) وإن لم تبـق تيجـان

يا فتيـة الـشام، شُـكراً لا انقـضاء لَـه

لـو أن إحـسانكم يجزيـه شُـكْران

مـا فـوق راحـاتكم يـوم السماح يَـدٌ

ولا كأوطـانكم في البـشر أوطـان

---

(1) جحاجحة: جمع جحجح، وهو السيد المسارع إلى المكارم، عنان: أبو قبيلة باليمن، منهم ملـوك غسان وكانوا ملوكاً بالشام.

شيدوا لها الملكَ، وابنوا ركنَ دولَتِها

فالمُلْك غَرْس وتجديدٌ وبنيان[1]

الملك إن تتلاقوا في هَوَى وَطَنٍ

تفرقت فيه أجناسٌ وأديان

نصيحة ملؤها الإخلاص، صادقةٌ

والنصح خالصه دين وإيمان

ونحن في الشرق والفصحى بنو رحم

ونحن في الجرح والآلام إخوان

ومع أننا نبصر شوقي شديد التأثر بكفاح أهل الشام، طالباً منهم التكاتف والاتحاد لمجاهدة المحتلين الفرنسيين، راثياً زعيم ثورتهم وقائدهم الذي قضى في سبيل الله دفاعاً عن وطنه (يوسف العظمة)، فإننا نعجب كيف أنه لم يثر تلك الثورة على الإنجليز الذين كانوا في بلاده محتلين وحاكمين، فلا نكاد نلمح له ذلك إلا في ذكرى دنشواي والتي صاغها بعد مرور عام من الحادثة، وبعد أن عوتب في ذلك معرضاً بكرومر الذي حصل الحادث وقت حكمه. ومع ذلك لا نلمح به ذلك الغضب الهادر الذي كان من المفروض أن نراه وأن يزجيه قصائده الثورية، فنراه يقول مخاطباً دنشواي، طالباً من السلطات المحتلة إخلاء سبيل السجناء.

وهو في قصيدته يتحدث عن كل ما يتصل بهذا الحادث، ذكره، وذكر شهدائه، وما قاساه أبناء دنشواي من التعب، ومن اعتداء على ممتلكاتهم ومن قتلهم، وما جرى

---

(1) حسن تقسيم.

إلى ذلك من ويل وثبور وتنكيل بالمظلومين وسوء مصير، ونرى أنه قد خصها بموضوع واحد لم يشرك به سواه[1]:

يا دِنْشواي، على رباكِ سَلام
ذهبتْ بأَنْسِ رُبُوعِكِ الأيام
شهداءُ حُكْمكِ في البلاد تفرقوا
هيهاتَ للشَّمْل الشَّتيتِ نِظَامُ
مرّت عليهم في اللُّحُودِ أهلةٌ
ومضى عليهم في القيود العام
كيف الأرامل فيك بعد رجالها؟
وبأي حال أصبح الأيتام؟
عشرون بيتاً أقفرت، وانتابها
بعد البشاشة وحشةٌ وظلام
يا ليتَ شِعري: في البيوت حمائمٌ
أم في البروج منيةٌ وحِمَام
(نَيْرونُ) لو أدركتَ عهد (كرومر)
لعرفْتَ كَيْفَ تُنَفَّذُ الأحكام!
نوحي حمائم دشنواي، وروِّعي
شعباً بوادي النيلِ ليسَ يَنَام

(1) الشوقيات/ ج١/ ٢٤٤-٢٤٥، دراسات في الأدب العربي الحديث/ ج١/ ٩٨.

الـــسوط يعمـــل، والمَـــشَانِقُ أربـــعٌ

متوحـــــداتٍ والجنـــــودُ قيـــــام

والمـــــستثار إلى الفظـــائع نـــاظِرٌ

تَـــدْمَى جلـــودٌ حولَـــهُ وعِظـــام

في كـــل ناحيـــةٍ وكُـــلّ مَحَلَّـــةٍ

جَزَعـــاً مِـــن المـــلأ الأســـيفِ زِحـــام

وعـــلى وجـــوه الثـــاكلين كآبـــةٌ

وعـــلى وجـــوه الثـــاكلات رغـــام

وقد ذكر لي أحد الإخوة أن شوقي قد صاغ قصيدة فيها ولكنه لم يستطع إخراجها في وقتها، إذ عثر عليها في أوراقه. ولم يكن شوقي هو الوحيد الذي ذكر حادثة دنشواي، فإننا نرى الشاعر أحمد محرم يقول كذلك فيها بعنوان «دنشواي في ثلاثين بيتاً»[1]:

---

(1) ديوان محرم (السباعيات) م١-٩٧-٩٩، (٢٨ يونيو ١٩٠٦)، وحكايتها:
في ١٣ تموز ١٩٠٦ قصد خمسة من الضباط الإنجليز إلى بلدة دنشواي بمركز تلامنوفية بمصر لصيد الحمام وهناك أصيب بعض الأهلين فاصطدموا بالإنجليز وكان من جراء ذلك أن أصيب بعض الضباط بإصابات أفضت إلى الموت، فثارت ثائرة اللورد كرومر عميد الدولة البريطانية وعقدت المحكمة المخصوصة لمحاكمتهم. وكان المدعي العمومي فيها المحامي إبراهيم الهلباوي وقضت المحكمة بإعدام أربعة من الأهلين وجلد وحبس ثمانية منهم، وفي ٢٨ يونيو ١٩٠٦ نفذ الإعدام والجلد في نفس البلد على مرأى ومسمع من أهله، وكان في ذلك الحكم وفي تنفيذه من القسوة ما أثار أنفس المواطنين.

أتلـــك مـــصارع المستـــضعفينا؟

فـــما بـــال الهـــداة المـــصلحينا

أجيبـــي (دنـــشواي) فـــإن تكـــوني

عييـــت عـــن الجـــواب، فـــما عيينـــا

وكأنه بهذه القصيدة يرثي دنشواي وما آل إليه مآلها، مما يذكرنا بقول أبي نواس في قصيدته: ملك أغر[1]:

يـــا دار مـــا فعلـــت بـــك الأيـــام

ضـــامتك والأيـــام لـــيس تـــضام[2]

عـــرم الزمـــان عـــلى الـــذين عهِـــدتهم

بـــك قـــاطنين، وللزمـــان عُـــرام[3]

أيـــام لا أغـــشى لأهلـــك منـــزلاً

إلا مراقبـــــة، عـــــلي ظـــــلام[4]

ولقـــد نهـــزت مـــع الغـــواة بـــدلْوِهم

وأسمت سرح اللهو حيـث أسـاموا[5]

---

(1) ديوان أبي نواس، الحسن بن هانئ، ٣١٠-٣١٢.

(2) ضامتك: أذلتك من الضيم. ورواية الصولي: لم تبق فيك بشاشة تستام.

(3) عرام الزمان: حدته وشراسته وأذاه.

(4) لا أغشى: لا آتي ولا أزور. عليّ ظلام: أي في الظلام، يقول بشار:

إذا نكرتني بلدة أو نكرتها خرجت مع البازي عليّ سواد

(5) نهز بالدلو في البئر: ضرب بها في الماء لتمتلئ. السرح: المال السائم، وأسميته: أرعيته.

وبلغـــت مـــا بلـــغ امـــرؤ بـــشبابه

فـــإذا عـــصارة كـــل ذاك أثـــام

وتجـــشمت بي هـــول كـــل تنوفـــةٍ

هوجـــاء فيهـــا جـــرأة، أقـــدام[1]

تـــذر المطـــي وراءهـــا فكأنهـــا

صـــف تقـــدمهن وهـــي إمـــام

وإذا المطـــي بنـــا بلغـــن محمـــداً

فظهـــورهن عـــلى الرجـــال حـــرام[2]

---

(1) تجشمت: تكلفت بي أهوال السرى في مشقة. التنوفة: البرية. هوجاء: فاعل تجشمت، والهوجاء: التي تجد في السير وتركب رأسها كأن بها هوجاً، قال الراجز:

أقولُ والهيجاء تمشي والفضل قطعت الأحداج أعناق الإبل

ويقول الأعشى:

وفيها إذا ما هجرت عجرفية إذا خلت حرباء الوديقة أصيدا

(2) هذا المعنى قديم تناوله كثير من الشعراء من وجهيه، وقد سبق في باب الخمر أن نوهنا بأبيات الشماخ في عرابة الأوسي، ونضيف هنا قول الفرزدق يخاطب ناقته:

علام تلتفتين، وأنت تحتي وخير الناس كلهم أمامي

متى تأتي الرصافة تستريحي من الإسراع والدبر الدوامي

ويقول عمر بن ربيعة:

لسنا نبالي حين ندرك حاجة إن بات أو ظل المطي معقلاً

ويقول عبد الله بن قيس الرقيات في عبد الله بن جعفر بن أبي طالب:

تقدمت بي الشهباء نحو ابن جعفر سواء عليها ليلها ونهارها

قربننا من خير من وطئ الحصى

فلهـــا علينـــا حرمـــة وذمـــام

رفع الحجاب لنا فلاح لناظر

قمـــر تقطـــع دونـــه الأوهـــام

ملـــك إذا علقـــت يـــداك بحبلـــه

لا يعتريـــك البـــؤس والإعـــدام

ملـــك توحـــد بالمكـــارم والعـــلى

فـــردٌ فقيـــد النـــد فيـــه همـــام

ملـــك أغـــر إذا شربـــت بوجهـــه

لم يعـــدك التبجيـــل والإعظـــام[1]

فـــالبهو مـــشتمل ببـــدر خلافـــة

لـــبس الـــشباب بنـــوره الإســـلام[2]

ســـبط البنـــان إذا احتبـــى بنجـــاده

فـــرع الجماجـــم والـــسماط قيـــام[3]

---

(1) لم يعدك: لم يجاوزك.

(2) البهو: البيت المقدم أمام البيوت، ولعله أشبه ما يكون بغرفة استقبال كبيرة.

(3) سبط البنان: سخي. النجاد: حمائل السيف، واحتبى بها: أي جمع بين ظهره وساقيه بها. فرع الجماجم: علاها لطوله أو لشرفه. السماط: الصف.

إن الـــذي يـــرضى الإلـــه بهديـــه

ملـــك تـــردَّى الملـــك وهـــو غـــلام[1]

ملـــك إذا اعتـــسر الأمـــور مـــضى بـــه

رأيٌ يفـــل الـــسيف وهـــو حـــسام[2]

داوى بـــه الله القلـــوب مـــن العمـــى

حتـــى أفقـــن ومـــا بهـــن ســـقام

أصـبحت يـا ابـن زبيـدة ابنـة جعفـر

أمـــلاً لعقـــد حبالـــه اســـتحكام

فـــسلمت للأمـــر الـــذي ترجـــى لـــه

وتقاعـــست عـــن يومـــك الأيـــام[3]

وقد عرف عن شوقي أنه شاعر المناسبات، وفعلاً كان كذلك، فما يكاد الاحتفال بعيد الجهاد الوطني الذي يوافق الثالث عشر من نـوفمبر تـشرين ثـاني ١٩٢٦ يعلـن حتى يقوم شوقي مشيداً بما قدمته مصر من شهداء روت واديه، معلناً أن دين الله قـد تجـدد في مـصر، وأن الدسـتور قـد أعلـن، مـشيداً بـشجاعة سـعد زغلـول وبلائـه،

---

(1) تردى: لبس.

(2) اعتسر الأمور: يقال اعتسر الناقة: أخذها ريضاً فخطمهـا وركبهـا، واعتـسر الأمـور: استولى عليها ووجهها الوجهة التي يريد. يقل السيف: يكسره، والمراد رأي أنفذ من السيف وأمضى، كما يقول الأخطل: «والقول ينفذ ما لا تنفذ الإبر».

(3) تقاعست: تأخرت.

ومطالبتهم ممثل بريطانيا في مصر بالاستقلال عام ١٩١٨، مشيراً إلى أن الشعب وإن سكت وهادن، إلا أنه لم يلق السلاح، ولم يمل الكفاح، فيقول[1]:

خطونا في الجهاد خطىً فساحاً
وهادَنَّا، ولم نُلْقِ السلاحا
رضينا في هَوى الوطن المُفَدَّى
دمَ الشُّهداء والمالَ المُطاحا
ولما سُلَّتِ البيضُ المَواضي
تَقَلَّدْنَا لها الحقَّ الصُّراحا
وقمنا في شِراعِ الحَقِّ نُلقي
ونَدْفَعُ عن جوانِبِهِ الرِّيَاحا
ترى أسرى وما شَهِدوا قتالاً
ولا اعتَقلوا الأسِنَّةَ والصِّفَاحا
صباحُكَ كان إقبالاً وسعداً
فيا يَوْمَ الرِّسالة، عِمْ صباحا
جلالُكَ عن سنا الأضحى تَجَلَّى
ونورُك عن هلال الفطر لاحا
بعثنا فيك (هارون وموسى)
إلى (فرعون) فابتدأ الكفاحا

---

(1) الشوقيات/ ج٤/ ٢٩-٣٢.

وكـــأن أعـــزَّ مـــن رومـــا ســـيوفاً

وأطغـــى مـــن قياصرهـــا رماحـــا

كـــأن بـــلال نـــودي: قـــم فـــأذن

فَـــرَجَّ شِـــعابَ مَكَّـــةَ والبِطاحـــا

كـــأنَّ النـــاسَ في ديـــنٍ جديـــدٍ

عـــلى جنباتـــه اســـتبقوا الـــصَّلاحا

وقـــد هانَـــتْ حَيَـــاتُهُمُ علـــيهم

وكـــانوا بالحيـــاةِ هُـــمُ الـــشِّحَاحَا

حَـــواريينَ أوفـــدنا ثِقَـــاتٍ

إذا تُـــرِكَ الـــبَلاغُ لهـــم، فِـــصَاحا

فكـــانوا الحـــق منقبـــضاً حَيِيًّـــا

تحـــدَّى الـــسيفَ مُنْـــصَلِتاً وَقَاحـــا

لهـــم منّـــا بـــراءةُ أهـــلِ بَـــدْرٍ

فَـــلا إِثـــماً نَعُـــدُّ ولا جُنَاحـــا

جعلنـــا الخُلـــد منـــزلهم، وزدنـــا

عـــلى الخُلـــد الثنـــاء والامتـــداحا

وبالدســـتور، وَهْـــوَ لنـــا حَيَـــاةٌ

نـــرى فيـــه الـــسلامةَ والفلاحـــا

أخـــذناه عـــلى المُهَـــج الغَـــوالي

ولم نأخـــــذه نَـــــيْلاً مُـــــستباحا

فـــما مـــلأ الـــشباب كـــروح ســـعدٍ

ولا جعـــل الحيـــاةَ لهـــم طِمَاحـــا

هـــو الـــشيخ الفَتِـــيُّ لـــو اســـتراحت

مـــن الـــدأب الكواكـــبُ مـــا اســـتراحا

* * *

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

شوقي داعياً للوحدة العربية

نستمع إليه يوم تتويجه أميراً للشعراء، وقد اجتزأنا نهاية القصيدة، فيقول[1]:

رب جـــار تلفتـــت مـــصرُ توليـــ

ـــه ســـؤال الكـــريمِ عـــن جيرانـــه

بَعَثَتْنـــــي مُعَزِّيـــــاً بمـــــآقي

وطنـــــي، أو مُهَنِّئـــــاً بلـــــسانه

كـــان شـــعري الغنـــاء في فـــرح الـــشر

ق، وكـــــان العـــــزاءَ في أحزانـــــه

قـــد قـــضى الله أن يُؤَلِّفَنَـــا الجـــر

حُ، وأن نلتقـــي عـــلى أشـــجانه

كلَّـــما أَنَّ بـــالعراق جـــريحٌ

لمـــسَ الـــشرقُ جَنْبَـــهُ في عُمانِـــه

نحـــن في الفقـــه بالـــديار ســـواءٌ

كُلُّنَـــا مُـــشْفِقٌ عـــلى أوطانـــه

---

(1) قيلت في دار الأوبرا الملكية في حفلة افتتاح مؤتمر تكريمه الذي انعقد فيها.
الشوقيات/ ج٢/ ١٩٠-١٩٣.

سماحته الدينية

صادف رأس السنة الهجرية وعيد المسيحيين في يوم واحد، فيقول[1]:

عيـد المـسيح، وعيـد أحمـد؛ أقـبلا
يتباريـــانِ وضـــاءَةً وجمـــالا
مـيلاد إحـسان، وهجـرةُ سـؤدد
قـد غَـيَّرَا وجـه البـسيطةِ حـالا

وإذ قام المسلمون بتحويل كنيسة أيا صوفيا بالقسطنطينية إلى مسجد، قال في هذه المناسبة[2]:

كنيـسةٌ صـارت إلى مَـسْجِد
هديـةُ الـسَّيِّدِ للـسَّيِّدِ
كانـت لعيـسى حرمـاً، فانتهـت
بِنُـصْرَة الـرُّوح إلى أحمـد

عرف عن شوقي سماحته الدينية وعدم تعصبه لدينه، وهو بهذا ينطلق من منطلق إسلامي بحت، فهو حين يخاطب المسيحيين يذكرهم بأنهم أصحاب رسالة، وأنهم جيران المسلمين في ديارهم، وأن عليهم أن يحافظوا على الجوار وأن يصونوا البلاد التي تحفظ لهم حسن الإقامة وطيب الجيرة، إذ يعلم شوقي أن القرآن الكريم منبع

(1) الشوقيات/ ج١/ ١٨٦.
(2) الشوقيات/ ج٢/ ٢٥.

ويرشدنا بها سواء السبيل، لم يكن يوماً ليوغر صدر المسلم على الذميّ، أو يهضم المسلم للذمي حقاً، أو يخفر له ذمة. وهناك الكثير من الوصايا والدلائل التي تبين مدى نزاهة الإسلام وسماحته في معاملة ساكني الديار الإسلامية من غير المسلمين، ما داموا يقومون بما يتوجب عليهم، ولا ينكثوا بعهد أو يخلفوا بوعد قطعوه على أنفسهم، فرسول الله ﷺ يقول[1]: «**من آذى ذمِّيًّا فقد آذاني**»:

وشوقي الذي كان يقرأ القرآن والحديث كثيراً، تأثر بهذه الأبيات، واتخذ منها في مواطن كثيرة حِكَماً صاغها، ونصائح أسبغها، وفلسفة حياة انتهجها في حياته. ففي مرثية جرجي زيدان ينصح للشرق بالسماحة الدينية، وينهاه أن يجعل الدين مثار نزاع، أو يتخذ منه موضوع مباهاة وإدلال فيقول[2]:

لا تجعلوا الدين باب الشر بينكُمُ
ولا مَحَلَّ مُباهاةٍ وإدلال
ما الدين إلا تُرَاثُ الناس قبلَكُمُ
كل امرئٍ لأبيه تابعٌ تالي
ليس الغُلُو أميناً في مَشورَته
مناهجُ الرُّشْدِ قد تَخْفَى على الغالي
لا تطلبوا حقكم بَغْياً ولا صَلَفاً
ما أبعدَ الحقَّ عن باغٍ وَمُحْتَال

---

(1) الدين والأخلاق في شعر شوقي/ ١٧٧.

(2) الشوقيات/ ج٣/ ١٢٥-١٢٧.

ويرشدنا بها سواء السبيل، لم يكن يوماً ليوغر صدر المسلم على الذميّ، أو يهضم المسلم للذمي حقاً، أو يخفر له ذمة. وهناك الكثير من الوصايا والدلائل التي تبين مدى نزاهة الإسلام وسماحته في معاملة ساكني الديار الإسلامية من غير المسلمين، ما داموا يقومون بما يتوجب عليهم، ولا ينكثوا بعهد أو يخلفوا بوعد قطعوه على أنفسهم، فرسول الله ﷺ يقول[1]: «**من آذى ذمِّيًّا فقد آذاني**»:

وشوقي الذي كان يقرأ القرآن والحديث كثيراً، تأثر بهذه الأبيات، واتخذ منها في مواطن كثيرة حِكَماً صاغها، ونصائح أسبغها، وفلسفة حياة انتهجها في حياته. ففي مرثية جرجي زيدان ينصح للشرق بالسماحة الدينية، وينهاه أن يجعل الدين مثار نزاع، أو يتخذ منه موضوع مباهاة وإدلال فيقول[2]:

لا تجعلوا الدين باب الشر بينكُمُ
ولا مَحَلَّ مُباهاةٍ وإدلال
ما الدين إلا تُرَاثُ الناس قبلَكُمُ
كل امرئٍ لأبيه تابعٌ تالي
ليس الغُلُو أميناً في مَشورَته
مناهجُ الرُّشْدِ قد تَخْفَى على الغالي
لا تطلبوا حقكم بَغْياً ولا صَلَفاً
ما أبعدَ الحقَّ عن باغٍ وَمُخْتَال

---

(1) الدين والأخلاق في شعر شوقي/ ١٧٧.

(2) الشوقيات/ ج٣/ ١٢٥-١٢٧.

ونراه يرثي بطرس غالي[1] (النصراني) مشيداً به مؤكداً أنه كان في حياته يدعو إلى ائتلاف عنصر الأمة، ناصحاً المصريين أن يتآلفوا في الوطن، ويدَعُوا الدين لله، وإن كنا نأخذ عليه مسلكه هذا، إذ أن الدار إسلامية، وعلى المسيحيين أن يعرفوا مكانتهم بها ولا يتطاولوا كما حصل منهم، وما زال يحصل، مستعينين على إخوانهم بالكفار من الغرب، فيقول[2]:

قد عِشْت تُحْدِثُ للنَّصارى أُلفةً
وَتُجِدُّ بين المسلمينَ وِئَامَا

واليومَ فوقَ مشيدِ قبرِكَ مَيِّتاً
وَجَدَ المُوَفَّقُ لِلمَقَال مقاما

الحقُّ أبلجُ كالصَّباح لناظرٍ
لو أن قوماً حكَّموا الأَحْلاما

أعَهِدْتَنَا والقِبْطَ إلا أُمَّةً
للأرضِ واحدةً تَرومُ مَراما

نُعْلِي تعاليمَ المسيح لأجْلِهِمْ
وَيُوَقِّرونَ لأجلنا الإسلاما

---

(1) كان رئيس الوزارة المصرية في أيام حكم عباس الثاني، وقد اغتاله إبراهيم الورداني في سنة ١٩١٠ لأسباب سياسية.

(2) وانظر قصيدته/ ج٤/ ٥٥ كذلك؛ وأخرى/ ج١/ ١٨٨.

الـــدينُ للـــدَّيَّان جـــلّ جلالُـــه

لـــو شـــاءَ ربُّـــكَ وَحَّـــدَ الأَقْوَامـــا

يا قوم، بانَ الرُّشْدَ فاقصوا ما جرى

وخـذوا الحقيقـةَ، وانبـذوا الأوهامـا

هـــذي رُبُـــوعُكُمُ، وتلـــكَ رُبُوعُنَـــا

متقـــــابلينَ نُعـــــالجُ الأيامـــــا

هـــذي قُبـــورُكُم وتلـــك قُبُورُنـــا

متجـــــاورينَ جَماجمـــــاً وعظامـــــا

فَبِحُرْمَـــةِ المـــوتى، وواجـــبِ حَقِّهِـــمِ

عيـــشوا كـــما يَقْـــضِي الجِـــوَارُ كِرامـــا

وقد لاحظ الأستاذ علي النجدي ناصف مؤلف كتاب (الدين والأخلاق في شعر شوقي)، أن شوقي جار عن القصد وذهب إلى غير الحقيقة، إذ جعلنا نكبر المسيحية مجاملة وتوداً مع أننا في الواقع نكبرها عبادة وتديناً، فلو أن مصر خلت منها جملة ما تبدّل رأينا فيها، ولا نقص إيماناً بها وإجلالاً لها، وأقول وهم كذلك يكبرون الإسلام، وهو محق في قوله:

﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ [البقرة:١٣٦] ويقول الله تعالى في موضع آخر:

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾[البقرة:٢٨٥].

ومن شروط الإيمان وأركانه الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه ورسله واليوم الآخر. فالإسلام هو السماحة بعينها، وعنصر السماحة بالإسلام يشغل مكاناً علياً بين العناصر المكونة للتراث الإسلامي والشرع الإسلامي.

وعندما ثارت شعوب الصرب والبلقان على الخلافة العثمانية، مطالبة بإعلان الدستور خاطبها شوقي بقصيدة طويلة ردّ بها الدين لله، وأنه يهدي من يشاء ويضل من يشاء، مؤكداً أن اختلاف الأديان بين رعايا المملكة الإسلامية، يجب ألا يكون مدعاة للخلاف بين الشعوب المنضوية تحت الخلافة، وأن الرسل لا خلاف بينهم، وجميعهم جاءوا بمبدأ التوحيد لله، فيقول[1]:

الدين لله، ما شاء الإلهُ هَدى

لكل نفس هوىً في الدين داعيها

ما كان مُختَلِفُ الأديانِ داعيةً

إلى اختلافِ البرايا، أو تَعاديها

الكُتْب، والرُّسْل، والأديانُ قاطبةً

خزائنُ الحكمةِ الكُبرى لِواعيها

---

(1) الشوقيات/ ج١/ ٢٨٩-٢٩٠.

محبـــةُ الله أصـــلٌ في مراشِـــدِها

وخَـــــشْيَةُ الله أُسٌّ في مبانيهـــــا

وكـــل خـــيرٍ يُلَقَّـــى في أوامرهـــا

وكـــل شرٍّ يُـــوقَّي في نواهيهـــا[1]

ويدعو إلى التسامح ويجعله أسمى معاني المروءة ويحث على الصفح ويجعله مناط السعادة في هذه الحياة.

تـسامحُ الـنفسِ معنـىً مـن مروءتهـا

بـــل المـــروءةُ في أســـمى معانيهـــا

تَخَلَّـقِ الـصَّفْحَ تَـسْعَدْ في الحيـاةِ بـه

فـالنفسُ يُـسعدها خُلْـق وَيُـشْقيها

وقد استبدت به سماحته الدينية حتى صار نوعاً من الأصالة، فهو بهذا الصدد يشيد بالهلال والصليب الأحمرين، ويقرنهما معاً قائلاً[2]:

جبريـــل أنـــت هـــدى الـــسماء

وأنـــــت برهـــــان العنايـــــة[3]

---

(1) جناس ناقص وطباق.

(2) الشوقيات/ ج١/ ٢٩١.

(3) الشوقيات/ ج١/ ٢٩٢.

أُبـــسط جناحيـــك اللذيـــــ

ـــــن همـــا الطهـــارة والهدايـــة

وزد الهـــــلال مـــــن الكـــــرا

مـــة والـــصليب مـــن الرعايـــة

لم يخلـــــق الـــــرحمن أكـــــــ

ـــــبر مـــــنهما في الـــــبر آيـــــة

أو أدركـــــا يـــــوم المـــــسـ

يـــح لعاونـــاه عـــلى النكايـــة

والواقع يقول أن الإسلام قد جبّ النصرانية، وأصبح هو الدين الوحيد الذي يجب أن يدعو له شوقي. وكان الأجدر به أن يطلب من المسيحيين الانضواء تحت راية الإسلام كي يكونوا بحق مواطنين صالحين ينعمون برحمة الإسلام، ويتفيأون ظلاله في وطن إسلامي واحد.

❊ ❊ ❊

الأندلسيات

قامت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤، فنفت سلطة الاحتلال الإنجليزية القائمة في مصر وقتئذ أحمد شوقي إلى إسبانيا، فخرج إليها بعائلته، وأقام بها مدّة هذه الحرب. وقد غيّر هذا الحادث كثيراً من حياته، بل كان أهم حادث أثر في مجرى حياته، ثم حدثني بذلك (طاهر الطناحي)، فقال:

لما وقعت الحرب العالمية الأولى، وشمل العالم هذا الاضطراب الشديد، وانضمت تركيا إلى ألمانيا، وعملت إنجلترا إلى قلب نظام الحكم في مصر، وأعلنت انتهاء حكم (الخديوي عباس حلمي الثاني) ثم أخذت تنفي عن مصر كل من لهم صلة به، فأمرتني بالرحيل إلى إسبانيا فهاجرت مع عائلتي واصطحبت مكتبتي وسائر مرافقي وغادرت مصر إلى برشلونة مع عائلتي، ونزلها أيضاً الأمير عبد العزيز إبراهيم والأمير حبيب لطف الله، ولم يكن فيها من الجالية العربية أحد غيرنا. فأدخلت أولادي في بعض مدارسها الراقية، ثم عكفت على قراءة كتب الأدب العربي في غير أوقات النزهة ومشاهدة السينما، فاستوعبت ما لم أكن قد استوعبته، وطالعتها كلها حتى أكاد أقول أنه ليس في الأدب العربي كتاب لكبار الأدباء لم أستوعبه في خلال السنين الخمس التي عشتها في إسبانيا.

وقد ساعدتني في ذلك طبيعة الجو اللطيف الذي يشبه جو الإسكندرية وجمال المناظر التي تحاكي الآستانة في رشاقتها ونظامها. هذا إلى أخلاق الأهالي التي تميل إلى الأخلاق الشرقية مما جعل بيني وبينهم ألفة حسنة، شعرت أثناءها بأني بين أبناء وطن واحد، لا سيما أن هنالك من العائلات الراقية من تفتخر بأنها من أصل عربي،

وتنتسب إلى بني أمية، ولذلك يقل شرب الخمر في إسبانيا، ويندر أن تقع فيها الجرائم.

في هذا الجو وفي هذا الوسط الكريم نشأت نشأة أخرى في الأدب العربي، واستأنفت دراستي له بعناية واهتمام، وتوافرت على رياضة الذهن في ثمرات القرائح العربية منثورها ومنظومها، فحصلت منها على ثروة لم أفز بها من قبل.

كان شوقي شديد الحنين إلى مصر وهو في تلك الغربة، وحنينه إلى مصر نابع من أنها الأرض العربية الإسلامية التي درج على ساحاتها، ولعب في عرصاتها وطرقاتها، فهي موضع أمله وأمل بنيه، كما كانت مثوى أبيه وجده، وكانت مصر هي البلد الإسلامي الأول الذي يسند الخلافة في كل ما يلم بها، استمع إليه وقد بعث إلى صديقه شاعر النيل بهذه الأبيات يعرب بها عن الوله والوجد وشدة الجوى التي يستشعرها في تلك الغربة، بالرغم من أن سبل الحياة الفارهة مهيأة له ومتوافرة، فيقول[1]:

يا ساكني مِصْرَ إنَّا لا نزالُ على
عهدِ الوَفاء وإن غِبنا مقيمينا
هلَّا بعثتم لنا من ماءِ نهرِكُمُو
شيئاً نَبِلَّ به أحشاءَ صادِينا
كلُّ المناهلِ بعد النيلِ آسنةٌ
ما أبعد النيل إلا من أمانينا

(1) ديوان حافظ إبراهيم/ ج٢/ ١٨٦.

فيجيبه صديقه حافظ معارضاً[1]:

عجبــت للنيــل يــدري أن بلبلــه

صــادٍ ويــسقي ربــى مــصر ويــسقينا

والله مــا طــاب للأصــحاب مــورده

ولا ارتــضوا بعــدكم في عيــشه لينــا

لم تنــأ عنــه وإن فارقــت شــاطئه

وقــد نأينــا وإن كنــا مقيمينــا

وشوقي وهو في منفاه في إسبانيا (الأندلس) يحن إلى بلاده مصر، ولكن لم ينس أن يشيد بالأندلس وبماضيها، وماضي الإسلام فيها، ويصف مشاهداته ويبث أنينه وأحزانه على فقد هذا الجزء من جسم الأمة الإسلامية[2]:

يــا نــائِحَ الطَّلْــحِ أشــباهٌ عَوَادِينــا

نَــشْجى لواديــكَ، أم نأســى لوادينــا؟

مــاذا تقــص علينــا غــير أنَّ يــداً

قَصَّت جناحَكَ جالت في حواشينا؟

رمــى بنــا البــينُ أيكــاً غــير ســامرنا

-أخــا الغريــب- وظــلاً غــير نادينــا

---

(1) ديوان حافظ إبراهيم/ ج٢/ ١٨٧ - نشرت في ٨ أيار ١٩١٧م ردًّا على رسالة شوقي السابقة: يا ساكني مصر..

(2) الشوقيات/ ج٢/ ١٠٤-١٠٨.

آهـــاً لِنَـــازِحِي أَيْـــكٍ بأنـــدُلُسٍ

وإن حَلَلْنَـــا رَفيقـــاً مـــن روابينـــا!!

رسـمٌ وقفنـا عـلى رَسْـمِ الوَفَـاءِ لـه

نجـيشُ بالـدَّمْعِ، والإجـلالُ يَثْنينـا

لفتيـــةٍ لا تنـــالُ الأرضُ أَدْمُعَهُـــمْ

ولا مَفَـــارِقَهُم إلا مُـــصَلِّينا[1]

لـــو لم يـــسودوا بـــدين فيـــه مَنْبَهَـــةٌ

للنـاس، كانـت لهـم أخلاقُهـم دينـا

ويختم قصيدته بقوله:

إذا حملنـا لمـصر أولـه شـجناً لم نـدر

أيُّ هـــوى الأَمَّـــيْنِ شـــاجينا؟

فهو يلتقي مع أبي البقاء صالح بن شريف الرندي عندما بكى ضياع الأندلس:

ففي الوقت الذي تناول فيه أبو البقـاء سـير التـاريخ وعـبر الأيـام، وأنهـا دول، وتخلص إلى شرح ما كانت عليه الأندلس من عزّة نابعة من عزّة الإسلام، إذ بهـا بـين عشية وضحاها تقع تحت سنابك خيل الكفـر. يـذكر بهـذا المـصير المـشؤوم ويعـزو أسباب ذلك إلى الفرقة ويقف مشدوهاً وهو يسائل أركان الحضارة الزاهـرة الزائلـة.

---

(1) يقصد ملوك الأندلس.

يقول مستهلاً قصيدته بحكمة بالغة خالدة خلود الدهر[1]:

لكـــل شيء إذا مـــا تـــمّ نقـــصان

فـــلا يغـــر بطيـــب العـــيش إنـــسان

هـــي الأمـــور كـــما شـــاهدتها دُوَلٌ

مـــن سرّه زمـــن ســـاءته أزمـــان[2]

وهـــذه الـــدار لا تبقـــي عـــلى أحـــد

ولا يـــدوم عـــلى حـــال لهـــا شـــان

يمـــزق الـــدهر حتـــى كـــل ســـابغة

إذا نبـــت مـــشرفيات وخرصـــان[3]

وينتـــضي كـــل ســـيف للقـــضاء ولـــو

كـــان ابـــن ذي يـــزن والغمـــد غمـــدان

أيـــن الملـــوك ذوو التيجـــان مـــن يَمَـــنٍ

وأيـــن مِـــنْهُمْ أكاليـــلٌ وتيجـــان؟

---

(1) مختارات من الأدب الأندلسي - دار الفكر الغربي، بيروت، لبنان/ ط١/ ٢٠٠٤م.

(2) دول: متداولة. ودال الزمان بأهله: انقلب من حال إلى حال.

(3) ؟؟؟ الطويلة الفضفاضة. نبا السيف: ضرب فلم يقطع. والخرصان: جمع ؟؟؟.

وأيــن مــا شَــادَهُ شَــدَّادُ في إِرَمٍ

وأين ما ساسَهُ في الفُـرْسِ سَاسَـانُ؟[1]

وأيـن مـا حـازه قـارون مـن ذهـب

وأيــن عــاد وشــدّاد وقحطــان؟[2]

أتــى عــلى الكــلّ أمــر لا مــردّ لــه

حتـى قـضوا فكـأن القـوم مـا كـانوا

وصان ما كان مـن ملـك ومـن ملـك

كما حكى من خيال الطيـف وسـنان[3]

كـأنَّما الـصَّعْبُ لم يَـسْهُل لـه سَـبَبٌ

يومــاً ولا مَلَــكَ الــدُّنيا سُــلَيْمانُ

فجــائع الــدهر أنــواع منوعــة

وللزمــان مِــرّات وأحــزان

وللحــوادث ســلوان يــسهلها

وطالمــا حــلّ بالإســلام ســلوان

---

(1) شداد: هو ابن عاد، وقد ورد ذكره في القرآن الكريم، الذي أشاد بعمرانه. وساسان: ملك من ملوك الفرس.

(2) قارون: يضرب به المثل في الثراء، ورد ذكره في القرآن الكريم. وعاد: من القبائل العربية البائدة في اليمن. وقحطان: قبيلة من القبائل العربية العاربة في اليمن.

(3) الوسنان: من أخذه ثقل النوم. يقول: صار كأنه حلم من الأحلام.

دهـــى الجزيـــرة أمـــر لا عـــزاء لـــه

هـــوى بـــه أَحُـــدٌ وانهـــدَّ ثَهـــلانُ[1]

أصابها العـيش في الإسـلام فـارتزأت

حتـى خلـت منـه أقطـار وبلـدان[2]

فاســأل بلنــسية مــا شــأن مرســية

وأيـــن شـــاطبة أم أيـــن حيـــان؟[3]

وأيـــن قرطبـــة دار العلـــوم فكـــم

مـن عـالم قـد سـما فيهـا لـه شـان؟[4]

وأيــن حمــص ومــا تحويــه مــن نــزه

ونهرهــا العــذب فيــاض ومــلآن؟[5]

قواعـــد كـــن أركـــان الـــبلاد فـــما

عـــيش البقـــاء إذا لم تبـــق أركـــان[6]

---

(1) أحد: جبل بالمدينة. وثهلان: جبل بنجد، والمعنى: أن بادية العـرب مهـد الإسـلام اضـطربت لمصاب الأندلس.

(2) هناك رواية: «فارتأزت».

(3) هذه أسماء مدن في الأندلس. وأم: هنا بمعنى بل. سقطت بلنسية سنة ٦٣٦هـ، وشـاطبة سـنة ٦٣٨هـ، ومرسية سنة ٦٦٨هـ.

(4) سقطت قرطبة سنة ٦٣٣هـ.

(5) حمص الأندلس: هي إشبيلية، سقطت سنة ٦٤٦هـ.

(6) الحنيفية: ملة الإسلام. والبيضاء: كناية عن النقاء والصفاء. والهيمان: من أصابه كالجنون من العشق.

تبكـي الحنيفيـة البيـضاء مـن أسـف

كـــما بكـــى لفـــراق الألـــف هـــيمان

عـــلى ديـــار الإســـلام خاليـــة

قـد أقفـرت ولهـا في الكفـر عمـران

حيث المساجد قد صارت كنائس مـا

فـــيهن إلَّا نَـــوَاقيس وصـــلبان

حتى المحاريـب تبكـي وهـي جامـدة

حتـى المنـابر ترثـي وهـي عيـدان[1]

يـا غـافلاً ولـه في الـدهر موعظـة

إن كنـت في سِـنَةٍ فالـدهر يقظـان[2]

يـا راكبـين عتـاق الخيـل ضـامرة

كأنهـــا في مجـــال الـــسبق عقبـــان

وحـــاملين ســـيوف الهنـــد مرهفـــة

كأنهـــا في ظـــلام النقـــع نـــيران

ورافعـــين وراء النهـــر في دعـــة

لهـــم بأوطـــانهم عـــزّ وســـلطان

العشق.

(1) المحاريب: جمع محراب، وهو مكان الإمام في المسجد.

(2) طباق.

أعنـدكم نبـأ مـن أهـل أنـدلس

فقـد سرى بحـديث القـوم ركبـان

كم يستغيث بنـا المستضعفون وهـم

قـتلى وأسرى فـما يهتـز إنـسان

مـاذا التقـاطع في الإسـلام بيـنكم

وأنـتم يـا عبـاد الله إخـوان!!

ألا نفـوس أبِيَّـاتٍ لهـا همـم

أمـا عـلى الخـير أنـصار وأعـوان

يـا مـن لذلـة قـوم بعـد عزهمـو

أحـال حـولهم جـور وطغيـان

بـالأمس كـانوا ملوكـاً في منـازلهم

واليـوم هـم في بـلاد الكفـر عُبْـدَان

فلـو تـراهم حـيرى لا دليـل لهـم

علـيهم في ثيـاب الـذل ألـوان

ولـو رأيـت بكـاهم عنـد بـيعهم

لَهَالَـكَ الأمـرُ واسـتهوتك أحـزان

يـا رب أم وطفـل حيـل بيـنهما

كـما تفـرق أرواح وأبـدان

وطفلة مثل حسن الشمس قد طلعت

كـــأنما هـــي يـــاقوت ومرجـــان[1]

يقودهـا العلـج[2] للمكـروه مكرهـة

والعـــين باكيـــة والقلـــب حـــيران[3]

لمثـل هـذا يـذوب القلـب مـن كمـد

إن كـــان في القلـــب إســـلام وإيـــمان!

إن عروبة الأندلس وإسلامها، قد دامت ترفل بثياب الإسلام وتتحلى بحليه وتتزين بزيه قرابة ثمانية قرون قد أبادتها يد الغدر من الكفر وأتت عليها الصليبية البشعة كأشرس هجمة لا أخلاقية عرفتها الدنيا. شعب مسلم كامل يقتّل ويطرد من بلاده، وما ذاك إلا نتيجة الحقد والضغينة والمكر الدفين لهذا الدين والقائمين عليه.

إن أبا البقاء صالح بن شريف الرندي، يرثي الأندلس رثاء ينفطر له القلب ويجزع له الفؤاد، وتفيض له العيون والمآقي بالدموع الساخنة، إنه يصور زوال حضارة، وهدم دولة، واغتصاب أعراض.

ويح لنا نحن المسلمون، بل ويل وتثريب على هذا السكوت المخجل، لقد شنع بالإسلام والمسلمين، وهتكت أعراض الفتيات المسلمات بالأندلس، وجزر البحر

---

(1) تقول امرأة أو جارية طفلة بفتح الطاء: أي رخصة ناعمة رقيقة.

(2) العلج: الثور.

(3) ؟؟؟

الأبيض المتوسط، كصقلية وقبرص، وتم اغتصاب الفتيات المسلمات في لبنان أثر[1] الحرب القذرة التي شنّتها عصابات الكتائب لمؤازرة عصابات الهاجاناه اليهودية على الإسلام في لبنان. إنهم لا يريدون إسلاماً في لبنان، ولا يريدون مسلمين في ذلك الفردوس الشبيه بالأندلس ومما يدمي الفؤاد، ويلهب المشاعر، ويفيض العين بالدمعة السخية، أن المسلمين جميعاً يعلمون ما يدبّر للكيد للإسلام في لبنان، ولكنهم لم يأبهوا ولم يعوا الخطر الحقيقي لنيات هذه العصابة.

إن الإسلام لن يقف على قدميه إلا بالمسلمين، ولن يستطيع الوقوف ثابتاً جبّاراً عملاقاً إلا بقيام خلافة إسلامية رشيدة ليحل مشكلات الأمة الإسلامية، ويتطلع - لا إلى إرجاع فلسطين- بل وسيعمل حينئذ على إعادة كل ما ابتلع أو اقتطع أو بتر من أرض الإسلام وإننا لنأمل ويحدونا الأمل الباسم أن نرى -وإن لم نرها فالجيل التالي- راية الإسلام مرفرفة خفّاقة فوق أندلس الإسلام ثانية.

ولست بهذا أخرّف أو أتثاءب في أحلام اليقظة، ولكن يقيني بهذه الأمة -التي خرج من صلب رجالها ورحم نسائها- رسول الله ﷺ هادياً للبشرية مبشراً، وانطلق مع فئة مجاهدة صابرة ليدك حصون الكفر، ويرفع رايات الإسلام خفّاقة مظفرة تنعقد فوقها ألوية النصر وكتائب التخليص والتحرير من ظلم العبد لأخيه العبد، وظلم الإنسان لأخيه الإنسان، وستعرف البشرية وقتئذ أن الإسلام ما هو إلا خلاص لها من الشيوعية المارقة والرأسمالية المحتكرة، ومن عصابة الإرهاب زعيمة الكفر وفرعون الأرض في أيامنا هذه، الذي ينفث حقداً أسوداً ويقذف سمًّا زعافاً على هذا الدين وأتباعه، ويعلنها أكثر من مرة صليبية حاقدة.

---

(1) الحرب الأهلية في لبنان، ١٩٧٦.

لقد كان قدرنا أن نجرّب المبادئ الفاسدة من رأسمالية، إلى شيوعية، إلى اشتراكية جميعاً، فهلاّ جرّبنا الإسلام!! لنرى هل يحل مشكلاتنا أم لا؟ إنه قمين بذلك والله عليه لكفيل ومعين!؟

وكما تكالبت الصليبية الغادرة على الأندلس، ومحت منها الإسلام، اتجهت تقوم بالدور ذاته في فلسطين، ولكن بأيدٍ آثمة أخرى، هي أيدي الصهيونية كما نراها اليوم ونتألم لمصيرها في أقطارنا الإسلامية كافة، فهم حرب على الإسلام والمسلمين، يمدها في ذلك ويعينها عصابة آثمة تنزوي في ثنايا البيت الأسود زاده الله سواداً وجلّله به.

❊ ❊ ❊

وداع الأندلس عند عودته لمصر

وإذ تنتهي فترة النفي المحددة لشوقي، بعد أن نكأه الزمن والغربة العاتية، ومع اشتياقه لها وتطلعه للقدوم إليها -إلا أنه رأى لزاماً عليه وهو يغادر- أرض الأندلس الحبيبة لنفسه أيضاً لأنها دار من ديار الإسلام التي كانت تستظل تحت ظلال الخلافة، رأى لزاماً عليه أن يودعها وداع محب ولهان، وفي الوقت نفسه يرحب بعودته لوطنه الذي كان شغله الشاغل طوال مدّة غيبته فيقول[1]:

وداعــاً أرض أنْــدُلُسٍ وهــذا
ثنــائي إنْ رَضــيتِ بــه ثوابــا
ومــا أثنيــتُ إلا بَعــدَ عِلْــمٍ
وكــم مــن جاهــلٍ أثنــى فعابــا

******

ثم قال:

ويــا وطنــي لقيتــك بعــد يــأس
كــأني قــد لقيــتُ بــكِ الــشَّبابا
وكــلَّ مُــسافرٍ ســيئوبُ يومــاً
إذا رُزِقَ الــــسلامةَ والإيابــــا

(1) الشوقيات/ ج١/ ٦٥.

فكأنه كان قد يئس من عودته إلى أرضه الحبيبة، ولكنه قد لقيه وعاد إليه، فتمثل له عودة الشباب وفتوته، مختتماً قصيدته بحكمة من حكمه البالغة التي عودنا عليها، وهي أن المسافر لا بدّ أن يعود مهما طالت غيبته، بشرط أن يكتب له السلامة والعمر الطويل كي يؤوب إلى بلده.

ولشوقي في موضوع الأندلسيات ملحمة جليلة، تحكي قصة صقر قريش (عبد الرحمن الداخل) ذلك الفرد الأموي الذي استطاع أن يعبر المحيط وأن يشيّد أركان دولة طاولت بعزّتها السماء، ورسخت جذورها في أعماق الأرض، فشيّد حضارة زاهرة وأقام حكماً عادلاً وساس دولة عصرية في زمنه كانت تضاهي دولة الأمويين في دمشق، بل إنه كان متأثراً شديد التأثر بالحضارة الأموية.

* * *

دعوته لإحياء القومية العربية والوحدة الوطنية

يلمح كل دارس لتاريخ الأدب، أن هناك ثمة تعارض بين الدعوة للخلافة الإسلامية والدعوة للقومية والوطنية، ولكن شوقي ببراعته وباعه الطويل استطاع أن يجمع بين الاثنتين، دون أن يلمح الناقد أن بين هاتين الدعوتين تنافر، فهو إذ يدعو للوحدة الوطنية والقومية العربية، يعد أن العرب هم مادة الإسلام، وأن الإسلام ليشتد ساعده ويقوى بقوى العرب ووحدة الأمة.

ولذا، رأينا شوقي، داعياً للوحدة الوطنية في مصر عندما هبّت عليها رياح الفرقة وتناول فيها وصف ما أصاب البلاد سنة ١٩٢٤ من انقسام وتشاحن وتنافر، وقد كان هذا الاختلاف مبعثه الاختلاف على الدستور.

إن قلب شوقي ليحترق غيظاً من اختلاف الأحزاب وتشتت شمل أهل مصر، ومع ذلك فلا مصر حظيت بالاستقلال ولا بقيت السودان تابعة لها، بل اقتطعت منها، وما حرصه ذاك إلا لأن مصر بلداً إسلامياً، يرى من حقها الحرية والسيادة وعدم الخضوع للمستعمر البريطاني، إذ كان ديدنه نصرة الإسلام ومبدأه وهدفه رفعة الخلافة قائلاً[1]:

إلام الخلف بينكم؟ إلا ما؟
وهذي الضجة الكبرى علاما؟
وفيم يكيدُ بعضُكُم لِبَعْضٍ
وتُبدون العداوةَ والخصاما؟

---

(1) الشوقيات/ ج١/ ٢٢١، راجع كتاب المسألة الشرقية/ ٣٣١-٣٣٢.

وأيــن الفــوز؟ لا مــصرُ اســتقرت

عــلى حــال، ولا الــسُّودانُ دامــا؟

وأيــــن ذهبْــــتُمُ بــــالحق لمّــــا

ركبــــتم في قــــضيته الظلامــــا؟

وكانــت مــصرُ أولَ مــن أصــبتم

فلــم تُحْــصِ الجــراحَ ولا الكِلامــا

أبَعْــدَ العُــروة الــوُثْقى وَصَــفٍّ

كأنيــابِ الغَــضَنْفَرِ لــن يُرامــا

تبــــاغيتم كــــأنكم خلايــــا

مــن الــسرطان لا تجــد انــضماما

أرى طيــــــارَهُم أوفى علينــــــا

وحَلَّــقَ فــوق أرؤســنا وحامــا

وأنْظُــرُ جيــشَهُم مــن نــصف قــرنٍ

عــلى أبــصارِنا ضَرَب الخِيَامــا

إذا انفجــرت علينــا الخيــلُ منــه

ركبنــا الــصمت، أو قُــدْنا الكلامــا

فأَبنــــا بالتَّخــــاذُلِ والتَّلاحِــــي

وآب بــما ابتغــى منــا ورامــا

ولينـــا الأمـــرَ حزبـــاً بعـــد حِـــزْبٍ

فلـــم نـــك مُـــصلحينَ ولا كِرَامـــا

جعلنـــا الحكـــم توليـــةً وعـــزلاً

ولم نعـــــد الجـــــزاءَ ولا انتقامـــــا

ولقد نظم شوقي هذه القصيدة بمناسبة الذكرى السابعة عشرة لوفاة المرحوم مصطفى كامل، بعنوان (شهيد الحق) عام ١٩٢٥[1]، وأشار إلى تصريح ١٨ فبراير (شباط) وموقف بعض الزعماء حياله، وبه يذكر أن مصر لم تستقر على حال، وأن السودان لم يدم ارتباطه بها وكانت البلية أولاً وأخيراً على مصر، فآبوا بالفرقة والشتات، بعد أن كانوا صفاً واحداً، وفي هذه الفترة يبين أن جيوش الاحتلال قد استوطنت مصر وطاب لهم بها المقام، فطياروهم يحلقون بأجوائها بمنتهى الحرية، وجيوشهم تعسكر وترابط على أرضها مطمئنة إلى استكانتها غير عابئة بها.

ثم ينتقل إلى رثاء مصطفى كامل، مبيناً صفاته وما كان يتحلى به من علم وبيان وخلق مقارناً بينه وبين قس بن ساعدة الأيادي في بيانه خطيباً مفوهاً ولسناً فصيحاً، حين يخطب بجموع العرب في عكاظ، مع تفوقه عليه، وكان في حياته يواجه الحياة بكل صراحة ووضوح، ولا يختفي خلف الأقنعة والبراقع. وتدل مرثاته على مبلغ ما يكنه للفقيد من الإعجاب والإكبار. ويشيد بشجاعته في مقارعة الخصوم مشيراً إلى أنه شهيد الحق، وقد اعتاد أن يسقي الأعداء كؤوس الردى، مشيداً به من حيث أنه أول من دعا للوطنية، وأول من غرس كرمتها، وزكا أصولها، وكان مصطفى للوطنية

(1) راجع جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب/ ج٢/ ٢٢٩-٢٣٠.

نبيّها وداعيها، إذ هو من جعلها حقيقة تتردد على كل شفة بعد أن كانت مجرد حلم وخرافة، فيقول[1]:

شـــهيدَ الحـــقِّ قـــم تَـــرَهُ يتـــيماً

بـــأرض ضُـــيِّعَتْ فيهـــا اليتـــامى

أقـــامَ عـــلى الـــشفاه بهـــا غريبـــاً

ومـــرّ عـــلى القُلـــوب، فـــما أقامـــا

إذا جئـــتَ المنـــابرَ كنـــت قُـــسًّا

إذا هـــو في عكـــاظَ عـــلا الـــسَّنَاما

وأنـــتَ ألـــذُّ للحـــق اهتـــزازاً

وألطـــفُ حـــين تنطقـــه ابتـــساما

وتحمـــل مـــن أديـــمِ الحـــقِّ وجهـــاً

صُراحـــاً لـــيس يتّخـــذ اللثامـــا

******

لـــواؤك كـــان يـــسقيهم بجـــام

وكـــان الـــشعر بـــين يَـــدَيَّ جامـــا[2]

مـــن الوطنيـــةِ اســـتبقوا رَحيقـــاً

فَضَـــضْنا مـــن مُعَتَّقِهـــا الخِتَامـــا

---

(1) الشوقيات/ ج١/ ٢٢٣-٢٢٤.

(2) جاما: إناء من فضة.

غرســـنا كرمهـــا، فزكـــا أُصـــولاً

بكـــل قـــرارة، وزكـــا مُـــداما

لـك الخُطَـبُ التـي غَـصَّ الأعـادي

بـــسَوْرَتِها، وســـاغت للنَّـــدَامى

فكانـــت في مَرَارَتِهـــا زئـــيراً

وكانـــت في حَلاوتهـــا بُغامـــا[1]

بـك الوطنيـة اعتـدلت، وكانـت

حـــديثاً مـــن خُرافـــة أو مَنامـــا

بنيـــتَ قـــضيةَ الأوطـــانِ منهـــا

وَصَـــيَّرْتَ الجـــلاءَ لهـــا دِعَامـــا

هـــززتَ بنـــي الزمـــان بـــه صَـــبِيًّا

وَرُعْـــتَ بـــه بنـــي الـــدنيا غُلامـــا

* * *

(1) بُغاما: صوت الظبي.

رثاء الزعيم وحفلات التأبين

اهتزت البلاد وروعت لوفاة الزعيم مصطفى كامل، فجادت قرائح الشعراء والأدباء والكتاب بالمراثي الصادرة من أعماق القلوب وممن رثاه من أعلام الأدب، شوقي أمير الشعراء، وكان من أصدق أصدقائه وأكثرهم إعجاباً به، وقد حزن عليه حزناً شديداً ووصفه بالمجاهد وخادم الإسلام داعياً له الخلد في جنة الرضوان، وترجم عن شعوره بقصيدة تجلّت فيها حكمة الشعر، وروعة البلاغة، نشرت في يوم ٢٣ فبراير (شباط) ١٩٠٨ عقب وفاة الزعيم بثلاثة عشر يوماً، فأثرت في النفوس تأثيراً عميقاً، وجددت أحزان الأمة، ننشرها هنا لأنها قطعة من تاريخ الزعيم، وصورة حيّة بريشة أمير الشعراء[1].

وقد جعل القصيدة بعنوان (الحياة في الموت):

المشرقان عليك ينتحبان

قاصيهما في مأتم والداني

يا خادم الإسلام أجر مجاهد

في الله من خلد ومن رضوان

لما نعيت إلى الحجاز مشى الأسى

في الزائرين وروّع الحرمان

السكة الكبرى حيال رباهما

منكوسة الأعلام والقضبان

---

(1) مصطفى كامل - باعث الحركة الوطنية/ ٢٧٩.

لفُّــوك في علـــم الـــبلاد مُنكَّـــساً

جــزع الهــلال عــلى فتــى الفتيــان

يزّجون نعـشك في الـسَّناء وفي الـسَّنا

فكـــأنما في نعـــشك القَمَـــران

في ذمّـــة الله الكـــريم وبـــرِّه

مــا شــم مــن عــرق ومــن إحــسان

******

وجعلــت تــسألني الرثــاء فَهَاكَــهُ

مـــن أدمُعـــي وسرائـــري وجنـــاني

لــولا مغالبــة الــشجون لخــاطري

لنظمـــت فيـــك يتيمـــة الأزمـــان

قد كنت تهتـف في الـورى بقـصائدي

وتحـــل فـــوق النـــيرات مكـــاني

مــاذا دهــاني يــوم بنــت فعقّنــي

فيــك القــريض وخــاننني إمكــاني

******

يـا صـبّ مـصر ويـا شـهيد غرامهـا

هـــذا ثـــرى مـــصر فـــنم بأمـــان

لقد جمعت بين شوقي والراحل الكبير مصطفى كامل صداقة متينة، وودّاً توثقت عراه، وتألفت القلوب، وهفت لبعضها، ولم تكن يد المنون لتستمرئ تلك الصداقة وتبقي عليها. فكان حظ شوقي أن يتجرع الغصص والآلام المبرحة بفقد حبيبه الغالي وصديقه الوفّي. وقد تأثر شوقي لوفاته أبلغ تأثر، حتى أننا نلاحظ أن دمعه الهتون لم ينسكب من شدّة الوجد، ومآقيه لم تسح ذارفة الدمع، بل فاض دمعها لهول الفجيعة ووقع الرزء الفادح، وبعد أن فاق من أثر الصدمة، وصحا من ألم الفراق، انطلق على سجيته مذكراً الأمة بالفقيد العظيم الذي فقدت، وينكأ الجرح قبل أن يبل فيعيد للأمة ذكرى رفيقه الخالدة، ليتغنى به ممثلاً لشعب مكافح ناضل مع شعبه ووقف معه في أشد وأحرج الساعات، وخطّ له طريق النضال المفضي للنصر والعزّة القعساء، والكرامة الوثّابة، وحمل وإياه نقمة مستعرة لا تهدأ نارها أو تخمد على الاستعمار البغيض. وإذا كنا نعلم أن التمثل بالإسلام والإشادة بفضائله قد استولت على مشاعر شوقي، فإننا لا نجد غضاضة برؤيتنا له راثياً، ومن منطلق إسلامي محض حين يقول:

يا خادِمَ الإسلامِ أَجْر مُجاهِدٍ

في الله من خُلْدٍ ومن رِضْوان

فهو يؤكد أن صديقه كان طوال حياته خادماً للإسلام (فاللهم اجعلنا من خدمه) وأنه جاهد في الله حق جهاده، فحق له أن يتنعم في جنان الخلد وينعم برضوان ربه، وقد وضعه مع الشهداء الذين هم أحياء عند ربهم يرزقون!!

وشوقي في رثائه له، يحالفه كبير توفيق، عندما يشير إلى أن الحرمين الشريفين قد روّعا لوفاته، وما ذاك إلا لفقد خادمها، ذاكراً أن استشهاد مصطفى كامل لم يكن إلا

لقد قضى مصطفى كامل من أجل مصر وحبّاً بها وكلفاً، فحقيق بمن جاهد واستشهد من أجل صيانة بلده ودرء المخاطر عنه، أن ينام مطمئناً هادئ البال، وأرى أن اطمئنان الميت ينبع من وجهين:

أ- أنه قام بواجبه على الوجه الأكمل وعلى ذلك سيخلد إلى الراحة الأبدية، وينام ملء جفونه، إذ أدى رسالته على وجهها الصحيح.

ب- أنه خلّف وراءه قوماً عظاماً ورجالاً أباة أشاوس، وسيحملون الراية وينطلقون بها مجددين العهد على المضي لما قضى هو من أجله، وهذا مدعاة لنوم الميت مطمئناً إذ أن خلفه خلف صالح، حملة لرسالته، وباعثين لمجده، ودعاة هداة لنشر دعوته[1].

أما شوقي أمير الشعراء فقد كان صديقاً حميماً للفقيد، وكلاهما معجب بصاحبه أيما إعجاب، ولا غرو فهما صنوان، وفرسا رهان، هذا في ميدان الوطنية والجهاد، وذاك في دولة الشعر والبيان، وكان الفقيد يصف شوقي بأنه (الغدير الصافي في ألفاف الغاب، يسقي الأرض ولا يبصره الناظرون). وكان يخصص لقصائده أسمى مكان في اللواء، وفي ذلك يقول في مرثاته الخالدة:

قد كنت تهتف في الورى

وتجل فوق النَّيرَيْن مكاني

وزار الفقيد وهو على فراش الموت، فطلب إليه أن يرثيه، وفي ذلك يقول:

وجعلتَ تسألُني الرثاءَ فهاكَهُ بقصائدي

من أدمعي وسرائري وَجَنَاني

---

(1) مصطفى كامل/ ٤٠٠.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

خاتمـــة

ونحن نختتم هذه الدراسة المتواضعة عن (النزعـة الإسـلامية في شـعر شـوقي) نشعر أن هذا الجانب من شـاعريته مـا زال حقيقـاً بدراسـة متقـصيّة متأنيـة، تـسلط الأضواء على (جانب شخصيته الإسلامية)، وتحلل نفسيته تحليلاً واسعاً، ومع ذلـك فإننا نرى أنه قدّم للشعر العربي في عصره خدمات جُلِّي، وقدّم للإسلام عصارة قلبـه، وألبسه، مع اللغة العربية أفضل اللآل وأكرم الحلي. وقد اسـتطاع أن ينقـل لنـا بكـل أمانة ووضوح مشاعر الأمة الإسلامية في زينة بأنقى صورة، وأبلـغ عبـارة، في زمـان كانت الأمة ترى بها أن عليها حياطة الإسلام وخلافته وصـيانته بـالمهج لتبقيـه مبـدأ حياة ونظام تعامل، وأسلوب عيش.

فلشوقي نقدّم أسمى شكر وأعظم إجلال وإكبار على ما قدّمه للأمة من خدمات جليلة بإشادته بدينها، ومقارعته لخصومها، ومنافحتـه عـن خلافتهـا، التـي كـاد لهـا أعداء الأمة لإسقاطها، حتى تحقق لهم ذلك ولم تستطع أمة العرب والإسلام إعادتهـا لتاريخه لشدة كيد أعدائها؛ ولأنهم يعلمون أهميتها في حياة المسلمين، طـالبين لـه مـن الله حسن الجزاء، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

والحمد لله أولاً وآخراً، ومنه نستجدي العون والسداد، إنه نعم المولى ونعم الوكيل، والله الموفّق.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المراجع

- القرآن الكريم.

- الحديث.

- أحد عشر عاماً في صحبة أمير الشعراء.

- أدب الدولة العثمانية (عصور الزيديين والأيوبين والمماليك)، د. عمر موسى باشا، ، ط١، دار الفكر الحديث، ١٣٨٦هـ - ١٩٦٧م.

- الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، د. محمد محمد حسين.

- الأدب العربي المعاصر في مصر، د. شوقي ضيف، ط٦، دار المعارف بمصر، ١٩٢٦م.

- الحركة الأدبية في حلب، سامي الكيالي، معهد الدراسات العربية، ١٩٥٦م.

- الدين والأخلاق في شعر شوقي، علي النجدي ناصف، ط٢، مكتبة نهضة مصر بالفجالة، القاهرة، مصر.

- الرندي.

- الشوقيات، أحمد شوقي، المكتبة التجارية الكبرى، دار الكتاب العربي، بيروت.

- العقد الفريد، أبي عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه.

- المتنبي وشوقي، عباس حسين.

- المدائح النبوية في الأدب العربي - د. زكي مبارك.

- المسألة الشرقية، مصطفى كامل، ط١، مطبعة الآداب بمصر ١٨٩٨م.

- تاريخ الأستاذ الإمام، محمد رشيد رضا، ط١، مطبعة المنار بمصر.

- تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد بك المحامي، دار السبيل، بيروت، ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م.

- ثورة ١٩١٩، مصطفى كامل، باعث الحركة الوطنية، د. عبد الرحمن الرفاعي، مصر ١٣٦٥هـ-١٩٤٦م.

- جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، السيد أحمد الهاشمي، مؤسسة المعارف، بيروت، لبنان.

- حرب البلقان الأولى، يوسف البستاني المحرر بالجريدة، مصر، ١٩١٣م.

- حقيقة القومية العربية، محمد الغزالي.

- دراسات في الأدب الحديث/ ج١/ ٩٩-١٠٠.

- دراسات في الأدب العربي الحديث، د. محمد عبد المنعم الخفاجي، مكتبة الأزهر، الدراسة، القاهرة.

- دراسات في الشعر العربي المعاصر، د. شوقي ضيف.

- دول العرب وعظماء الإسلام، أحمد شوقي، مصر، ١٩٣٣.

- ديوان ابن زيدون، تحقيق حنا الفاخوري، دار الجيل، بيروت، لبنان.

- ديوان أبي نواس، الحسن بن هانئ، تحقيق أحمد عبد المجيد الغرابي، دار الكتاب العربي، ط١/ ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م، بيروت، لبنان.

- ديوان البارودي.

- ديوان البوصيري، شرف الدين أبي عبد الله محمد بن سعيد البوصيري، تحقيق: محمد سيد كيلاني، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط٢، ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م.

- ديوان الغاياتي (علي الغاياتي)، مطبعة عطايا بمصر، ط٢/ ١٣٥٦هـ-١٩٣٨م.

- ديوان الكاشف (أحمد الكاشف)، طبعة المنزقي بمصر/ ط٢/ ج١، مطبعة الجريدة بمصر/ ج٢/ ١٩١٣م-١٣٣١هـ.

- ديوان حافظ إبراهيم، ضبط وتصحيح: أحمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم الإبياري، دار العودة للصحافة والطباعة والنشر، بيروت، لبنان.

- ديوان عبد المطلب (محمد عبد المطلب)/ ط١/ مكتبة الاعتماد بمصر.

- ديوان كعب بن زهير، صنعة الإمام أبي سعيد الحسن بن الحسين العسكري، تقديم د. حنا نصر الحنفي، دار الكتاب العربي.

- ديوان نسيم (أحمد نسيم)، ج١، مطبعة الإصلاح، ١٣٢٦هـ، ١٩٠٨م.

- روائع من قصائد أحمد شوقي (أمير الشعراء)، سامر محيي الدين أمي، ط١، دار كنوز المعرفة العلمية للنشر والتوزيع، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

- شوقي شاعر العصر الحديث، د. شوقي ضيف.

- طبقات الشعراء المحدثين، عبد الله بن المعتز.

- شوقي وحافظ، طاهر الطناحي.

- شوقي وشعره الإسلامي، ماهر حسن فهمي.

- شوقي، شاعر العصر الحديث، شوقي ضيف.

- في الأدب الحديث، د. عمر الدسوقي.

- في الأدب الحديث، د. عمر الدسوقي.

- محمد فريد/ عبد الرحمن الرافعي، ط٥، مطبعة لجنة التأليف، ١٣٦٧هـ-١٩٤٨م.

- نصوص أدبية، د. حسن جاد حسن، جامعة الأزهر/ ٧٥/ ٧٦.

- وطنيتي (راجع ديوان الغاياتي)، ج٢، مطبعة الهلال، ١٩١٠.

المسألة الشرقية، مصطفى عبد الرزاق، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ٢٠٠١، طبع سنة ١٨٩٨.

* * *

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المحتويات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
أحمد شوقي	٧
حياته ونشأته	٧
شعره	٩
أمارته	١٠
أخلاقه	١٣
شاعريته	١٥
معارضاته	١٧
الجامعة الإسلامية	٤٩
الأصول العثماني	٧٩
الانقلاب العثماني وسقوط السلطان عبد الحميد	٩٠
الإشادة باللغة العربية وبأنها الكفيلة بحماية الإسلام	١١٦
المدائح النبوية وبيان فضل النبوة والإسلام	١٢٥
تصديه بعنف وإباء للاستعمار الفرنسي والإيطالي والإنجليزي	١٦٦

شوقي داعياً للوحدة العربية ٢٠٣
سماحته الدينية ٢٠٤
الأندلسيات..... ٢١٢
وداع الأندلس عند عودته لمصر ٢٢٤
دعوته لإحياء القومية العربية والوحدة الوطنية ٢٢٦
رثاء الزعيم وحفلات التأبين..... ٢٣١
خاتمـــــة ٢٣٩
المراجع ٢٤١
المحتويات ٢٤٥

❋ ❋ ❋

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

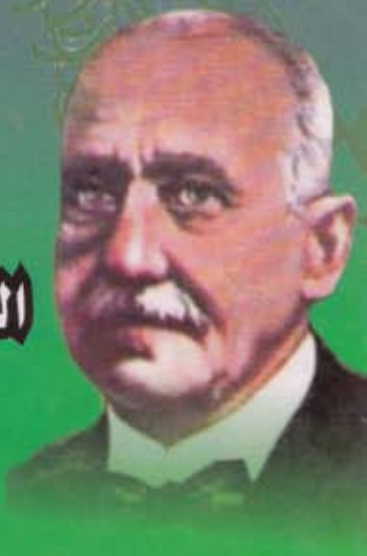

النزعة الإسلامية في شعر شوقي

دار يافا العلمية للنشر والتوزيع
الأردن - عمان - الأشرفية
تلفاكس ٠٠٩٦٢٦٤٧٧٨٧٧٠
ص.ب ٥٢٠٦٥١ عمان ١١١٥٢ الأردن
E-mail: dar_yafa@yahoo.com